ثورة الحسين عليه‌السلام

ظروفها الاجتماعيّة

وآثارها الإنسانيّة

تأليف

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين

وثّق اُصوله وحقّقه وعلّق عليه

الاُستاذ سامي الغريري الغرّاوي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

ثورة الحسين عليه‌السلام

ظروفها الاجتماعيّة

وآثارها الإنسانيّة

تأليف

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين

وثّق اُصوله وحقّقه وعلّق عليه

الاُستاذ سامي الغريري الغرّاوي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

فهرس الموضوعات

[مقدّمة الناشر 9](#_Toc439073060)

[مقدّمة الطبعة الرابعة 11](#_Toc439073061)

[المقدّمة 17](#_Toc439073062)

[ملامح من ثورة الحسين عليه‌السلام 21](#_Toc439073063)

[الفصل الأوّل:](#_Toc439073064) [الظروف السياسيّة والاجتماعيّة 29](#_Toc439073065)

[الحكم الاُموي كما صوّره خليفة اُموي 31](#_Toc439073066)

[تمهيد 33](#_Toc439073067)

[أ - منطق السّقيفة 34](#_Toc439073068)

[ب - مبدأ عمر في العطاء 36](#_Toc439073069)

[ج - الشورى 39](#_Toc439073070)

[سياسية عثمان الماليّة والإداريّة 43](#_Toc439073071)

[موقف عثمان من معارضيه 49](#_Toc439073072)

[نتائج سياسة عثمان 55](#_Toc439073073)

[موقف الإمام علي عليه‌السلام من الحكم بعد عثمان 59](#_Toc439073074)

[إصلاحات الإمام عليه‌السلام وموقف المسلمين منها 63](#_Toc439073075)

[سياسة معاوية الإرهاب والتجويع 73](#_Toc439073076)

[إحياء النزعة القبلية واستغلالها 91](#_Toc439073077)

[التحذير باسم الدين وشلّ الروح الثوريّة 109](#_Toc439073078)

[آثار سياسة معاوية في المجتمع الإسلامي 125](#_Toc439073079)

[موقف الحسن والحسين عليهما‌السلام من السياسة الاُمويّة 131](#_Toc439073080)

[الفصل الثاني: دوافع الثورة وأسبابها 135](#_Toc439073081)

[لماذا لم يثر الحسين عليه‌السلام في عهد معاوية 137](#_Toc439073082)

[الوضع النفسي والاجتماعي 140](#_Toc439073083)

[شخصيّة معاوية 153](#_Toc439073084)

[العهد والميثاق 159](#_Toc439073085)

[شخصيّة يزيد 163](#_Toc439073086)

[موقف الحسين عليه‌السلام من يزيد في حياة معاوية 165](#_Toc439073087)

[موقف الحسين عليه‌السلام من البيعة ليزيد 167](#_Toc439073088)

[بواعث الثورة عند الحسين عليه‌السلام 173](#_Toc439073089)

[بواعث الثورة لدى الرأي العام 179](#_Toc439073090)

[بواعث الثورة لدى الثائرين 182](#_Toc439073091)

[الفصل الثالث: آثار الثورة في الحياة الإسلاميّة 185](#_Toc439073092)

[تمهيد 187](#_Toc439073093)

[تحطيم الإطار الديني 197](#_Toc439073094)

[الشعور بالإثم 211](#_Toc439073095)

[الأخلاق الجديدة 219](#_Toc439073096)

[انبعاث الروح النضاليّة 235](#_Toc439073097)

[ثورة التوّابين 239](#_Toc439073098)

[ثورة المدينة 245](#_Toc439073099)

[ثورة المختار الثقفي 249](#_Toc439073100)

[ثورة مطرف بن المغيرة 253](#_Toc439073101)

[ثورة ابن الأشعث 255](#_Toc439073102)

[ثورة زيد بن علي بن الحسين عليهم‌السلام 259](#_Toc439073103)

[ثورة أبي السرايا 263](#_Toc439073104)

[ماذا أفادت الاُمّة من انبعاث الروح النضاليّة؟ 266](#_Toc439073105)

[خاتمة 269](#_Toc439073106)

[الفهارس الفنيّة العامّة 273](#_Toc439073107)

[فهرس الآيات 275](#_Toc439073108)

[فهرس الأحاديث 277](#_Toc439073109)

[فهرس المصادر المطبوعة والمخطوطة 281](#_Toc439073110)

مقدّمة الناشر

الحمد لله والصّلاة والسّلام على خير خلق الله أجمعين إمام المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين، القائل في حديثه الشريف: « مَنْ يرد الله به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين »(1).

الحمد لله أفاض على قلوب مَنْ يشاء من عباده فتفجّرت ينابيع الحكمة في أقوالهم وأفعالهم، وسالت أودية العلم بقدرها بأقلامهم ومدادهم، فملأت الدنيا علماً ونوراً، وصدقاً ويقيناً، واستبان للناس على ألسنتهم مكنون شريعة الله تعالى أصولاً وفروعاً، فسبحانه حين قال: ( يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُو الأَلْبَابِ )(2).

وبعد، فهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم، الموسوم بـ (ثورة الحسين ظروفها الاجتماعيّة وآثارها الإنسانية) من عُصارة أفكار العلاّمة الشيخ ممد مهدي شمس الدين (قدس سرّه)، كتبه عندما كان يدرس ويدرّس في النجف الأشرف، وهو من الفريق الأوّل، أي خريجو المدارس العالية والمستنيرون والمثقّفون، وأعلام الهداية الذين

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: صحيح البخاري 1/39 ح71، صحيح مسلم 2/718 ح1037.

(2) سورة البقرة/269.

حبّب الله إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، اُولئك هم الراشدون من أعلام النجف الأشرف الذين لا يشتهون سوى الحقّ طلبة، ولا يبغون آيات الله عوجاً، وممّن يلتقطون الحكمة أنّى وجدوها.

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة نظراً لأهميّة الموضوع؛ لأنّه مختصّ بظروف ثورة الإمام الحسين عليه‌السلام التي لا تُحصى ولا تُحصر، ولا تنقضي بمقال، وكلّ همّة عنها تسْتَقصر؛ لأنّها مرتبطة بالحبّ والاستشهاد الحسيني، وعلامة المحبّة أن تُوثر مطلوب محبوبك، بل حقّ العبادة أن يُقال: لا تشهد لك مطلوباً مع مطلوبه، فحبّ الله متوقف على حبّ رسوله، وحبّ رسوله صلى‌الله‌عليه‌وآله متوقف على حبّ آل بيته الكرام.

ولو أفردنا لثورته عليه‌السلام، لأفنينا في ذلك الطوامير، والدفاتر العراض؛ ففريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تَجلّى بثورة الإمام الحسين عليه‌السلام حين خاطب أهل الكوفة قائلاً: « وإنّي لم أخرج بطراً ولا أشراً، ولا مفسداً ولا ظالماً... وإنّما خرجت أطلب الصلاح في أمّة جدّي محمّد؛ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر »(1).

وعلّق الدكتور أسعد علي على هذا قائلاً: « فالخروج يعني تجاوز القول إلى الفعل، وعبّر عن هذا التجاوز التنفيذي بفعل وصل فيه فاعله، وبصيغة التقرير الذي يؤكّد ما حصل فعلاً »(2).

وقد تطابق على إيجاب هذه الفريضة الكتاب، والسنّة، والإجماع، والعقل، ولسنا بصدد بيان ذلك(3).

وبما أنّ مؤسسة دار الكتاب الإسلامي عُنيت بنشر التراث؛ لذا تنشر هذا السفر الجليل لرفد المكتبة الإسلاميّة والجامعات العلمية؛ لكي تستضاء بنوره.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الفتوح - لابن أعثم 5/34، مناقب آل أبي طالب 3/241.

(2) انظر: أنصار الحسين - لمحمد مهدي شمس الدين/39.

(3) انظر: الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية/317 وما بعدها.

مقدّمة الطبعة الرابعة

يُشرّفني ويُسعدني أن أقدّم إلى القرّاء الكرام الطبعة الرابعة من هذا الكتاب (ثورة الحسين ظروفها الاجتماعيّة وآثارها الإنسانيّة) بعد أن نفدت الطبعة الثالثة، وقد تلقّى القرّاء على اختلافهم هذا الكتاب لقاءً كريماً في كلّ إطلالة عليهم من خلال طبعاته الثلاث.

ولعل السّر في ذلك ما قاله عن هذا الكتاب من العلماء والمثقفين الذين نحترم علمهم وحيدتهم: « أنّه أفضل ما كُتب عن ثورة الحسين على الإطلاق ».

والحقّ أنّ ما كُتب عن ثورة الحسين عليه‌السلام - سوى هذا الكتاب - قد عالج تلك الثورة العظيمة وفقاً لأحد منهجين:

1 - منهج السّرد التاريخي المحض مع التركيز على عنصر المأساة فيها، وتعمد إبراز جانب الإثارة العاطفية منها.

وهذا منهج قديم في الكتابة عن هذه الثورة وغيرها، وهو استمرار لمنهج كُتّاب (المقتل) الذين كانوا يؤرّخون لبعض الثورات وحركات التمرّد في الإسلام من خلال التأريخ للأبطال البارزين في تلك الثورات وحركات التمرّد، أمثال (مقتل عثمان)، و (مقتل حجر بن

عدي)، و (مقتل عبد الله بن الزبير).

وهذا النوع من الكتابة يعتبر في رأينا إحدى الحلقات التمهيديّة التي مرّت بها كتابة التأريخ عند المسلمين، تُضاف إلى الحلقات الأخرى؛ تدوين الحديث، ونشوء فئة من المحدّثين والأخباريين (أصحاب الأخبار)، وكُتّاب السيرة النبويّة(1).

هذه الحلقات التي أدّت في النهاية إلى كتابة التأريخ الإسلامي وفقاً لمنهج « الحوليّات » عند محمد بن جرير الطبري وغيره.

2 - المنهج الجمالي التأريخي.

وكُتّاب هذا المنهج يسلّطون الأضواء على الفضائل أو الرذائل الشخصيّة لأطراف الصراع، فيفيضون في الحديث عن ما يتمتّع به طرفا الصراع من نبل أو خسّة، ويقدّم التأريخ الشخصي للشخصيّات شواهد جمّة على هذه المسلكية الأخلاقية، ويتوسّعون في الحديث عمّا يُميّز أحداث الثورة من رفعة في ميزان الأخلاق لدى فريق، أو إسفاف وحقارة في سلّم القيم لدى الفريق الآخر، هذا مع عناية بارزة بسرد أو تحليل الأصول الشخصيّة للخلاف العائلي بين الهاشميين والاُمويِّين في الجاهليّة وفي صدر الإسلام.

وإذا كان المنهج الأول استمراراً للمنهج القديم لكتّاب (المقتل) فإنّ هذا المنهج الثاني يُمثّل جانب الحداثة - كما يفهمها بعض المؤرّخين وكتّاب السيرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) لاحظ كتابنا، أنصار الحسين - دار الفكر - بيروت سنة 1975 م، فقد فصّلنا فيه الحديث عن هذا الموضوع الذي وفّقنا إلى اكتشافه، ونأمل أن يتوفر بعض الباحثين عليه لدراسته، ونقّدر أنّ دراسة معمّقة ومستوعبة لهذا الموضوع قد تؤدّي إلى تغيير النظرية السائدة حول نشوء الكتابة التأريخيّة عند المسلمين، والتي تعتمد على أفكار فرائز روزنتال. لاحظ كتابه (علم التأريخ عند المسلمين)، منه رحمه‌الله.

المحدّثين - وهو منهج يستفيد كثيراً من الأساليب التي حفلت بها الثقافة الأوربية في هذا الحقل؛ إنّ من حيث التخطيط والأسلوب والزوايا التي ينظر منها الباحث إلى موضعه، أو من حيث الانتفاع بما يوفّره علم الاجتماع وعلم النفس، والدراسات الجمالية والأخلاقية لهذا النوع من البحث التأريخي من فرص التوسّع والتنوّع.

\* \* \*

وقد كان المنهج الأول - في الماضي - يخدم أهدافاً تربوية وسياسية، وبالإضافة إلى الهدف الثقافي المحض الذي نقدّر أنّه لم يكن يحظى من كُتّاب المقتل القدماء بعناية ذات شأن؛ أمّا لدى المحدّثين من كُتّاب المقتل والسيرة الحسينيّة، فإنّ هذا المنهج يخدم أهدافاً ثقافية وتربوية فقط، بعد أن توارى الهدف السياسي منذ زمن طويل.

أمّا المنهج الثاني فإنّه يخدم أهدافاً ثقافية بالدرجة الأولى، وأهدافاً تربوية إلى حدّ ما دون أن يكون له فيما نقدّر أي مضمون سياسي، لكنّه يعاني في الوقت نفسه من عيب كبير؛ إذ إنّه يُعطي انطباعاً قويّاً بأنّ الثورة الحسينيّة ثمرة لخلاف عائلي وشخصي أضرمته المطامع السياسيّة، وغذّته - على مهل - طوال عقود كثيرة من السنين أحداث الصراع القبلي حول زعامة قريش ومكة.

وهذا انطباع خاطئ بلا شك؛ فإنّ حوافز الصراع الذي بلغ ذروته بالثورة الحسينيّة كانت من الجانب الحسيني ذات محتوى سياسي اجتماعي يستمد توجيهه العقيدي ومنهجيته التشريعية من الإسلام، وكانت من الجانب الأموي - جانب النظام - ذات محتوى سياسي اجتماعي يستمد توجيهه

المبدئي، وخطّ سيره من القيم القبائلية الجاهليّة من جهة، ومن طرائق الحكم البيزنطي من جهة ثانية، مع إسباغ صفة إسلاميّة على الممارسات التي يقوم بها النظام.

\* \* \*

ولكنّ هذين المنهجين - مع الاعتراف بكلّ فضائلهما - يفشلان في تحقيق هدف معاصر له أهمية بالغة في تحقيق التكامل الحضاري، والوعي السياسي لدى الإنسان المسلم بوجه خاص، حيث إنّ الباحث لا يستطيع - وفقاً لهذا أو ذاك منهما - أن يفهم ويقدّم الثورة الحسينيّة إلى الإنسان الحديث على ضوء المعطيات المعاصرة في المسألة الاجتماعيّة، ولا يستطيع أن يكشف عناصر الديمومة والاستمرار في الثورة.

هذه العناصر التي تجعل من الثورة شيئاً ذا صلة بالحاضر الحيّ، قادراً على إغناء الحاضر، وتزويده بعناصر من الفكر والرويّة تجعل النضال في حقل المسألة الاجتماعيّة يجمع - إلى جانب الحداثة - الأصالة الضرورية للحفاظ على سلامة الشخصيّة الإنسانيّة من التشويه، أو الذوبان في غمرة المتغيّرات المتسارعة لحضارة ماديّة غير إنسانيّة، هي الحضارة الماديّة الحديثة.

إنّ النقص الذي يُعاني منه هذان المنهجان يتلافاه - فيما نعتقد - المنهج الذي وضع هذا الكتاب وفقاً له؛ فقد عالج ثورة الحسين من زوايا جديدة، وكشف عن أبعاد جديدة، وأعماق بكر فيها جعلتها - من خلال التفسير الذي قدّم هذا الكتاب - ذات مضمون يتّسق مع التطلّعات التي يحملها الإنسان المعاصر إلى مجتمع تسوده العدالة، وتحكم علاقاته الروح الإنسانيّة وكرامة الإنسان؛

وبذلك نأى بها عن أن تكون مجرّد مأساة سببها ظلم البشر، أو مظهراً لصراع عائلي وشخصي على السلطة والنفوذ، ولم يُهمل في الوقت نفسه جانب المأساة منها، والعوامل الشخصيّة فيها.

هذه العوامل التي لوّنت السلوك الثوري لهذا الفريق، والسلوك القمعي لذاك الفريق دون الاعتراف بأنّ هذه العوامل هي السبب الكامن وراء الثورة الحسينيّة، حيث إنّ هذا السبب يكمن في الإيديولوجيا التي وجّهت طرفي الصراع نحو الاختيارات المبدئية التي قادت كلاً منهما إلى الاختيار الأخير الذي تمثل في الثورة الحسينيّة.

ويبدو أنّ هذا الكتاب للسبب الذي ذكرنا قد لبّى حاجة حقيقية لدى المثقّفين بوجه عام، والمعنيين بدراسة التأريخ الثوري للإسلام بوجه خاص. والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل مباركاً ونافعاً، والحمد لله ربّ العالمين.

بيروت 2/3/1397 هـ - 20/2/1977 م

محمد مهدي شمس الدين

المقدّمة

إنّ أكثر ما استأثر باهتمام الناس من ثورة الإمام الحسين عليه‌السلام هو جانب القصّة فيها ما اشتمل عليه من مظاهر البطولة النادرة، والسمو الإنساني المعجز لدى الثائرين وقائدهم العظيم، المتمثل في التضحية بكلّ عزيز من النفس والولد، والمال والدعة، والأمن في سبيل المبدأ والصالح العام، مع الضعف والقلّة، واليأس من النصر العسكري.

وما اشتمل عليه من مظاهر الجبن والخسّة والانحطاط الإنساني لدى السلطة الحاكمة، وممثلها وأدواتها في تنفيذ جريمتها الوحشية بملاحقة الثائرين واستئصالهم بصورة لم يشهد لها التأريخ مثيلاً.

وما اشتمل عليه من الأمثلة الفريدة على الحبّ، حبّ الثائرين لجلاّديهم، وإشفاقهم عليهم من السلطة الجائرة التي تستخدمهم، وتغرر بهم، وتدفعهم إلى حرب القوى التي تريد لهم الخير والصلاح، وحبّ الثائرين بعضهم لبعض بحيث يدفع كلاً منهم إلى طلب الموت قبل صاحبه؛ لئلا يرى صاحبه مقتولاً قبله.

يُقابل ذلك أبشع مظاهر الحقد والبغضاء لدى الحاكمين وأعوانهم، المتمثلة في حرمان الثائرين وأطفالهم حتى من الماء، وفي قتل الأطفال والنساء، إلى غير ذلك ممّا تعرضه قصّة هذه الثورة من أنبل ما في الإنسان في الفكر

والقول والعمل لدى الثائرين، وأحطّ ما فيه من غرائز لدى الحاكمين وأعوانهم، وما نتج من تقابل هذه النماذج المتضادة من المثل، والمبادئ، والعواطف، من مأساة دامية لا تزال تثير الأسى في قلب كلّ مَنْ سمعها أو قرأها.

وقد بلغ من قوّة تأثير الجانب القصصي المأساوي من هذه الثورة، بما له من دلالات مثيرة، أنّه فرض نفسه على معظم مَنْ كتب عنها - إن لم يكن كلّهم - فقصروا دراساتهم على هذا الجانب دون غيره.

ولكنّ الجانب القصصي - على ما له من مزايا تربوية وتوجيهية - ليس كلّ ثورة الحسين عليه‌السلام؛ فإنّ أحداث هذه الثورة، وكلّ ثورة، ليست معلّقة في الفراغ، وإنّما هي الجزاء الظاهر من عملية تأريخيّة واسعة النطاق.

فلكلّ ثورة جذور في نظام ومؤسسات المجتمع الذي اندلعت فيه، ولكلّ ثورة ظروف سياسية واجتماعية معينة، ولكلّ ثورة - وإن كانت فاشلة عسكرياً - آثار ونتائج، ولا يمكن أن تُفهم الثورة على وجهها ما لم تُدرس من جميع جوانبها؛ مقدّماتها ونتائجها، وهو ما هدفت إليه في هذا الكتاب؛ فقد حاولت فيه أن اُحلّل ثورة الحسين عليه‌السلام بدراسة ظروفها التي أحاطت بها، والملابسات التي أدّت إليها، والآثار التي نجمت عنها في الحياة الإسلاميّة.

وهو حلقة من سلسلة كتب آمل أن يوفّقني الله لإنجازها عن الثورات في التأريخ الإسلامي.

\* \* \*

وأعتقد أنّ الثورات في التأريخ الإسلامي لم تحظ بالعناية التي تستحقها من المؤرّخين والباحثين؛ القدماء منهم والمتأخرين، بل انصبت عنايتهم على تأريخ السلطة الحاكمة التي تسبغ على نفسها صفة الشرعية.

أمّا الثورات - وهي

تُمثل الجانب الآخر من قصّة الحكم في الإسلام - فقد عولجت بصورة جانبية، وبروح معادية في كثير من الحالات.

وربّما كان السبب في ذلك هو أنّ المؤرّخ القديم كان - في الأعمّ الأغلب - يكتب ما يكتب مقيّداً بتوجيه، أو رغبة الحاكم الذي يعيش في ظلّه، وينفق عليه.

وقد يتعدّى توجيه الحاكم للمؤرّخ عصره الذي يعيش فيه إلى الأحداث والشخصيات الفكرية والسياسية الماضية التي لم تفقد تأثيرها على الوضع السياسي والاجتماعي في عصر المؤرّخ.

ويبدو أنّ المؤرّخين المحدّثين قيّدوا أنفسهم بالمنهج الذي اتّبعه القدماء في هذا الموضوع، أو ربّما كان الذعر الذي يثيره الحديث عن الثورة في مجتمع مستقر سبباً لدى بعضهم في تجنّب الحديث عن الثورات والثائرين، لاسيّما وأنّنا لم نبلغ بعد مرحلة من النضج الفكري نفرّق فيها بين السياسة والعلم، أو مرتبة من الأمانة تبعدنا عن أن نُكرّس البحث العلمي لأغراض السياسة.

ولكن - مهما تكن المبرّرات - فإنّ إهمال البحث الجاد المستوعب للثورات في التأريخ الإسلامي يجعل الصورة التأريخيّة مشوّهة وناقصة؛ لأنّ الثورة - كما قلت آنفاً - هي الوجه الآخر من الصورة التأريخيّة للمجتمع الإسلامي، ولا يمكن تكوين فكرة صادقة عن أوضاع المسلمين القديمة ما لم نحط بالصورة من وجهيها.

وآمل أن يوفقني الله سبحانه وتعالى لإنجاز سلسلة كتب عن الثورات في التأريخ الإسلامي تكشف عن ألوان من كفاح المسلمين - عبر التأريخ - في سبيل تحسين أوضاعهم على هُدى من الشريعة الإسلاميّة.

وعسى أن أكون قد وفّقت في هذا الكتاب - وهو أوّل ما يُنشر من حلقات هذه السلسلة - إلى الصواب في استنتاجاتي وأحكامي. والله وراء القصد.

محمد مهدي شمس الدين

ملامح من ثورة الحسين عليه‌السلام(1)

الثورة الصحيحة هي الاحتجاج النهائي الحاسم على الواقع المعاش، فبعد أن تخفق جميع الوسائل الأخرى في تطوير الواقع تصبح الثورة قدراً حتمياً لا بدّ منه.

والقائمون بالثورة الصحيحة هم دائماً أصحّ أجزاء الأمّة، هم الطّليعة، هم النُّخبة التي لم يأسرها الواقع المعاش، وإنّما بقيت في مستوى أعلى منه وإن كانت تدركه، وتُعبه وترصده، وتنفعل به، وتتعذّب بسببه.

تُصبح الثورة قدر هذه النُّخبة ومصيرها المحتوم حيث تُخفق جميع وسائل الإصلاح الأخرى، وإلاّ فإنّ هذه النُّخبة تفقد مبررات وجودها إذا لم تثر، ولا يُمكن أن يُقال عنها أنّها نُخبة، أنّها تكون نُخبة حين يكون لها دور تأريخي، وحين تقوم بهذا الدور.

ولا بدّ أن تُبشر بأخلاق جديدة إذا حدثت في مجتمع ليس له تُراث ديني وإنساني يضمن لأفراده - لو اتّبع - حياة إنسانيّة متكاملة، أو تُحيي المبادئ والقيم التي هجرها المجتمع، أو حرّفها إذا كان للمجتمع مثل هذا التراث، كما هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نُشرت هذه المقالة في مجلة الأضواء الإسلاميّة التي كانت تصدر في النجف الأشرف، في العدد الثاني من السنة الأولى في 1 محرم 1380 - 26 حزيران 1960م، منه رحمه‌الله.

الحال في المجتمع الإسلامي الذي كانت سياسة الاُمويِّين المجافية للإسلام تحمله على هجر القيم الإسلاميّة، واستلهام الأخلاق الجاهليّة في الحياة، وتوفّر هذا الهدف في الثورة الصحيحة من جملة مقوّمات وجودها؛ لأنّ العلاقات الإنسانيّة في الواقع علاقات منحطّة وفاسدة، وموقف الإنسان من الحياة موقف متخاذل، أو موسوم بالانحطاط والانهيار، ولذلك انتهى الواقع إلى حدّ من السوء بحيث غدت الثورة علاجه الوحيد.

وإذاً فالدعوة إلى نموذج من الأخلاق أسمى ممّا يمارسه المجتمع ضرورة لازمة؛ لأنّه لا بدّ أن تتغيّر نظرة الإنسان إلى نفسه، وإلى الآخرين وإلى الحياة؛ ليمكن إصلاح المجتمع.

ولقد قدّم الحسين عليه‌السلام وأصحابه الأخلاق الإسلاميّة العالية بكامل صفاتها ونقائها، ولم يُقدّموا إلى المجتمع الإسلامي هذا اللون من الأخلاق بألسنتهم، وإنّما كتبوه بدمائهم، بحيواتهم...

\* \* \*

لقد اعتاد الرجل العادي إذ ذاك أن يرى الزعيم القبلي، أو الزعيم الديني يبيع ضميره بالمال، وبعرض الحياة الدنيا. لقد اعتاد أن يرى الجباه تعنو خضوعاً وخشوعاً لطاغية حقير؛ لمجرّد أنّه يملك أن يحرم من العطاء.

لقد خضع الزعماء الدينيون والسياسيون ليزيد على علمهم بحقارته وانحطاطه، وخضعوا لعبيد الله بن زياد على علمهم بأصله الحقير، ومنبته الوضيع، وخضعوا لغير هذا وذلك من الطغاة؛ لأنّ هؤلاء الطغاة يملكون الجاه، والمال، والنفوذ، ولأنّ التقرّب منهم، والتودّد إليهم كفيل بأن يجعلهم ذوي نفوذ في المجتمع، وأن يسبغ عليهم النعمة والرفاه وهناءة العيش.

وكان هؤلاء الزعماء يرتكبون كلّ شيء في سبيل نيل هذه الحظوة، كانوا يخونون مجتمعهم، فيتمالؤون مع هؤلاء الطغاة على إذلال هذا

المجتمع وسحقه وحرمانه، وكانوا يخونون ضمائرهم، فيبتدعون من ألوان الكذب ما يدعم هذه العروش، وكانوا يخونون دينهم الذي يأمرهم بتحطيم الطغاة بدل عبادتهم.

كان الرجل العادي في المجتمع الإسلامي آنذاك يعرف هذا اللون من الرجال، ويعرف لوناً آخر منهم، وهم اُولئك الزهاد الدجّالون الذين يتظاهرون بالزهد رياءً ونفاقاً، حتّى إذا تقرّبوا من الطغاة كانوا لهم أعواناً وأنصاراً.

إنّهم هذا الصنف الذي وصفه الإمام علي عليه‌السلام بقوله: « ومنهم مَنْ يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمّر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتّخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية »(1).

هؤلاء هم الزعماء الذي كان الرجل العادي يعرفهم وقد اعتادهم وألِفَهم، بحيث غدا يرى عملهم هذا طبيعياً لا يثير التساؤل؛ ولذلك فقد كان غريباً جدّاً على كثير من المسلمين آنذاك أن يروا إنساناً يخيّر بين حياة رافهة فيها الغنى، وفيها المتعة، وفيها النفوذ والطاعة، ولكن فيها إلى جانب ذلك كلّه الخضوع لطاغية، والإسهام معه في طغيانه، والمساومة على المبدأ والخيانة له.

وبين الموت عطشاً، مع قتل الصفوة الخلّص من أصحابه، وأولاده وإخوته، وأهل بيته جميعاً أمامه، وحيث تنظر إليهم عينه في ساعاتهم الأخيرة وهم يلوبون ظمأ، وهم يكافحون بضراوة وإصرار عدوّاً هائلاً يريد لهم الموت، أو هذا اللون من الحياة، ثمّ يرى مصارعهم واحداً بعد واحد، وأنّه ليعلم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: نهج البلاغة/الخطبة 32.

أي مصير فاجع محزن ينتظر آله ونساءه من بعده؛ سبي، وتشريد، ونقل من بلد إلى بلد، وحرمان... يعلم ذلك كلّه ثمّ يختار هذا اللون الرهيب من الموت على هذا اللون الرغيد من الحياة.

لقد كان غريباً جدّاً على هؤلاء يروا إنساناً كهذا... لقد اعتادوا على زعماء يمرّغون بجباههم في التراب خوفاً من مصير أهون من هذا بكثير أمثال عمر بن سعد، والأشعث بن قيس(1) ونظائرهما. تعوّدوا على هؤلاء فكان غريباً عليهم أن يُشاهدوا هذا النموذج العملاق من الإنسان، هذا النموذج الذي تعالى ويتعالى حتّى ليكاد القائل أن يقول: ما هذا بشر...(2).

ولقد هزّ هذا اللون من الأخلاق... هذا اللون من السلوك الضّمير المسلم هزّاً مُتداركاً، وأيقظه من سُباته المَرضي الطويل؛ ليُشاهد صفحة جديدة مشرقة يكتبها الإنسان بدمه في سبيل الشّرف والمبدأ، والحياة العارية من الذلّ والعبودية.

ولقد كشف له عن زيف الحياة التي يحياها، وعن زيف الزّعماء - أصناف اللّحم - الذين يعبدهم، وشق له طريقاً جديداً في العمل، وقدّم له أسلوباً جديداً في ممارسة الحياة، فيه قسوة، وفيه حرمان، ولكنّه طريق مضيء لا طريق غيره جدير بالإنسان.

ولقد غدا هذا اللون المشرق من الأخلاق، وهذا النموذج الباهر من السلوك خطراً رهيباً على حاكم يُجافي روح الإسلام في حكمه.

إنّ ضمائر الزعماء قليلاً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الأشعث بن قيس الكندي: وفد مع قومه إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله سنة عشر من الهجرة، وارتدّ بعد النبي فأُسر وجيء به إلى المدينة، فقال لأبي بكر: استبقني لحربك وزوّجني أختك. ففعل، وشهد مع علي صفّين، وألزم علياً بالتحكيم. مات بعد سنة أربعين بالكوفة. (انظر، المعارف - لابن قتيبة/168، أُسد الغابة 1/98، الفتوح - لابن أعثم 2/367، شرح النهج - لابن أبي الحديد 2/30 - 33).

(2) اقتباساً من قوله تعالى: ( مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ )، يوسف/31.

ما تتأثّر بهذه الـمُثل المُضيئة، ولكنّ الذي يتأثّر هي الأمّة، وهذا هو ما كان يريده الحسين عليه‌السلام.

لقد كان يريد شقّ الطريق للأمّة المـُستعبدة لتُناضل عن إنسانيتها. وفي جميع مراحل الثورة، مُنذ بدايتها في المدينة حتّى ختامها الدّامي في كربلاء نلمح التصميم على هذا النمط العالي من السلوك.

ها هو الحسين عليه‌السلام يقول لأخيه محمد بن الحنفيّة(1)، وهما بعد في المدينة: « يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى، لما بايعت يزيد بن معاوية »(2).

وها هو يتمثّل بأبيات يزيد بن مفرغ الحميري

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا ذُعِرَتُ السّوامَ في فلقِ الصّبـ |  | ـحِ مُغيراً ولا دُعِيتُ يزيدا |
| يوم أُعطي على المهانةِ ضيماً |  | والمنايا تَرصَدنني أن أحيدا(4) |

(3) حين انسلّ من المدينة في جنح الليل إلى مكة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) محمد بن الحنفيّة: هو محمد بن علي بن أبي طالب عليهم‌السلام، ابن الحنفيّة خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنفية من جذم بن بكر بن وائل، سُبيت ثمّ أخذها علي عليه‌السلام، واختلفوا في كيفية سبيها.

روى ابن أبي الحديد في شرح النهج 1/81 من شرحه عن أنساب البلاذري أن بني أسد غارت على بني حنيفة في أيّام أبي بكر فسبوها منهم، وقدموا بها المدينة فباعوها من علي عليه‌السلام، وبلغ قومها خبرها فأتوا علياً وأخبروه بموضعها منهم، فأعتقها، ومهرها وتزوّجها فولدت محمداً فكنّاه أبا القاسم.

وقيل: إنّ خالداً قاتل أهلها في حرب الردّة، وسباها ودفعها أبو بكر إلى علي عليه‌السلام. (انظر المعارف - لابن قتيبة/216).

(2) انظر، الفتوح - لابن أعثم 5/23، مقتل الحسين - للخوارزمي 1/188.

(3) هو أبو عثمان يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ الحميري؛ لُقّب جدّه مفرغاً لأنّه راهن على سقاء لبن أن يشربه كلّه، فشربه حتّى فرغ، فلُقّب به. وكان ابن مفرغ شاعراً، بل من فحول الشعراء، هجا معاذ بن زياد، وعبيد الله بن زياد، وقد نكلا به وحبساه، ولولا قومه وعشيرته التي كانوا مع يزيد بن معاوية لقتلاه. انظر: سير أعلام النبلاء 3/522.

(4) انظر: تأريخ الطبري 4/253، الكامل في التاريخ 3/265، تأريخ مدينة دمشق 14/204.

وها هو يُجيب الحر بن يزيد الرياحي(1) حين قال له: أذكرك الله في نفسك؛ فإنّي أشهد لئن قاتلت لتُقتلن، ولئن قُوتلت لتهلكن. فقال له الحسين عليه‌السلام: « أبالموت تخوّفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ ما أدري ما أقول لك! ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه - ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله - فقال له: أين تذهب فإنّك مقتول؟ فقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى |  | إذا ما نوى خيراً وجاهدَ مسلما |
| وواسى رجالاً صالحينَ بنفسه |  | وخالفَ مثبوراً وفارقَ مجرما |
| فإن عشتُ لم أندم وإن متُّ لم أُلم |  | كفى بكَ ذُلاً أن تعيشَ وتُرغما »(2) |

وها هو - وقد أُحيط به، وقيل له: انزل على حكم بني عمّك - يقول: « لا والله، لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أُقرّ إقرار العبيد. عباد الله، إنّي عُذت بربّي وربّكم أن تُرجمون، أعوذ بربّي وربّكم من كلّ مُتكبّر لا يُؤمن بيوم الحساب.

ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السّلة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وجدود طابت، وحجور طهرت، واُنوف حمية، ونفوس أبيّة لا تُؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام »(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هو الحرّ بن يزيد بن ناجية بن قضب بن عتاب بن هرمي بن رِياح بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن منّاة بن تميم التميمي اليربوعي اليامي، وكان شريفاً في قومه جاهليّة وإسلاماً... انظر ترجمته في إبصار العين في أنصار الحسين/115، طبعة النجف الأشرف، جمهرة أنساب العرب - لابن حزم/215.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/305، الكامل في التاريخ 3/270.

(3) انظر: تأريخ الطبري 5/425 - 426، طبعة سنة 1964 م، الكامل في التاريخ 3/287 - 288.

كلّ هذا يكشف عن طبيعة السلوك الذي اختطّه الحسين عليه‌السلام لنفسه ولمَنْ معه في كربلاء، وألهب به الرّوح الإسلاميّة بعد ذلك، وبثّ فيها قوّة جديدة.

\* \* \*

لقد عرفت كيف كان الزعماء الدينيون والسياسيون يُمارسون حياتهم، وهذا يرسم لك صورة عن نوع الحياة التي كان يُمارسها الإنسان العادي إذ ذاك.

لقد كان همّ الرجل العادي هو حياته الخاصة، يعمل لها، ويكدح في سبيلها، ولا يُفكّر إلاّ فيها، فإذا اتّسع أُفقه كانت القبيلة محل اهتمامه. أمّا المجتمع وآلامه، المجمع الكبير فلم يكن ليستأثر من الرجل العادي بأي اهتمام.

كانت القضايا العامّة بعيدة عن اهتمامه، لقد كان العمل فيها وظيفة زُعمائه الدينيين والسياسيين، يُفكّرون ويرسمون خُطّة العمل، وعليه أن يسير فقط، فلم تكن للرّجل العادي مشاركة جدّية إيجابية في قضايا المجتمع العامّة.

وكان يهتم غاية الاهتمام بعطائه، فيُحافظ عليه، ويُطيع توجيهات زُعمائه خشية أن يُمحى اسمه من العطاء، ويسكت عن نقد ما يراه جوراً بسبب ذلك، وكان يهتمّ بمفاخر قبيلته، ومثالب غيرها من القبائل، ويروي الأشعار في هذا وذاك. وهذا مُخطّط لحياة الرجل العادي إذ ذاك.

أمّا أصحاب الحسين عليه‌السلام فقد كان لهم شأن آخر؛ لقد كانت العُصبة التي رافقت الحسين عليه‌السلام وشاركته في مصيره رجالاً عاديين، لكلّ منهم بيت وزوجة، وأطفال وصداقات، ولكلّ منهم عطاء من بيت المال، وكان كثير منهم لا يزال في ميعة الصبا، في حياته مُتّسع للاستمتاع بالحُبّ وطيّبات الحياة، ولكنّهم جميعاً خرجوا عن ذلك كلّه، وواجهوا مُجتمعهم بعزمهم

على الموت مع الحسين عليه‌السلام... لقد ثاروا على مُجتمعهم القبلي، وعلى مُجتمعهم الكبير في سبيل مبدأ آمنوا به، وصمّموا على الموت في سبيله.

\* \* \*

ولقد عملت هذه الأخلاق عملها في إكساب الحياة الإسلاميّة سِمَة كانت قد فقدتها قبل ثورة الحسين عليه‌السلام بوقت طويل، ذلك هو الدور الذي غدا الرجل العادي يقوم به في الحياة العامّة بعد أن تأثّر وجدانه بسلوك الثائرين في كربلاء.

قد بدأ الحكام المُجافون للإسلام يحسبون حساباً لهؤلاء الرجال العاديين، وبدأ المجتمع الإسلامي يشهد من حين لآخر ثورات عارمة يقوم بها الرجال العاديون على الحاكمين الظالمين وأعوانهم؛ لبُعدهم عن الإسلام، وعدم استجابتهم لأوامر الله ونواهيه في سلوكهم.

ثورات كانت رُوح كربلاء تلهب أكثر القائمين بها، وتدفعهم إلى الاستماتة في سبيل ما يرونه حقّاً. ولقد تحطّمت دولة أُميّة بهذه الثورات، وقامت دولة العبّاسيين بوحي من الأفكار التي كانت تُبشر بها هذه الثورات.

ولمّا تبيّن للناس أنّ العبّاسيين كمَنْ سبقهم لم يسكنوا بل ثاروا... واستمرت الثورات التي تقودها رُوح كربلاء بدون انقطاع ضدّ كلّ ظلم وطُغيان وفساد.

ولئن تغيّرت أساليب الصراع اليوم فإنّ روح كربلاء هي التي يجب أن تقود خُطى المسلمين في كفاحهم للمبادئ المعادية للإسلام، وهي الكفيلة بأن تقودهم - في النهاية - إلى النصر إن تمسّكوا بها واستلهموها، وكانوا لباعثيها - أهل البيت عليهم‌السلام - أتباعاً.

الفصل الأوّل

الظروف السياسيّة والاجتماعيّة

الحكم الاُموي كما صوّره خليفة اُموي

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فَدَعْ عنكَ ادّكارَكَ آلَ سعدى |  | فنحنُ الأكثرونَ حصىً ومالا |
| ونحنُ المالكونَ الناسَ قسرا |  | نسومُهمُ المذلّةَ والنّكالا |
| ونوردُهم حياضَ الخسفِ ذُلاً |  | وما نألوهُمُ إلاّ خبالا(1) |

الوليد بن يزيد الاُموي

بُويع بالخلافة يوم الأربعاء 6/ربيع الثاني/سنة 125 هـ - 743 م، وقُتل بالبَحراء (قرية من قرى دمشق) يوم الخميس 28/جمادى الثانية/سنة 126 هـ - 744 م.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الأخبار الطوال - الدينوري/348، تأريخ دمشق 68/217، تأريخ الطبري 5/541.

تمهيد

لعلّ أصعب ما يواجه الباحث المؤرّخ هو أن يضع خطّاً حاسماً يفصل بين مرحلتين تأريخيتين لمُجتمع ما؛ فإنّ تحوّل المُجتمع من حالة إلى أُخرى بطيء وتدريجي، ولذلك فمن العسير تعيين وحدة زمنية والقول بأنّها خاتمة عهد وبداية عهد جديد.

وهذه هي الصعوبة التي نواجهها هنا حين نبغي وضع تحديد زماني دقيق للمرحلة التأريخيّة التي بدأت الأمّة المُسلمة تشهد فيها الانحراف الصريح عن مبادئ الإسلام، ولكنّنا نستطيع أن نشهد هذا التحوّل واضحاً منذ بداية النصف الثاني من عهد عثمان.

ومن الطبيعي إذاً أن تكون قد أعدّت ومهّدت سبيل الظهور لهذا التّيار الجديد في المُجتمع أحداث وأشكال جديدة في التنظيم نشأ - هذا التيار - من تفاعلها مع ذهنية الفئات التي كانت تحكم المُجتمع الإسلامي آنذاك وتقوده.

وعلينا - لكي تستوفي هذه الدراسة شروط البحث الموضوعي - ألاّ نكتفي بالظواهر فقط، بل نمضي في البحث عن جذور هذه الظواهر في تصرّفات الجماعات والرجال الذين صاغوا تأريخ هذه الفترة، مُنبّهين إلى أنّنا هنا إنّما

نبحث عن طبيعة الأحداث وآليتها، ومدى مساهمتها في التّعجيل بظهور هذا التّيار الجديد في الحياة الإسلاميّة، دون أن نعني بإصدار حكم أخلاقي على الرجال الذين صنعوا تأريخ هذه الفترة، أو الأعمال التي كوّنت هذا التأريخ، بل نهدف من بحثنا إلى اكتشاف الظروف الاجتماعيّة والإنسانيّة التي مهّدت لثورة الحسين عليه‌السلام؛ لاعتقادنا بأنّ هذه الثورة كغيرها من الأحداث الاجتماعيّة الهامّة لم تكن وليدة اندفاعات وقتيّة، وإنّما كانت نتاجاً للظروف الاجتماعيّة التي سبقتها.

وإذا استعرضنا جملة الأحداث التي كان لها تأثير في التّمهيد للتّطورات الكبرى في عهد عثمان وجدناها كثيرة، ولعلّ أهمّها ثلاثة:

\* منطق السّقيفة.

\* مبدأ عمر في العطاء.

\* حادثة الشورى.

ونظراً لِما لهذه الأحداث من أهميّة بالغة في تكوين هذه الفترة فإنّنا نخصّ كلّ واحد منها بشيء من الحديث.

## أ - منطق السّقيفة

لا يسع الباحث أن يُنكر أنّ وفاة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قد كشفت عن أنّ الرّوح القبلية كانت لا تزال مُتمكّنة في نفوس كثير من المسلمين، فقد عبّرت هذه الرّوح عن نفسها في أعمال الرجال الذين ظهروا على الصعيد السياسي في المدينة بعد وفاة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بساعات، وتحكّمت في توجيه سير الأحداث التي توالت بسرعة مذهلة.

ففي سقيفة بني سعادة اجتمع الأنصار يتداولون - بمعزل عن سائر

المسلمين - في مسألة الحكم بعد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، ويرون أنّه من حقّهم، بينما تكتّل ضدّهم فريق من القرشيين يُنازعهم هذا الأمر، مع العلم بأنّ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله لم يُفارقهم إلاّ بعد أن عهد بالحكم من بعده إلى علي بن أبي طالب عليه‌السلام الذي لم يشترك في أحداث السّقيفة؛ بسبب انشغاله مع الهاشميّين وبعض الأنصار بجثمان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله الذي كان لم يُدفن بعد.

ولكنّ تيّار الأحداث الجارف، وتسابق الكُتل السياسيّة إلى اغتنام فرصة الذّهول الذي أصاب أكثر المسلمين لوفاة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله من أجل الوصول إلى الحكم، حمل الجميع على تناسي عهد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى علي بن أبي طالب عليه‌السلام، وقد تولّى عمر في خلافته تبرير هذا الموقف في عدّة أحاديث له مع عبد الله بن عباس(1).

وإذا فحصنا المنطق الذي استُخدم في الجدل الذي دار آنذاك بين المهاجرين والأنصار نجد أنّ الرّوح القبلية ظاهرة فيه ظهوراً بيّناً؛ فقد أثار كلام أبي بكر الأحقاد والإحن الكامنة بين الأوس والخزرج، وأغرى بينهما؛ حيث تحدّث عمّا بين الحيين من القتلى، وعن الجُراح التي لا تُداوى، بينما نرى أنّ الحبّاب بن المنذر - خطيب الأنصار - قد تكلّم بنفس جاهلي صرف حين تحدّث إلى الأنصار يُهيجهم ويشدّ من عزائمهم.

ولم يخرج لسان المهاجرين عن هذه الرّوح حين قال: « مَنْ يُنازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مُدلٍ بباطل، أو متجانفٍ لإثم، أو مُتورّط في هلكة! »(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 5/31، الكامل - لابن الأثير 3/31، شرح نهج البلاغة « بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم » 2/57 و 12/9، 20 - 21، 78، 82، وفي تاريخ اليعقوبي: « وكان المهاجرون والأنصار لا يشكّون في علي عليه‌السلام ». وقريب منه في شرح نهج البلاغة 2/83، ولاحظ للمؤلف: « نظام الحكم والإدارة في الإسلام »، منه رحمه‌الله.

(2) انظر: تأريخ الطبري 2/457، شرح النهج - لابن أبي الحديد 6/9، الإمامة والسياسة 1/25.

وقد سارت الأحداث في الاتّجاه الذي رسمه أبو بكر؛ فانقسم الأنصار بتأثير الرّوح القبلية التي تأججت، وانخذل سعد بن عبادة الخزرجي - مُرشحهم للخلاقة - حيث بادرت الأوس فبايعت أبا بكر(1).

هذه الرّوح القبلية التي عبّرت عن نفسها يوم السّقيفة فتحت على المسلمين باباً من أبواب الفتنة؛ فقد خرجت قريش من هذه التّجربة وهي ترى أنّ الحكم حقّ من حقوقها، وأنّ الخلافة وراثة آلت إليها بحكم كون نبيّ المسلمين منها، ممّا سبّب أسوأ الآثار في فهم القرشيين لمهمّة الحكم في الإسلام، وستظهر هذه الآثار واضحة في عهد عثمان.

## ب - مبدأ عمر في العطاء

سوّى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بين المسلمين في العطاء، فلم يُفضّل أحداً منهم على أحد، وجرى على مبدأ التّسوية في العطاء أبو بكر مدّة خلافته، أمّا عمر فقد جرى - حين فرض العطاء في سنة عشرين للهجرة - على مبدأ التّفضيل؛ « ففضّل السابقين على غيرهم، وفضّل المهاجرين من

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ممّا لا يخلو من مغزى أنّ عمر حين فرض العطاء على مبدئه في تفضيل بعض المسلمين على بعض، فضّل الأوس على الخزرج في ذلك. راجع فتوح البلدان/437. وقد احتجّ سعد بن عبادة على توجيه الأحداث السياسيّة بهذا الشكل، فلعنه عمر وأبو بكر جهاراً، وبرءا منه، وأخرجاه من المدينة إلى الشام حيث قُتل هناك. وكان ممّا قال فيه عمر: (اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً، اقتلوه فإنّه منافق)، منه رحمه‌الله.

ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة 2/17، 21، الطبقات - لابن سعد 3/ق2/145، تأريخ ابن عساكر 6/90، كنز العمال 3/134، السيرة الحلبيّة 3/397.

قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافّة على الأنصار كافّة، وفضّل العرب على العجم، وفضّل الصريح على المولى »(1)، وفضّل مضر على ربيعة، ففرض لمضر في ثلاثمئة، ولربيعة في مئتين(2)، وفضّل الأوس على الخزرج(3).

وقد ولّد هذا المبدأ فيما بعد أسوأ الآثار في الحياة الإسلاميّة؛ حيث إنّه وضع أساس تكوّن الطبقات في المجتمع الإسلامي، وجعل المزية الدينية من سُبل التفوّق المادي، وزََوّد الإرستقراطية القرشية التي مكّنت لنفسها من جديد بتمكّن أبي بكر من الحكم بمبرر جديد للاستعلاء والتحكّم بمقدّرات المسلمين، فجميع اعتبارات التفضيل تجعل القرشيين أفضل في العطاء من غير القرشيين(4)، وهذا يعني أنّ قريشاً هي أفضل النّاس؛ لأنّها قريش، وكفى بهذا مبرراً للتحكيم والاستعلاء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الفتوح 19/383، 385، المبسوط - للسرخسي 27/132، البحر الرائق 5/200، حاشية ردّ المحتار 4/403، المغني - لابن قدامة 7/309، نيل الأوطار 8/235، تهذيب الأحكام 6/146، الغارات 1/77، أخبار عمر بن الخطاب - للطنطاوي/122، فتوح البلدان - للبلاذري/435، الفخري - للطنطقي/60، الطبقات الكبري 3/233، الخراج - لأبي يوسف/51، الكامل - لابن الأثير 2/247، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 8/111، 12/214، تأريخ الطبري 3/614، الأحكام السلطانية/177، الأموال - لأبي عبيدة/226، فتح الباري 12/6، المصنّف - لابن أبي شيبة 8/580 ح14، فيض القدير 1/618، تفسير القرطبي 14 م 239، الأحكام - لابن حزم 6/798، المستصفى - للغزالي/287، الأحكام - للآمدي 3/287، 4/41، أُسد الغابة 4/71، الإصابة 1/202.

(2) انظر: تأريخ اليعقوبي 2/106.

(3) انظر: فتوح البلدان/437.

(4) فَهُم عرب، وقريشيون، ومضريون، ومهاجرون.

وقد كوّن هذا المبدأ سبباً جديداً من أسباب الصراع القبلي بين ربيعة ومضر، وبين الأوس والخزرج بما تضمّن من تفضيل سائر مضر على سائر ربيعة، وتفضيل الأوس على الخزرج.

ونظن أن هذا المبدأ قد أرسى أوّل أساس من أسس الصراع العنصري بين المسلمين العرب وغيرهم من المسلمين بما جرى عليه عمر من تفضيل العرب على العجم، والصّريح على المولى.

وكأنّ عمر قد أدرك في آخر أيّامه الأخطار السياسيّة والاجتماعيّة التي يؤدّي إليها مبدؤه هذا، ولعلّه رأى بعض الآثار الضّارة التي خلّفها هذا المبدأ في حياة المسلمين، ومنها هذه الظاهرة التي دلّت على تسرّب روح التحزّب والانقسام إلى مجتمع المدينة، والتي لاحظها عمر وحذّر منها بقوله: « بلغني أنّكم تتّخذون مجالس، لا يجلس اثنان معاً حتّى يُقال: من صحابة فلان، من جلساء فلان، حتّى تُحُوميت المجالس. وأيم الله إنّ هذا لسريع في دينكم، سريع في شرفكم، سريع في ذات بينكم...»(1).

ولذلك أعلن عزمه على الرجوع إلى المبدأ النبويّ في العطاء، فقال: « إنّي كنت تألّفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض، وإن عشت هذه السّنَة ساويت بين الناس فلم أفضّل أحمر على أسود، ولا عربياً على أعجمي، وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر »(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 3/281 في أحداث سنة ثلاث وعشرين.

(2) انظر: تأريخ اليعقوبي 2/107، شرح نهج البلاغة (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) 2/131 - 132، ابن الطنطقي في الفخري/73.

ولكنّ عمر قُتل قبل أن يرجع عن هذا المبدأ، فجاء عهد عثمان وسار عليه، فظهرت آثاره الضّارة في الحياة الإسلاميّة، وكان من أهم العوامل التي مهّدت للفتنة بين المسلمين.

## ج - الشورى

وإذا كان التفضيل في العطاء قد خلق شعوراً بالامتياز والتفرّد لدى قريش فإنّ الشّورى التي اقترحها عمر قد أثارت في نفوس كثير من الأشخاص البارزين في قريش آنذاك، وفي نفوس قبائلهم وأنصارهم مطامح سياسية ما كانوا ليحلموا بها؛ فقد جعل عمر الشّورى في ستة نفر من قريش، وكلّهم مرشّح للخلافة.

وها نحن نُثبت هنا نصّاً يصوّر لنا توزيع القوى السياسيّة أمام الحدث الذي يوشك أن يقع، وهو بيعة خليفة جديد للمسلمين بعد عمر بن الخطّاب من بين هؤلاء المرشّحين، «... فخرج عبد الرحمن - ابن عوف - فمكث ثلاثة أيّام يُشاور الناس ثمّ رجع، واجتمع الناس وكثروا على الباب، لا يشكّون أنّه يبايع علي بن أبي طالب (عليه السلام)(1)، وكان هوى قريش كافّة - ما عدا بني هاشم - في عثمان، وهوى طائفة من الأنصار مع علي عليه‌السلام، وهوى طائفة أخرى مع عثمان، وهي أقل

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) وليس هنا شيء جديد بالنسبة إلى موقف الناس من علي عليه‌السلام، فهذا هو موقفهم منه منذ السقيفة؛ ففي تأريخ اليعقوبي 2/83: « وكان المهاجرين والأنصار لا يشكّون في علي »، منه رحمه‌الله.

الطائفتين »(1).

فالناس يريدون علياً عليه‌السلام؛ لأنّهم يخشون سلطان بني أُميّة، أمّا قريش فهي تخشى علياً وعدله واستقامته، ولعلّ كثيرين منهم كانوا على علم ببعض آرائه في المال والاجتماع والولايات، وأمّا الأنصار فكثرتهم مع علي عليه‌السلام، وقلّتهم مع عثمان، وهذا طبيعي؛ بسبب خوفهم من تسلّط قريش على جميع مقدّرات الدولة.

وقد سيطر منطق السّقيفة القبلي على بني أُميّة في الجدل الذي دار في مسجد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في المدينة، والذي سبق البيعة لعثمان وبدا واضحاً أنّ قريشاً اعتبرت الخلافة مؤسسة من مؤسساتها، وشأناً من شؤونها الخاصّة، وليس لأيّ من المسلمين أن يتقدّم في الخلافة برأي يتنافى ورغباتها.

هذا عبد الله بن أبي ربيعة بن المُغيرة المخزومي يقول للمقداد بن عمرو: « يابن الحليف العسيف، ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول في أمر قريش »(2).

وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح الاُموي: « أيّها الملأ، إنّ أردتم ألاّ تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان »(3).

أمّا عمار بن ياسر قال: « إنّ أردتم ألاّ يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 9/52.

(2) انظر: المصدر السابق، تأريخ الطبري 4/232 - 233.

(3) انظر: المصدران السابقان.

علياً »(1).

فقد آلت الشّورى إذاً في النتيجة إلى استيلاء الاُمويِّين - في شخص عثمان - على الحكم، ولكنّها خلقت مواقف مختلفة من هذه النتيجة، حيث بدأ التفكير في الخلافة يتسرّب إلى نفوس هؤلاء المرشّحين من رجال الشّورى، وغدا كلّ واحد منهم يرجوها لنفسه بعد أن رشّحه لها عمر، وطمح إلى الخلافة رجال غير رجال الشّورى من قريش؛ لأنّهم رأوا أنّ بعض مَنْ رشّحهم عمر لا يفضلونهم في شيء، بل ربّما امتازوا عليهم في أشياء كثيرة.

وكان لنظام الشّورى أسوأ الأثر في نفسيّات الأنصار، هؤلاء الذين وعدوا في السّقيفة أن يكونوا وزراء وشركاء في الحكم، وإذا بهم يُحرمون من كلّ شيء حتّى من حقّ المشورة.

أضف إلى هذا: إنّ النتيجة التي آلت إليها لم تكن مُرضية لهم؛ فقد رأوا في انتصار الاُمويِّين انتصار لأعدائهم القدماء من مشركي مكّة.

وقد عبّر علي بن أبي طالب عليه‌السلام عن عدم رضاه عن هذه النتيجة، وتسليمه بالأمر الواقع قائلاً: « لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري، ووالله لأُسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جوز إلاّ عليّ خاصّة »(2).

بينما أخذ الطّامحون إلى الخلافة يجمعون الأنصار حولهم في الخفاء، ويستعينون على ذلك بأموالهم وقبائلهم، وإنشاء علاقات المصاهرة مع القبائل الأخرى، حتّى إذا تقدّم العمر بخلافة عثمان ظهرت هذه الأحزاب إلى العلن،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: المصدران السابقان.

(2) انظر: نهج البلاغة/الخطبة 73.

تعمل في سبيل هدفها الفريد.

وكانت عاقبة الشّورى أنّها سبّبت نُشوء هذه الأحزاب القائمة على الولاء لأشخاص مُعيّنين ذوي أهداف شخصيّة في الوصول إلى الحكم، مستغلّة أسباب الشّكوى والاستياء من عثمان وبطانته وولاته على الأمصار.

وقد روى ابن عبد ربّه حديثاً لمعاوية بن أبي سفيان اعترف فيه بأنّه: « لم يُشتّت بين المسلمين ولا فرّق أهواءهم إلاّ الشّورى التي جعلها عمر في ستة نفر... لم يكن رجل منهم رجاها لنفسه، ورجاها له قومه، وتطلّعت إلى ذلك نفسه »(1).

هذه هي الأحداث التي نرى أنّها تتّصل اتصالاً وثيقاً بالفتنة التي أصابت المسلمين في عهد عثمان، فقد تفاعلت هذه الأحداث فيما بينها، وتفاعلت مجتمعة مع أسلوب عثمان في سياسة المال، والإدارة، والاجتماع، فكان من ذلك جميعاً الانحراف الصريح عن مبادئ الإسلام الذي وصل بالمأساة إلى قمّتها فدفع بالمسلمين إلى الثورة، وانتهى بهم إلى شرّ ما كانوا يحذرون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: العقد الفريد - بتحقيق محمد سعيد العريان 5/31 - 32.

سياسية عثمان الماليّة والإداريّة

وسار عثمان حين ولي الخلافة على سياسة في المال لم يعهدها المسلمون ممّن تقدّمه، ولم يألفوها؛ فقد راح يغدق الهبات الضخمة على آله وذويه وغيرهم من أعيان قريش، وعلى بعض أعضاء الشّورى بصورة خاصّة.

ولو كانت هذه الهبات من أمواله الخاصّة لما أثارت اعتراض أحد، ولكنّها كانت من بيت المال الذي يشترك فيه المسلمون جميعاً. وقد سار عمّال عثمان في أنحاء الخلافة سيرته في المدينة، فانكفؤوا على بيوت الأموال المحلية ينفقونها على آلهم وأنصارهم والمقرّبين إليهم(1).

وقام عثمان بإجراء مالي فتح به للطّبقة الثريّة التي كان يخصّها بهباته وعطاياه أبواباً من النشاط المالي، وأتاح لهم فرص التّمكين لنفسها وتنمية ثرواتها، وذلك حين اقترح أن ينقل الناس فيهم من الأرض إلى حيث أقاموا؛ فلمَنْ كان له أرض في العراق، أو في الشام، أو في مصر أن يبيعها ممّن له أرض بالحجاز، أو غيره من بلاد العرب.

وقد سارع الأثرياء إلى الاستفادة من هذا الإجراء، فاشتروا بأموالهم المُكدّسة أرضين في البلاد المفتوحة، وبادلوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: مروج الذهب 2/341، أنساب الأشراف 5/25 - 28، 48، 54، وغيرهما.

بأرضهم الحجاز أرضين في البلاد المفتوحة، وجلبوا لها الرقيق والأحرار يعملون فيها ويستثمرونها، وبذلك نمت هذه الثروات نمواً عظيماً، وازدادت هذه الطّبقة الطّامحة إلى الحكم والطّامحة إلى السيادة قوّة إلى قوّتها.

وقد ذكر المسعودي وغيره بعض الأمثلة على هذه الثروات الضّخمة في ذلك الوقت، « فقد بلغت ثورة الزبير خمسين ألف دينار، وألف فرس، وألف عبد، وضياعاً وخططاً في البصرة، والكوفة، ومضر، والإسكندرية.

وكانت غلّة طلحة بن عبيد الله من العراق كلّ يوم ألف دينار، وقيل أكثر، وبناحية الشّراة أكثر ممّا ذكرنا. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف مئة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة، وبلغ ربع ثمن ماله بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً.

وحين مات زيد بن ثابت خلّف من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مئة ألف دينار. ومات يعلى بن مُنبه وخلّف خمسمئة ألف دينار، وديوناً، وعقارات وغير ذلك ما قيمته ثلاثمئة ألف دينار.

أمّا عثمان نفسه فكان له يوم قُتل عند خازنه مئة وخمسون ألف دينار، ومليون درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى، وحنين وغيرهما مئة ألف دينار، وخلّف خيلاً كثيراً وإبلاً ».

ثمّ قال المسعودي بعد ذلك: « وهذا باب يتّسع ذكره، ويكثر وصفه فيمَنْ تملّك الأموال في أيّامه »(1).

وقد جدّت إلى جانب هذه الطّبقة الثريّة طبقة أُخرى فقيرة، لم تملك أرضاً ولا مالاً، وليس لها عطاءات ضخمة، تلك هي طبقة الجنود المُقاتلين وأهلهم وذراريهم.

وقد تكوّنت هذه الطبقة باستئثار عثمان وعمّاله بالفيء والغنائم لأنفسهم والمُقرّبين منهم، وحرمان المقاتلين منها؛ مدّعين أنّ الفيء لله وليس للمحارب إلاّ أجر قليل يُدفع إليه(2).

أمّا السّواد، سواد العراق، فهو - على حدّ تعبير سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة - « إنّما السّواد بُستان لقريش تأخذ منه ما شاءت، وتترك منه ما شاءت »(3).

وأمّا أموال بيت المال فقد قال عثمان نفسه عنها: « لنأخُذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أُنوف أقوام »(4).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: مروج الذهب 1/34، 2/341 - 343، الطبقات الكبرى 3/78، 136، تأريخ الأمم والملوك 5/134.

(2) انظر تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن 1/358.

(3) انظر: تأريخ الطبري 3/365، الكامل في التأريخ 3/137، تأريخ مدينة دمشق 21/114، الطبقات الكبرى 5/32، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 3/129، مروج الذهب 2/346.

(4) انظر شرح نهج البلاغة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم 3/49.

ومضت الأيّام، والأحداث تزيد الهُوّة اتّساعاً بين هاتين الطبقتين؛ فبينما تزداد الطّبقة الإرستقراطية الثريّة ثراء وتسلّطاً، وتُمعن في اللهو والبطالة والعبث بحيث يُشارك بعض أولاد الخليفة نفسه في اللهو الحرام والمجون(1)، تُزداد الطّبقة الأُخرى فقراً وإحساساً بهذا الفقر.

ولم يكن المُسلمون بحاجة إلى وقت طويل ليتبيّن لهم أنّهم حين بايعوا عثمان قد سلّموا السّلطان الفعلي على المُسلمين إلى آله وذوي قرابته من بني أُميّة وآل أبي معيط؛ فقد اتّضح في وقت مبكّر أنّ عثمان ليس إلاّ واجهة يكمن خلفها الاُمويّون. وسرعان ما عزّزت الأحداث هذا؛ وذلك إنّ عثمان أسند إلى آله وذويه الولايات الكبرى في دولة الخلافة، وهي: البصرة والكوفة، والشام ومصر.

وهذه الولايات الكبرى الأربع هي الولايات ذات المنزلة العظيمة في الحرب والاقتصاد والاجتماع. فهي مركز الثروة المالية، والزراعية لدولة الخلافة منها تُحمل الأموال والأقوات، وهي مركز تجمّع الجيوش الإسلاميّة الوافدة من شتى بقاع الدولة، وهي مركز عمليات الفتح الكبرى التي كانت إذ ذاك لا تزال في أوجها، وما عدا هذه الولايات فذو شأن ثانوي لا يُؤبه له، ولا يُلتف إليه.

لقد ولّى عثمان على البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز، وعمره خمس وعشرون سنة، وولّى على الكوفة أخاه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثمّ عزله تحت ضغط الرأي العام بعد أن ثبت عليه شرب الخمر والتهتّك، وولّى مكانه سعيد بن العاص، وكان معاوية عاملاً لعمر على دمشق والأردن فضمّ إليه عثمان ولاية حمص، وفلسطين، والجزيرة، وبذلك مدّ له في أسباب السّلطان إلى أبعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) « قُتل عثمان وابنه الوليد - وكان صاحب شراب وفتوّة ومجون - وهو مُخَلق الوجه، سكران، عليه مصبغات واسعة ». انظر: مروج الذهب 2/341، المعارف - لابن قتيبة/202 (دار الكتب/1960).

مدى مُستطاع، وولّى مصر أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

كان هؤلاء الولاة جميعاً من قرابة عثمان، ولم يكن سلوكهم الديني أو الإداري أو هما معاً في أمصارهم ومع رعيتهم مُرضياً ومقبولاً؛ فقد كانوا جميعاً من قريش، وكانوا في تصرّفاتهم لا يخفون قبليتهم وتعصّبهم على غير قريش من قبائل العرب؛ ففي الكوفة تجبّر سعيد بن العاص وتعصّب لقريش، وقال: « إنّما السّواد بُستان لقريش تأخذ منه ما شاءت، وتترك منه ما شاءت »(1).

فلمّا اعترضه المسلمون من غير قريش نفاهم إلى الشام، وإذا بمعاوية يناظرهم في فضل قريش وتقدّمها على سائر المسلمين، فلمّا أنكروا عليه ذلك نفاهم إلى الجزيرة - وأميرها من قبل معاوية عبد الله بن خالد بن الوليد المخزومي - فأذلّهم، وأظهر لهم سيادة قريش بامتهانه لهم، وتحقيره لشأنهم، وحطّه من مقامهم.

وفي مصر قسا عبد الله بن سعد في جباية الخراج، فظلم وأسرف في الظلم، ثمّ أظهر من العصبيّة لقريش ما أثار غير قريش من العرب المسلمين ودفعهم إلى أن يشكوه إلى عثمان، فلمّا كتب إليه عثمان يأمره بالإقلاع عمّا هو عليه عدا على الشهود فعاقبهم، وضرب رجلاً منهم حتّى قتله.

ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الإسلام، وإنّما كانوا متّهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق ورِقّة الدين معروف مشهور.

كان فيهم عبد الله بن سعد الذي بالغ في إيذاء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله والسُّخر منه، وبالغ في الهُزء بالقرآن حتّى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممّن أمره في

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 3/365، الكامل في التأريخ 3/127، تأريخ مدينة دمشق 21/114، الطبقات الكبرى 5/32، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 3/129، مروج الذهب 2/346.

الفُسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يُعلن فسقه.

وكان المُسلمون - أعيانهم وعامّتهم - يُراجعون عثمان في شأن هؤلاء الولاة من أقاربه، ويطلبون منه عزلهم فلا يعزلهم، ولا يسمع فيهم أيّة شكوى إلاّ كارهاً.

هذه السياسة التي سلكها عثمان في الولايات أثارت عليه وعلى عهده موجة عامّة من السّخط بين المسلمين؛ لِما رأوه فيه من عصبية قبلية يمارسها هو وولاته من قريش.

وأثارت عليه سخط المسلمين والمعاهدين من غير العرب؛ لِما عوملوا به من امتهان وقسوة من قبل ولاته وعمّاله، وأثارت عليه سخط الصحابة؛ لأنّه ولّى أمور المسلمين وأموالهم وأبشارهم هؤلاء الغُلمة القرشيين الذين لا يحترمون الدين ولا يأبهون له، والذين يظلمون دون أن يَردوا من قِبل عثمان.

وأثارت عليه سخط الأنصار؛ لأنّهم حُرموا من الولايات بعد أن وعُدوا بأن يكونوا شركاء في الحكم، ولم ينس الأنصار يوماً أنّ سيوفهم وقتلاهم وأموالهم هي التي بوّأت قريشاً هذه المنزلة.

وأثارت سخط شباب قريش والطامحين إلى الحكم من أعضاء الشورى؛ لأنّهم أُهملوا ولم ينالوا ولاية من هذه الولايات.

موقف عثمان من معارضيه

ولقد كان سُلوك عثمان إزاء مُعارضي سياسته في المال والإدارة من كبار الصحابة سبباً في مُضاعفة النّقمة عليه في قريش وفي عامّة المسلمين، وعاملاً مهمّاً من عوامل تعقيد الأزمة التي عاناها عثمان وعاناها المسلمون في عهد عثمان؛ فقد عارض سياسة عثمان في المال والإدارة عبد الله بن مسعود الهذلي حليف بني زهرة، وكان خازناً لبيت المال، فاعترضه عثمان بقوله: « إنّما أنت خازن لنا ».

ثمّ اشتدّت معارضة ابن مسعود فأمر عثمان بضربه حتّى كسر بعض أضلاعه(1)، وعارضه أبو ذرّ الغفاري فنفاه إلى الشام(2)، فلم يكُفّ عن المُعارضة، بل

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أبو عبد الرحمن، وكان إسلامه قبل إسلام عمر بن الخطاب بزمان، وشهد بيعة الرضوان، وكان على قضاء الكوفة. انظر: المعارف - لابن قتيبة/249، أُسد الغابة 3/384، سيرة ابن هشام 1/314، السيرة النبوية 2/82، مستدرك الحاكم 3/337، 345، تأريخ الطبري 5/80، 94، مسند أحمد 5/155، 166، 6/457، كنز العمال 6/29، 170، العقد الفريد 3/91، تأريخ أبي الفداء 1/168، الإصابة 3/619، الطبقات - لابن سعد 5/8، أنساب الأشراف 5/28.

(2) أبو ذرّ الغفاري: هو جندب بن السكن، ولقبه بربر، وقيل: اسمه بُريد بن جنادة، وقيل: اسمه جندب بن جنادة وهو من غفار قبيلة من كنانة، وهو: غفار بن مُليل بن حمزة بن بكى بن عبد مناة بن كنانة بن خُزيمة.

قدم على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وأسلم، ورجع إلى بلاد قومه فأقام، ثم رجع إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، ولكنّ عثمان نفاه إلى الربذة، وليس له عقب. كان رابع أربعة سبقوا إلى الإسلام. انظر الطبقات الكبرى - لابن سعد 4 ق1/161، مسند أحمد 2/163، 175، 223، 5/147، 155، 159، 165 - 166، 172، 174، 351، 356، 6/442، المستدرك 3/342، صحيح البخاري - مناقب أبي ذرّ، صحيح البخاري وصحيح مسلم في باب المناقب، سنن ابن ماجة - الباب الأوّل من المقدّمة، مسند الطيالسي ح458، التقريب 2/420. روى عنه أصحاب الصحاح (281) حديثاً.

أمدته أساليب معاوية في الناس بمادة جديدة، فأخذ ينتقد أساليب معاوية في إنفاق الأموال العامّة، وصادف كلامه هوى في نفوس رعية معاوية، فكتب بشأنه إلى عثمان، فأرسل إليه عثمان: « أرسل إليّ جندباً - وهذا اسم أبي ذرّ - على أغلظ مركب وأوعره ».

فوصل أبو ذرّ إلى المدينة وقد تآكل لحم فخذيه من عنف السير، ولكنّه لم يكُفّ عن المعارضة أيضاً، فنفاه عثمان إلى الربذة، ولبث فيها حتّى مات غريباً وحيداً سنة 32 هـ(1).

وعارضه عمّار بن ياسر حليف بني مخزوم، فشتمه عثمان وضربه حتّى غُشي عليه سائر النهار، ولكنّ هذا العنف لم يثنِ عماراً فاستمر في معارضته، فشتمه عثمان وأمر به فطرح على الأرض، ووطئه برجليه وهما في الخف حتّى أصابه الفتق(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: المصابيح - لأحمد بن إبراهيم/288.

(2) انظر: المصدر نفسه، العقد الفريد 3/77، 91، السيرة النبوية 2/82، الطبعة الثانية مصر، شرح النهج 1/66، 233، مستدرك الحاكم 3/337، 345، ابن الأثير 3/65، 73، تأريخ الطبري 5/80، 94، مسند أحمد 5/155، 166، 6/457، كنز العمال 6/170، المعارف - لابن قتيبة/84، ابن كثير 7/452، تأريخ أبي الفداء 1/168، الإصابة 3/619، سنن البيهقي 8/61، الطبقات - لابن سعد 5/8، أنساب الأشراف 5/28، مرآة الجنان 1/85، كلّ هذه المصادر وغيرها نقلت لنا هذه المساوئ العثمانية بشكل مفصّل، فمَنْ أراد المزيد فليراجع.

وعارضه غير هؤلاء من الصحابة من المهاجرين والأنصار في الأحداث التي كان يقدم عليها، والسياسة التي كان ينتهجها، فلم يسمع منهم ولم يستجيب لهم.

وقد كانت هذه المُعارضة تشيع في المسلمين فينتظرون من عثمان أن يستجيب لها؛ لأنّها كانت معارضة قائمة على إدراك حاجات المجتمع، وكانت تعبيراً عن عدم رضا المسلمين عن السياسة التي كانوا يُساسون بها، ولكنّهم بدل ذلك كانوا يرون ويسمعون أنّ عثمان وآله قد نكّلوا بالمعارضين هذا التنكيل الشديد، ومسّوهم بهذا الأذى البالغ، ولم يستجيبوا إلى شيء ممّا دعوا إليه.

وقد أثار موقفه هذا سخط عامّة المسلمين؛ فهؤلاء المعارضون من أعلام الصحابة وأركان الدعوة، يمتهنهم عثمان ويضطهدهم لدعائهم إيّاه إلى الإصلاح في الوقت الذي يسمع فيه من مروان بن الحكم وأشباهه من بني أُميّة وأنصارهم من مسلمة الفتح الطلقاء، الذين ليس لهم سابقة ولا مكانة في الإسلام.

وهؤلاء المعارضون كانوا يعبّرون بمعارضتهم هذه عن إرادة جميع المسلمين الذي آذتهم سياسة عثمان في كراماتهم وأرزاقهم، ولم يُفسّر المسلمون موقف عثمان من المعارضين إلاّ بأنّه عازم على المضي في سياسته دون الالتفات إلى أيّ نُصح أو تحذير.

وإلى جانب هذه المعارضة الصادقة المخلصة، الهادفة إلى خير المسلمين

جميعاً كانت توجد معارضة أخرى مدفوعة بأسباب مُغايرة، وتستهدف نتائج مُغايرة.

وقد رأى زعماء هذه المعارضة في فساد الأوضاع العامّة، وشيوع التذمّر والنقد فرصة يستغلّونها لاستعجال نهاية عهد عثمان التي تُمكّنهم من الوصول إلى مآربهم، فأخذوا يُساهمون في نشر رُوح التذمّر وتعميقها.

وقد مكّن عثمان بسياسته الإدارية لهذه الطائفة من معارضيه أسباب القوّة والنفوذ؛ وذلك حين أطلق لها أن تُنمي ثرواتها إلى أبعد مدى بإجرائه الذي قدّمنا الحديث عنه في الأراضي، وتكوين الإقطاعات الضّخمة، وحين أطلق لها أن تُغادر المدينة إلى البلاد المفتوحة؛ حيث راح أفرادها يستكثرون لأنفسهم من الأموال، ويستكثرون من الأتباع، ويُمنّون أنفسهم بالوصول إلى الخلافة، ويمنّيهم بذلك أتباعهم وقبائلهم.

وقد أشار الطبري في أحداث سنة خمس وثلاثين إلى هذه الحقيقة فقال: « كان عمر بن الخطّاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلاّ بإذن وأجل(1).

فلمّا ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر، فانساحوا في البلاد، فلمّا رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع مَنْ لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموراً في الناس، وصاروا أوزاعاً إليهم، وأمّلوهم وتقدّموا في ذلك، فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم، وتقدّمنا في التقرّب والانقطاع إليهم، فكان ذلك أوّل وهن دخل على

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) قال عمر لمّا استأذنه الزبير بن العوام في الغزو « ها إنّي ممسك بثياب هذا الشعب أن يتفرّق أصحاب محمد في الناس فيُضلّوهم » انظر: شرح نهج البلاغة 20/20. منه رحمه‌الله.

الإسلام، وأوّل فتنة كانت في العامّة ليس إلاّ ذلك »(1).

وقال في موضع آخر: «... فلمّا ولي عثمان خلى عنهم، فاضطربوا في البلاد، وانقطع إليهم الناس... »(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 5/134.

(2) انظر: تأريخ الطبري 5/134.

## نتائج سياسة عثمان

فإذا لاحظنا أنّ عثمان فتح باب الهجرة أمام قريش فانساحوا في البلاد يستصلحون الأموال، ويُكوّنون الثروات، ويجمعون حولهم الأنصار بالمال، والأصهار إلى قبائل العرب، وبسمعتهم الدينية التي جاءتهم من صحبتهم للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، وسبقهم إلى الإسلام، وجهادهم في سبيله.

وإنّ سلوك عمّال عثمان على الأمصار الكبرى، وسلوك عثمان نفسه في المدينة مع ناصحيه والمشفقين عليه، وعلى الناس من سلوكه، كان يُقدّم للمسلمين أسباب التذمّر والشكوى، وأنّ هؤلاء الصحابة من قريش كانوا يرون هذا ويسمعونه ويشاركون فيه، فإذا أضفنا إلى ذلك ما خلّفه تدبير الشّورى لدى هؤلاء من طموح إلى الخلافة، وسعي في سبيلها... إذا لاحظنا هذا كلّه اتّسقت لأعيننا الخطوط البارزة، والعوامل الأساسية في ثورة المسلمين على عثمان وعلى عهده.

طبقة ارستقراطية دينية كوّنتها السقيفة بما بعثت من مركز قريش، غدت - بالإضافة إلى ارستقراطيتها الدينية - تتمتّع بثروات طائلة بسبب مبدأ التفضيل في العطاء، وسياسة عثمان في المال، والأرض، والهجرة، وقد كوّن مبدأ الشّورى في نفوس كثير من أفرادها الطموح إلى الحكم ممّا دفعهم إلى استغلال كلّ الظروف

المواتية للوصول إلى هذا الهدف، يُقابل هذه الطبقة طبقة المحاربين والمسلمين الجُدد المحرومة من كافة الامتيازات، والتي كانت أسباب تذمّرها مُتوفّرة.

لقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة، أمّا وقودها فهو تصرّفات عثمان وولاته وآل بيته، وأمّا الذي أجّجها فهم أصحاب المصلحة فيها. هم هؤلاء الزعماء الذين أوتوا من الطموح ما جعل الخلافة هدفهم، ومن المال والمنزلة الدينية ما مكّنهم من جمع الأنصار حولهم، ومن سوء الأوضاع ما سهّل عليهم أن يعدّوا الناس بخير ممّا هم فيه.

\* \* \*

وقد تمخّضت هذه الملابسات والظروف السيئة عن حركة عامّة، إن فقدت النظام بالمعنى الحزبي الدقيق، فإنّها لم تفقد وحدة الأفكار الدافعة، والأهداف المشتركة.

وقد سلك عثمان وبطانته من الاُمويِّين والمنتفعين تجاه هذه الحركة سلوكاً بعيداً عن الحكمة والعدل؛ فبدلاً من أن تُجاب مطالب الثوّار رُدوا بعنف، واستُهين بهم، وجوبهوا بسياسة قاسية هي هذه السياسة التي تمخّض عنها مؤتمر عثمان مع عمّاله على الأمصار، والتي قدّم لنا الطبري صورة عنها: «... فقال له عبد الله بن عامر: رأيي يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تُجمرهم في المغازي حتّى يذلّوا لك، فلا يكون همّة أحدهم إلاّ نفسه، وما هو فيه من دُبرة دابته، وقمّل فروه...

فردّ عثمان عمّاله على أعمالهم،

وأمرهم بالتّضييق على مَنْ قبلهم، وأمرهم بتجمير(1) الناس في البعوث، وعزم على تحريم(2) اُعطياتهم؛ ليطيعوه ويحتاجوا إليه »(3).

ولكنّ هذه الإجراءات العنيفة زادت نار المقاومة اشتعالاً، بدل أن تُخفّف من شدّتها؛ فقد رأى هؤلاء المحاربون الفقراء أنّهم خُدعوا، فتكتّلوا من الكوفة والبصرة، ومصر والحجاز، ومن هنا وهناك للقيام بمسعى جماعي لإرغام عثمان على تغيير بطانته التي اعتبروها مسؤولة عن كثير من المآسي، وتبديل عمّاله الذي أساؤوا السيرة، وجاروا على الرعية... وتغيير سياسته المالية.

وبينما كان علي بن أبي طالب عليه‌السلام يُسفر بين الثوار وبين الخليفة، فيُهدئ من ثورة اُولئك، وينبّه عثمان وينصحه بالاستقامة والعدل، نرى أنّ الآخرين من الطامحين إلى الخلافة ينتهزون فرصة ثورة الجماهير للوصول إلى هدفهم، فيؤجّجون الثورة، ويزيدون النّقمة اشتعالاً، ويبذلون الأموال الطائلة في تمويل الثورة، واصطناع قادتها، وتسليح أفرادها.

وبلغت المأساة قمّتها بمقتل عثمان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) جمر الناس: جمعهم. وجمر الجيش: حبسهم في أرض العدو ولم يقفهم (قاموس). انظر: لسان العرب 4/146. يريد عثمان من عمّاله أن يجمعوا الناس في البعوث العسكرية الطويلة الأمد، لا يردّوهم إلى أوطانهم.

(2) حرم: منع.

(3) انظر: تأريخ الطبري 3/373 - 374.

موقف الإمام علي عليه‌السلام من الحكم بعد عثمان

وجاء الناس إلى الإمام علي عليه‌السلام يطلبون منه أن يلي الحكم، ولكنّه أبى عليهم ذلك؛ لا لأنّه لم يأنس من نفسه القوّة على ولاية الحكم وتحمّل تبعاته، فقد كان عليه‌السلام على تمام الأُهبة لذلك، كان قد خبر المجتمع الإسلامي من أقطاره، وخالط مُختلف طبقاته، وراقب حياتها عن كثب، ونفذ إلى أعماقها، وتعرّف على الوجدان الطبقي الذي يشدّها ويجمعها.

وقد مكّنه من ذلك كلّه المركز الذي كان يتمتّع به من النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، فهو وزيره ونجيّه، وأمين سرّه، وقائد جيوشه، ومنفّذ خططه، ومعلن بلاغاته... هذه المنزلة الفريدة التي لم يتمتّع بها أحد من الصحابة أعدّته إعداداً تامّاً لمهمّة الحكم.

وقد كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يبتغي من وراء إناطة هذه المهام كلّها به إعداده للمنصب الإسلامي الأوّل ليصل إليه وهو على أتمّ ما يكون أهلية واستعداداً.

ولقد غدا من نافلة القول أن يُقال: إنّه هو الخليفة الذي كان يجب أن يلي حكومة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في المجتمع الإسلامي، وإذا لم يقدر له أن يصل إلى الحكم بعد وفاة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فإنّه لم ينقطع عن الحياة العامّة، بل ساهم فيها مساهمة خصبة؛ فقد كان أبو بكر، ثمّ عمر، ومن بعدهما

عثمان لا يسعهم الاستغناء عن آرائه في القضاء والسياسة والحرب، وخاصّة في خلافة عثمان؛ فقد كان على أتمّ الصّلة بالتيّارات التي تمخُر المجتمع الإسلامي، ولكنّ عثمان لم ينتفع كثيراً بالتوجيه الذي كان الإمام يُقدّمه؛ لأنّ بطانته المعروفة كانت تأبى عليه ذلك.

ولقد رأى أنّ المجتمع الإسلامي قد تردّى في هوّة من الفوارق الاجتماعيّة والاقتصادية التي زادت عمقاً وحدّة، بسبب السياسة غير الحكيمة التي اتّبعها ولاة عثمان مدّة خلافته، ورأى أنّ التوجيهات الدينية العظيمة التي عمل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله طيلة حياته على إرساء أصولها في المجتمع الإسلامي الناشئ قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس.

وإنّما صار الناس إلى واقعهم هذا؛ لأنّهم فقدوا الثقة بالقوّة الحاكمة التي تُهيمن عليهم، فراحوا يسعون إلى إقرار حقوقهم وصيانتهم بأنفسهم، وهكذا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب أن تقود حياتهم.

والسبيل إلى تلافي هذا الفساد هو إشعار الناس أنّ حكماً صحيحاً يهيمن عليهم لتعود إلى الناس ثقتهم الزائلة بحكّامهم، ولكنّ هذا لم يكن سهلاً قريب الجنى، فثمّة طبقات ناشئة لا تُسيغ مثل هذا؛ ولذلك فهي حريّة بأن تقف في وجه كلّ منهج إصلاحي ومحاولة تطهيرية.

وإذاً فقد كان علي عليه‌السلام يُدرك - نتيجة لوعيه العميق للظروف الاجتماعيّة والنفسية التي كانت نجاح المجتمع الإسلامي في ذلك الحين - أنّ المدّ الثوري الذي انتهى بالأمور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضي عملاً ثورياً يتناول دعائم المجتمع الإسلامي من النواحي الاقتصادية والاجتماعيّة والسياسية.

ولمّا كانت البيعة عقداً حقيقياً يستتبع مسؤوليات وواجبات وحقوقا

لكلّ من الراعي والرعية(1)؛ لذلك امتنع من الاستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بشأن قبول بيعتهم له بالخلافة.

فقد أراد أن يضعهم أمام اختبار يكشف به مدى استعدادهم لتحمّل أسلوب الثورة في العمل؛ لئلاّ يروا فيما بعد أنّه استغفلهم، واستغلّ اندفاعهم الثوري حين يكشفون صعوبة الشروط التي يجب أن يُناضلوا الفساد الذي ثاروا عليه في ظلّها.

من أجل هذا قال لهم: « دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً »(2). ولكنّ الناس أبَو عليه إلاّ أن يلي الحكم، فاستجاب لهم.

وما أن بويع حتّى عالنهم بسياسته التي قرّر أن يتّبعها من أجل تحقيق الأهداف التي قبل الحكم لأجلها. ولم تكن هذه السياسة شيئاً مرتجلاً اصطنعه

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) وقد حدّد الإمام علي عليه‌السلام هذه الحقوق في مناسبة قاسية من مناسبات حياته، وذلك بعد صفين، في خطبة له: « أيّها الناس، إنّ لي عليكم حقّاً، ولكم عليّ حقّ؛ فأمّا حقّكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأمّا حقّي عليكم، فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم ».

انظر: نهج البلاغة/الخطبة 34، فالحقوق متبادلة بين الراعي والرعية، وهذا التبادل طبيعي يرتبط بشخصيّة الاثنين تماماً كما أنّه شرعي؛ لأنّ واضع الشريعة هو خالق الطبيعة.

(2) انظر: نهج البلاغة/الخطبة 92.

لنفسه يوم ولي الخلافة، وإنّما كانت منهجاً مدروساً، ومنتزعاً من الواقع الذي كان يعانيه المجتمع الإسلامي آنذاك، ومعدّة للسّير بهذا المجتمع إلى الأمام، ومُهيّأة لتنيل هذا المجتمع المطامح التي كان يحلم بها ويصبو إليها.

إصلاحات الإمام عليه‌السلام وموقف المسلمين منها

وقد تناولت إصلاحات الإمام الثورة ثلاثة ميادين: الإدارة، والحقوق، والمال؛ ففيما يرجع إلى سياسة الإدارة أصرّ على عزل ولاة عثمان على الأمصار، هؤلاء الولاة الذين كانوا من الأسباب الهامّة في الثورة على عثمان؛ لظلمهم وبغيهم، وعدم درايتهم بالسياسة وأصول الحكم.

وقد كلّمه المغيرة بن شعبة في شأن ولاة عثمان، فأشار عليه بأن يُثبت هؤلاء على أعمالهم، ولكنّه أبى عليه ذلك وعزلهم، وكلّمه طلحة والزبير في شأن الولاية على الكوفة والبصرة فردّهما ردّاً رفيقاً، وولّى رجالاً من أهل الدين، والعفّة والحزم، فولّى على البصرة عثمان بن حُنيف(1)، وعلى الشام سهل بن حُنيف، وعلى مصر قيس بن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هو عثمان بن حُنيف بن واهب بن الحكيم الأنصاري الاُويسي، أبو عمرو، وأبو عبد الله. شهد أحداً وما بعدها. استعمله عمر بن الخطاب على مساحة العراق، واستعمله علي عليه‌السلام على البصرة. انظر =

سعد بن عبادة، وثبّت أبا موسى الأشعري على الكوفة، وهذه هي الأمصار الكبرى في دولة الخلافة حينذاك.

وقد أصاب هذا الإجراء قريشاً بضربة قاصمة في كبريائها، وسلطانها ونفوذها؛ لأنّ هؤلاء جميعاً من غير قريش. وقد قال في شأن ولاة عثمان ومَنْ لفّ لفّهم: «... وَلَكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللَّهِ دُوَلاً، وعِبَادَهُ خَوَلاً، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً؛ فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِي قَدْ شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ، وَجُلِدَ حَدّاً فِي الإِسْلامِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الإِسْلامِ الرَّضَائِخُ »(1).

\* \* \*

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= التاريخ الكبير 1/209، الجرح والتعديل 6/146، الاستيعاب 3/89، الإصابة 2/459، تهذيب التهذيب 7/103، أُسد الغابة 3/371، تايخ الطبري 3/465، وكانت فتنة الجمل الأصغر في البصرة لخمس بقين من ربيع الثاني سنة (36 هـ) قبل وصول الإمام علي عليه‌السلام إليها، وكان عاملها عثمان بن حُنيف الأنصاري الذي أسره جيش أمّ المؤمنين وطلحة والزبير، والذي قُتل مَنْ في المسجد (40) رجلاً من شيعة الإمام علي عليه‌السلام، وقُتل أيضاً (70) آخرين في مكان آخر.

وكان عثمان من الصحابة الأجلاء، وأرادوا قتله لكنّهم خافوا من أن يثأر له أخوه سهل والأنصار جميعاً؛ فعمدوا على نتف لحيته وشاربه، وحاجبيه وشعر رأسه، وضربوه ضرباً مُبرحاً، وطردوه من البصرة.

وقاتلهم بعد ذلك حكيم بن جبلة مع جماعة من بني عبد القيس ومن ربيعة، فاقتتلوا معهم حتّى استشهد منهم جماعة، ومنهم الأشرف بن حكيم، وأخوه الرّعل، وفُتحت البصرة كما ذكر صاحب أُسد الغابة 2/38، وشرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 2/481 طبعة بيروت أُفست، وأنساب الأشراف - للبلاذري 2/228، ومروج الذهب - للمسعودي 2/358، كتاب الجمل - للشيخ المفيد، طبعة الحيدرية، كتاب أحاديث عائشة أمّ المؤمنين - للعلامة العسكري 1/121 - 200، طبعة الحيدرية في طهران، و172 - 270 طبعة 5 مطبعة صدر نشر دار التوحيد، وتأريخ الطبري 5/178.

(1) انظر: نهج البلاغة - الرسالة 62.

وفيما يرجع إلى الحقوق نادى بأنّ المسلمين جميعاً سواء في الحقوق والواجبات في الإسلام، وقد كانت هناك فروق حقوقية جاهليّة قضى عليها الإسلام، وأُعيدت في عهود لاحقة؛ فقريش ذات الماضي العريق في السيادة على القبائل العربية عادت في عهد عثمان إلى إيمانها بتلك الفروق، فغدا أُناس ليس لهم ماضٍ مشرّف بالنسبة إلى الإسلام ونبيّه يتعالون على أعظم المسلمين جهاداً، وسابقة وبلاء لمجرّد أنّهم قرشيون.

هذه الفروق المعنوية الجاهليّة قضى عليها الإمام عليه‌السلام، فقال: « الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحقّ له، والقوي عندي ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه »(1).

\* \* \*

وفيما يرجع إلى سياسة المال وقف موقفاً صارماً، وكانت تواجهه فيما يتعلّق بهذه السياسة نقطتان هامّتان؛ إحداهما الثروات التي تكوّنت في أيام عثمان بأسباب غير مشروعة، والثانية أسلوب توزيع العطاء.

وقد أعلن في الخُطب الأولى التي استهل بها حكمه مصادرة جميع ما أقطعه عثمان من القطائع وما وهبه من الأموال العظيمة لطبقة الإرستوقراطيين، كما أعلن أنّه سيتّبع مبدأ المساواة في العطاء، فقال: « أيّها الناس، إنّي رجل منكم، لي ما لكم وعليّ ما عليكم، وإنّي حاملكم على منهج نبيّكم، ومنفّذ فيكم ما أمر به.

ألا وإنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان، وكلّ مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال؛ فإنّ الحقّ لا يبطله شيء، ولَوْ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: نهج البلاغة - الخطبة 37.

وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدْتُهُ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ »(1).

وقال من خطاب آخر: «... ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً غمرتهم الدنيا فاتّخذوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتّخذوا الوصائف الرُّوقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأخّرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون، ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا.

ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يرى أنّ الفضل له على سواه لصحبته؛ فإنّ الفضل النيّر غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله.

وأيّما رجل استجاب لله وللرسول، فصدّق ملّتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده؛ فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسم بينكم بالسويّة، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء، وأفضل الثواب. لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار.

وإذا كان غد إن شاء الله فاغدوا علينا؛ فإنّ عندنا مالاً نقسمه، ولا يتخلّفنّ أحد منكم؛ عربي ولا عجميّ، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلاّ حضر إذا كان مسلماً حرّاً »(2).

فلمّا كان من الغد، غدا وغدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: « ابدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعطِ كلّ رجل ممّن حضر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: نهج البلاغة - الخطبة 15.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 7/37.

ثلاثة دنانير، ثمّ ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومَنْ حضر من الناس كلّهم؛ الأحمر والأسود، فاصنع به مثل ذلك »(1).

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم. فقال: « نعطيه كما نُعطيك ». فأعطى كلّ واحد منهما ثلاثة دنانير(2)، ولم يفضّل أحداً على أحد. وتخلّف عن هذا القسم يومئذ طلحة، والزبير، وعبد الله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها(3).

\* \* \*

وهكذا قضى بسرعة وحسم على شرعيّة التفاوت الطبقي بما له من ذيول اقتصادية ودينية، فسوّى بين المعتقين والأحرار، والسابقين في الإسلام والمسلمين الجدد، ولم يجعل من الفضل الديني ذريعة إلى المغانم الاقتصادية، كما شلّ بإجراء آخر قوّة هذه الطبقة التي تكوّنت في عهد عثمان؛ وذلك حين صادر قطاع عثمان والأموال التي أعطاها.

وبقدر ما كانت هذه السياسة مصدر فرح وجدل للطّبقة المستضعفة الفقيرة الرازخة تحت أثقال من الظلم، كانت أيضاً صفعة لقريش ولغرورها، وخيلائها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 7/38.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 7/39.

(3) انظر المصدر نفسه.

واستعلائها على الناس، فمن أين لها بعد اليوم أن تحوز الأموال العظيمة دون أن تنفرج شقتان لتقولا لها: من أين لك هذا؟وكيف لها بعد اليوم أن تستعلي وتستبد، وتفرض على الناس في ظلّ الإسلام سلطانها عليهم في الجاهليّة.

ولعلّ قادة الطبقة الثرية وزعماءها فكّروا في أن يساوموا علياً على بذل طاعتهم له على أن يُغضي عمّا سلف منهم، ويأخذهم باللين والهوادة فيما يستقبلون، فأرسلوا إليه الوليد بن عقبة بن أبي معيط(1)، فجاء إليه وقال: « يا أبا الحسن، إنّك قد وترتنا جميعاً، ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنّا ما أصبناه من المال أيّام عثمان، وأن تقتل قتلته، وإنّا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هو الوليد بن عقبة، أخو الخليفة من اُمّه، وقد كان من الذين أسلموا بعد فتح مكة، وكلّفه النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله - كما ذكر ابن حجر وغيره - بجمع صدقات بعض الأعراب، فلمّا قرب منهم خرجوا إليه، فظنّ أنّهم يحاربونه، فرجع مخبراً النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بذلك، وكاد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أن يرسل إليهم جيشاً لقتالهم، فأنزل الله تعالى: ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ )(سورة الحجرات/6)، تفسير ابن كثير 4/208، الإصابة في تمييز الصحابة - لابن حجر 3/637.

ونزلت فيه: ( أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ )(سورة السجدة/18)، انظر: تفسير الدرّ المنثور 5/177، المصابيح - لأحمد بن إبراهيم/284.

وكان يُصلّي حال إمارته وهو سكران حتّى تكلّم فيها، والتفت إلى مَنْ خلفه وقال: أزيدكم في الصلاة؟ فقالوا: لا، قد قضينا صلاتنا. انظر: الأحكام - للإمام يحيى بن الحسين 2/268، مسند أحمد 1/144، سنن البيهقي 8/318، تأريخ اليعقوبي 2/142، الكامل - لابن الأثير 3/42، الإصابة 3/638، السنن الكبرى - للنسائي 3/248، أُسد الغابة 5/91، الجرح والتعديل 9/12، تهذيب الكمال 31/16، المصابيح - لأحمد بن إبراهيم/268، أنساب الأشراف - للبلاذري 5/33.

فقال عليه‌السلام: « أمّا ما ذكرتم من وتري إيّاكم فالحقّ وتركم؛ وأمّا وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حقّ الله عنكم ولا من غيركم... »(1).

ولمّا أيقن زعماء هذه الطبقة أنّهم لن يُفلحوا عن طريق المساومة والتهديد، لجؤوا إلى السعي لنقض البيعة، وقد جاء مَنْ أخبر علياً بأنّهم يدعون الناس إلى رفض البيعة؛ مدفوعين إلى ذلك بالامتيازات الاقتصادية والاجتماعيّة التي فقدوها.

فخطب الناس، وكأنّه أراد بذلك أن يكشف عناصر الفتنة الجديدة، ويخرج بالمسألة من حدود الهمس والعمل في الظلام إلى الصعيد العام، ويسلّط عليه وعلى زعمائها النور، ويفضح أهدافهم، ويُطلع الأمّة على المناورة التي تريد أن تحوّل نتائج الثورة إلى مغانم شخصيّة، وتُعيد الأوضاع القديمة كما كانت، فلا تحصل الأمّة من ثورتها إلاّ على تبديل الوجوه.

وقد أكّد في هذه الخطبة عزمه على مواصلة تطبيق المنهج الذي بدأ به، فقال: « فأمّا هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرَة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبيّنا بين أظهرنا، فمَنْ لم يرض به فليتولّ كيف شاء »(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 7/39.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 7/39 - 40.

ولكنّ الإرستقراطية الجديدة لم تقف مكتوفة اليدين، فقامت بحركة تمرّد الأولى في البصرة تحت ستار الثأر لعثمان، وما هي في واقعها إلاّ تدبير دبّره مَنْ لم يُماش الحكم الجديد أهواءهم من بني أميّة وغيرهم من المنتفعين بعهد عثمان.

وقد كان القائمون بهذه الحركة يريدون أن يعطفوا أزمّة الحكم إلى جانبهم بعد أن يئسوا من مساعدة الإمام عليه‌السلام لهم على ما يبتغون، ولكنّ الإمام عليه‌السلام قضى على الحركة في مهدها، وفرّ مَنْ بقي من أنصارها إلى الشام، حيث قامت حكومة برياسة معاوية بن أبي سفيان، انضوت إليها جميع العناصر المنتفعة بعهد عثمان، والتي رأت في الحكم الجديد خطراً عليها وعلى امتيازاتها الطبقية.

وبينما كانت حكومة الإمام عليه‌السلام تسير على نهج إسلامي خالص، أي أنّها كانت تحقّق للأمّة أقصى قدر مستطاع - في ظروفها السياسيّة والاقتصادية والعسكرية - من الرفاهية، والعدالة والأمن، كان معاوية يسير على نهج آخر في الحكم يقوم على شراء الضمائر بالمال، وتفضيل طائفة بحرمان طائفة أخرى، وتعطيل السبل، وتعكير الأمن، ولم يكن معاوية ليبالي في أن ينزل بدافعي الضرائب من الزرّاع، والتجّار أفدح الظلم في سبيل أن يحصل منهم على مبلغ من المال يُغذّي به أطماع حفنة من رؤساء القبائل العربية يؤلّفون جهازه العسكري المتأهّب دائماً لقمع أي حركة تحرريّة تقوم بها جماعة من الناس.

وقد كان من الطبيعي أن تقوم حركة تمرّد أخرى وراء الواجهة نفسها بزعامة معاوية، فكانت صفين، وكان التحكيم ثمّ النهروان، ثم قُتل عليه‌السلام بثمرة من ثمرات التحكيم بعد أن غرس في عقول الناس وقلوبهم المبادئ الإسلاميّة في الحكم وسياسة الجماعات.

ثم كانت خلافة الحسن بن علي عليه‌السلام ذات الشهور العاصفة، الحُبلى بالدسائس والمؤامرات عليه من قبل الانتهازيين والوصوليين، ثم اضطراره إلى التخلّي عن الحكم مؤقتاً تحت ضغط الأحداث التي لم تكن صالحة

تفادياً لحرب خاسرة تذهب فيها دماء أنصاره دون الحصول على نصر آني أو في المستقبل القريب أو البعيد.

وصار الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، واتّسقت له الأمور، وسيطر على العالم الإسلامي كلّه بعد أن أُخذت له البيعة على الناس في شوّال سنة إحدى وأربعين للهجرة.

وقد كانت سياسة الإمام علي عليه‌السلام وطريقته في ممارسة مهمّة الحكم، وفهمه لواجبات الحاكم، كانت هذه الأمور تُشكّل تحدّياً مستمراً لمعاوية وبطانته، وتهديداً لمشاريعه في التسلّط على المسلمين.

والذي زاد من خطورة هذه الأفكار على معاوية ومشاريعه أنّها لم تكن أفكاراً مجرّدة، بل طُبّقت على حياة الناس بأمانة وإخلاص عظيمين؛ لذلك عمل معاوية منذ انتهت مهزلة التحكيم على أن يحارب هذه المبادئ، وأن يطبع حياة الناس وأفكارهم بالطابع الذي يؤمن له سيطرة دائمة خالية من أيّ رقابة أو احتجاج؛ ولذلك مارس سياسة استهدف منها محق نزعة الحرية لدى الإنسان المسلم، وتحويله عن أهدافه العظيمة، ونضاله من أجلها.

ولقد كانت هذه السياسة تقوم على المبادئ التالية:

1 - الإرهاب والتجويع.

2 - إحياء النزعة القبلية واستغلاها.

3 - التحذير باسم الدين، وشلّ الروح الثورية.

وبهذه السياسة حاول معاوية القضاء على ما لدى الجماهير المسلمة من نزعة إنسانيّة تجعلها خطراً على كلّ حاكم يجافي مبادئ الإسلام في ممارسته لمهمّة الحكم، وبذلك أمن ثورة الجماهير ونقدها.

ولنأخذ هذه المبادئ بشيء من التفصيل.

سياسة معاوية الإرهاب والتجويع

لقد اتّبع معاوية سياسة الإرهاب، والقتل، والتجويع بالنسبة إلى الرعايا المسلمين الذين لا يتّفقون معه في الهوى السياسي، وإطلالة قصيرة على تأريخ هذه الفترة من حياة المسلمين تُثبت هذه الدعوى.

حدّث سفيان بن عوف الغامدي، وهو أحد قوّاد معاوية العسكريين، قال: « دعاني معاوية فقال: إنّي باعثك بجيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم ليّ جانب الفرات حتّى تمرّ بهيت(1) فتقطعها، فإن وجدت بها جُنداً فأغر عليهم، وإلاّ فامض حتّى تُغير على الأنبار.

إنّ هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق تُرعب قلوبهم، وتُفرح كلّ مَنْ له هوى فينا منهم، وتدعو إلينا كلّ ما خاف الدوائر، فاقتل كلّ مَنْ لقيته ممّن هو ليس على مثل رأيك، وأخرب كلّ ما مررت به من القرى، وأحرِب الأموال؛

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هي بلد على شاطئ الفرات، وسُمّيت هيت لأنّها في هوّة من الأرض. انظر: لسان العرب 2/107، الغريب - لابن قتيبة 1/477، و2/63.

فإنّ حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب »(1).

ودعا معاوية بالضحّاك بن قيس الفهري(2) وأمره بالتوجّه ناحية الكوفة، وقال له: « مَنْ وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه ».

« فأقبل الضحّاك فنهب الأموال، وقتل مَنْ لقي من الأعراب، حتّى مرّ بالثعلبية فأغار على الحاج فأخذ أمتعتهم، ثمّ أقبل فلقي عمر بن عميس بن مسعود الدّهلي، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود فقتله في طريق الحاج عند القطقطانية(3)، وقتل معه ناساً من أصحابه »(4).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الغارات 1/25، 349، 2/395، أمالي الشيخ المفيد/146، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل 2/85 و87، وجّه معاوية سفيان بن عوف في ستة آلاف وأمره أن يقطع هيت، ويأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها، فأتى سفيان هيت فلم يجد فيها أحداً، ثمّ توجّه إلى الأنبار وفيها مسلحة تكون خمسمئة رجل، وقد تفرّقوا ولم يبقََ منهم إلاّ مئتان؛ لأنّه كان عليهم كميل. فبلغه أنّ قوماً بقرقيسيا - وقريسيا: هي بلد على نهر الخابور، قرب رحبة مالك بن طوق، على بعد ستة فراسخ، وعند مصبّ الخابور في الفرات، فهي في مثلّث بين نهر الخابور والفرات. انظر: معجم البلدان 4/328، مراصد الاطلاع 3/108 - يريدون الغارة على هيت، فسار إليهم. انظر: الكامل في التاريخ 3/189، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل 17/149.

(2) هو الضحّاك بن قيس الفهري، ولد قبل وفاة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، له في حروب معاوية بلاء عظيم، ولاّه الكوفة سنة 53 هـ، وعزله سنة 57 هـ، وهو الذي دفن معاوية، وكان يزيد يوم ذاك خارج دمشق، وبايع لابن الزبير بعد معاوية بن يزيد.

انظر: أُسد الغابة 3/36 - 37، تهذيب ابن عساكر 7/4 - 5، تأريخ الطبري 6/78، و4/7 ط اُخرى، شرح النهج - لابن أبي الحديد 2/111 - 117، وقعة صفين/12 و206 و213 و226 و360 و552 و557، الفتوح - لابن أعثم 2/22، الإمامة والسياسة 1/74 و75 و127 و188 و191 و193 و225 و242، و2/18، و20/22 و116 و163.

(3) هي موضع قرب الكوفة. لسان العرب 7/348.

(4) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل 2/116.

واستدعى معاوية بُسر بن أرطأة(1)، ووجّهه إلى الحجاز واليمن، وقال له:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هو بُسر بن أرطأة، ويقال: ابن أبي أرطأة، واسمه عمير بن عويمر بن عمران القرشي العامري، كان من شيعة معاوية، نزيل الشام مات سنة (86 هـ) وهو أحد فراعنة الشام، وكان مع معاوية بصفين، فأمره أن يلقى علياً في القتال، وقال له: سمعتك تتمنّى لقاءه، فلو أظفرك الله به وصرعته حصلت على دنيا وآخرة، ولم يزل يشجّعه ويمنّيه حتّى رآه، فقصده في الحرب فالتقيا، فطعنه علي عليه‌السلام فصرعه، فانكشف له فكفّ عنه كما عرض له ذلك مع عمرو بن العاص.

اختلفوا في أنّ بُسراً أدرك النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وسمعه أم لا، وقالوا: إنّه لم يكن له استقامة بعد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، وكان من أهل الردّة. وقد دعا عليه علي عليه‌السلام عندما بلغه أنّه يقتل الصبيان، فقال عليه‌السلام: « اللّهمّ اسلب دينه، ولا تخرجه من الدنيا حتّى تسلب عقله ». فأصابه ذلك وفقد عقله. وكان يهذي، فيُؤتى بسيف من خشب فيُؤتى به، ويُجعل بين يديه رقّ منفوخ، فلا يزال يضربه حتّى يسأم، وتوفي في أيام معاوية.

وقالوا: دخل المدينة فخطب الناس، وشتمهم يومئذ وتوعّدهم، وقال: شاهت الوجوه. ولمّا دخل ثقل عبيد الله بن العباس، وفيه ابنان له صغيران، فذبحهما بيده بمدية كانت معه، ثمّ انكفأ راجعاً إلى معاوية، فقالت له امرأة له: يا هذا، قتلت الرجال، فعلام تقتل هذين؟! والله ما كانوا يُقتلون في الجاهليّة والإسلام. والله يابن أرطأة، إنّ سلطاناً لا يقوم إلاّ بقتل الصبي الصغير، والشيخ الكبير، ونزع الرحمة، وعقوق الأرحام لسلطان سوء.

قالوا: فولهت عليهما اُمّهما، وكانت لا تعقل، ولا تصغي إلاّ لمَنْ يُخبرها بقتلهما، ولا تزال تنشدهما في الموسم:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ها مَنْ أحسّ بابنيّ اللذين هما |  | كالدرّتين تشظّى عنهما الصدفُ |

إلى آخر الأبيات، ولسنا بصدد بيان حياة بُسر.

انظر: الاستيعاب/64 - 67، وقعة صفين/462 ط 2 سنة 1382 هـ، وط 2 تحقيق عبد السلام هارون المؤسسة العربية الحديثة، ومنشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي - قم المقدسة لسنة 1404 هـ/44 و157 و305 و412 و424 و429 و459 و460 و462 و504 و507، شرح النهج - لابن أبي الحديد 2/301، الأغاني 15/45، تهذيب ابن عساكر 3/220، تأريخ الطبري 6/80 و 4/20 وما بعدها ط أخرى، كتاب الغارات برواية ابن أبي الحديد 2/3 - 14، تاريخ اليعقوبي 2/141، تهذيب التهذيب 1/436، تأريخ مدينة دمشق 3/222، نهاية الأرب - للقلقشندي/371، مروج الذهب بهامش ابن الأثير 6/93، الجمهرة/228 و391، أُسد الغابة 3/340 و1/180، ابن الأثير 3/153، المعارف - لابن قتيبة/122، الفتوح - لابن أعثم 2/39 وما بعدها، الإمامة والسياسة 1/123 و148 و150.

« سر حتّى تمر بالمدينة فاطرد الناس، وأخف مَنْ مررت به، وانهب أموال كلّ مَنْ أصبت له مالاً ممّن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم أنّك تُريد أنفسهم، وأخبرهم أنّ لا براءة لهم عندك ولا عذر حتّى إذا ظنّوا أنّك موقع بهم فأكففّ عنهم... وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة واجعلها شردات... »(1).

وقال له: « لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلاّ بسطت عليهم لسانك حتّى يروا أنّهم لا نجاء لهم، وأنّك محيط بهم، ثمّ اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي، فمَنْ أبى فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا »(2). فسار، وأغار على المدينة ومكة، فقتل ثلاثين ألفاً عدا مَنْ أُحرق بالنار(3).

وبهذا المطلع الفاني استهلّ معاوية سياسته بعد التحكيم مع المسلمين الذين يخالفونه في الهوى السياسي. وقد بلغ في ذلك شأواً بعيداً، فقتل وأرعب، واستصفى الأموال، وعاث في الأرض فساداً.

وقد استمر على هذه السياسة بعد أن قُتل علي عليه‌السلام ولكنّها إذ ذاك أخذت شكلاً أكثر تنظيماً وعُنفاً وشمولاً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الغارات 2/600.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم» 2/116.

(3) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم» 2/17، وتفصيل أحداث بُسر بن أرطأة في الجزء نفس 3 - 18.

وقد نصّ المؤرّخون على أنّ هذا الإرهاب بلغ حدّاً جعل الرجل يُفضّل أن يُقال عنه أنّه زنديق أو كافر ولا يُقال عنه أنّه من شيعة علي(1)، وقد بلغ بهم الحال أنّهم كانوا يخافون من النطق باسمه حتّى فيما يتعلّق بأحكام الدين التي لا ترجع إلى الفضائل التي كان الأمويون يخشون شيوعها، فكانوا يقولون: « روى أبو زينب »(2).

وقال أبو حنيفة: « إنّ بني اُميّة كانوا لا يفتون بقول علي ولا يأخذون به، وكان علي لا يذكر في ذلك باسمه. وكانت العلامة باسمه بين المشايخ أن يقولوا: قال الشيخ »(3). « وحضر الاُمويّون على الناس أن يسمّوا أبناءهم باسم علي »(4).

\* \* \*

وكتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة: « أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلّ كورة، وعلى كلّ منبر يلعنون علياً، ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته »(5).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم » 11/44.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم » 4/72.

(3) انظر: مناقب أبي حنيفة - للمكي 1/117.

(4) انظر: شرح نهج البلاغة « تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم » 1/17.

(5) معاوية أوّل مَنْ لعن الإمام علياً عليه‌السلام على منابر المسلمين.

انظر، شواهد التنزيل 2/459، فرائد السمطين 1 ب 31 ح117/155 ط بيروت، تأريخ مدينة دمشق 2/348 و442 و443 ح851، الطبعة الثانية ح959، لسان الميزان 1/175، أنساب =

« وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة؛ لكثرة مَنْ بها من شيعة علي عليه‌السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سميّة وضمّ إليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنّه كان منهم أيام علي عليه‌السلام، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبقَ بها معروف منهم ».

« وكتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق: ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة. ثمّ كتب إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا إلى مَنْ قامت عليه البيّنة إنّه يُحبّ علياً وأهل

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= الأشراف 2/103 و 113، أحمد بن حنبل ح72/46 ط قم، كفاية الطالب ب62/244 و246، كنوز الحقائق/82 و92 و131، المناقب - للخوارزمي/62 و187 فصل 17 ح11 فصل 9، نور الأبصار/70 و101، الصواعق المحرقة/96 و161، ولكن زعم أنّه يروي الحديث بلفظ «... قال: ومَنْ عدوّي؟ قال: مَنْ تبرّأ منك ولعنك ».

فقد سبّ أمير المؤمنين عليه‌السلام وذلك من خلال حبّه - ابن حجر - لمعاوية بن أبي سفيان الذي سبّ علياً عليه‌السلام، ولعنه في الأقطار الإسلاميّة وطلب التبري منه، وإن لم يكن ذلك فالضرب والشتم، والهتك والقتل للمؤمنين، وهذا مشهور ولا يحتاج إلى برهان ودليل.

وانظر، خصائص الوحي المبين/131 فصل 21 الطبعة الأولى، الدر المنثور 6/79 و319 و7/305، مجمع الزوائد 9/131 و7/17، وبشارة المصطفى/163، تفسير الطبري 6/186 و12/657 ط اُخرى، وذخائر العقبى/88 و102، وروح المعاني 30/207 ط مصر، وتأريخ بغداد 7/421، الأغاني 18/39 الطبعة الأولى - بيروت، والمسترشد في إمامة أمير المؤمنين/354، وينابيع المودّة/62 و74 و270 ط إسلامبول و71 و84 و361 و362 ط الحيدرية و1/196 و223 ط أسوة و2/357 و452 ط أسوة، وتذكرة الخواص/18، وفتح القدير - للشوكاني 5/477، إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار/172، جواهر العقدين 2/219، وفي الصواعق المحرقة/161 ب11 فصل1.

بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه. وشفع ذلك بنسخة اُخرى: مَنْ اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره ».

« فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة، حتّى أنّ الرجل من شيعة علي عليه‌السلام ليأتيه مَنْ يثق به فيدخل بينه فيلقى إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتّى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه... فلم يزل الأمر كذلك حتّى مات الحسن بن علي عليهما‌السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبقَ أحد من هذا القبيل إلاّ وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض »(1).

وأجمل ذلك الإمام محمد بن علي بن الحسين الباقر عليه‌السلام، فقال: « وقُتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكلّ مَنْ يُذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله، أو هدمت داره، ثمّ لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه‌السلام »(2).

\* \* \*

وقد طبّق ولاة معاوية على العراق - مهد التشيّع لآل علي - هذه السياسة بوحشية لا توصف؛ فقد استعمل زياد سمرة بن جندب(3) على البصرة فأسرف

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة « بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم » 11/44 - 46.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة « بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم » 11/43 - 44.

(3) هو سمرة بن جندب بن هلال بن جريح الفزاري، استعمله ابن زياد على شرطته في البصرة =

هذا السفّاح في القتل إسرافاً لا حدود له؛ فهذا أنس بن سيرين يقول لمَنْ سأله،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= والكوفة، واستعمله معاوية على ولاية البصرة ثمّ عزله، فقال: لعن الله معاوية. والله لو أطعت الله كما أطعته ما عذّبني أبداً. مات سنة (58 أو 59 هـ). انظر: الإصابة 2/78، أُسد الغابة 2/354، الجرح والتعديل 4/154، شذرات الذهب 1/65، تهذيب التهذيب 4/236.

وروي عن حمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد بن خالد، قال: كنت إذا أتيت أبا هريرة سألني عن سمرة بن جندب، وإذا أتيت سمرة بن جندب سألني عن أبي هريرة، فقلت: يا أبا هريرة، ما أراك تسألني إلاّ عن سمرة، وأرى سمرة يسألني عنك؟!

فقال: إذاً والله أخبرك ولا أكتمك؛ سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: « آخركم موتاً في النار ». انظر: مناقب آل أبي طالب 1/96.

وعن محمد بن قيس الأسدي، قال: سمعت الشعبي يقول: سمعت أبا عمر يقول: قال عمر بن الخطّاب وهو يخطب على المنبر: لعن الله سمرة بن جندب؛ كان أوّل مَنْ اتّجر في الخمر في الإسلام، ولا يحلّ من البيع إلاّ ما يحلّ أكله.

انظر: الغارات 2/941، تأريخ الطبري/حوادث سنة 53، طبعة مصر سنة 1326 هـ، أو ص 162، وابن الأثير حوادث سنة 53 أو ص 183 وحوادث سنة 54 ص 196 و3/195، الإصابة 3/150، مجمع الزوائد 8/29، جزء أشيب - لأبي علي الحسن بن موسى الأشيب (شيخ الإمام أحمد بن حنبل)/58 طبعة دار علوم الحديث، الإمارات العربية المتّحدة، الطبعة الأولى سنة 1410 هـ.

وعن أبي عدي قال: قدمت المدينة فجلست إلى أبي هريرة، فقال: ممّن أنت؟ قلت: من أهل البصرة. قال: ما فعل سمرة بن جندب؟ قلت: هو حيّ. قال: ما أحد أحبّ إليّ طول حياة منه. قلت: ولِمَ ذاك؟ قال: إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قال لي وله ولحذيفة بن اليمان: « آخركم موتاً في النار ». انظر: المعرفة والتأريخ 3/356.

وعن أبي النضرة، عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قال لعشرة من أصحابه: « آخركم موتاً في النار »، فيهم سمرة بن جندب. قال أبو النضرة: فكان سمرة بن جندب آخرهم موتاً.

والخلاصة سمرة بن جندب باع دينه بدنياه، وآثر العاجلة على الآخرة؛ إذ ارتكب الكذب والبهتان.

انظر: المعجم الأوسط 6/208 و7/177، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 4/78، التأريخ الصغير 1/133، تهذيب الكمال 12/133 و34/257، سير أعلام النبلاء 3/184، تهذيب التهذيب 4/207 و12/200، البداية والنهاية 6/253، البيهقي في الدلائل 6/459، الشفا بتعريف حقوق المصطفى 1/339.

هل كان سمرة قتل أحداً؟ « وهل يُحصى مَنْ قتل سمرة بن جندب؟ استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له - يعني زياداً -: هل تخاف أن تكون قتلت أحداً بريئاً؟ فردّ عليه قائلاً: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت »(1).

وقال أبو سوار العدوي: « قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن »(2).

واستقام سمرة في المدينة شهراً؛ فهدم دور أهلها، وجعل يستعرض الناس فلا يُقال له عن أحد إنّه شرك في دم عثمان إلاّ قتله(3)، وسبى نساء همدان - وهمدان من شيعة علي عليه‌السلام - وأقمن في الأسواق، فكنّ أوّل مسلمات أُشترين في الإسلام(4). وقد فعل ما فعل لدعم ملك معاوية، وقال:« لعن الله معاوية! والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذّبني أبداً »(5).

أمّا زياد بن سميّة فكان يجمع الناس بباب قصره يحرّضهم على لعن علي، فمَنْ أبى عرضه على السيف(6)، وكان يعذّب بغير القتل من صنوف العذاب، وتقدّمت إشارات إلى ذلك في كلام المدائني.

وهذا ابن الأثير يذكر لنا أنّه قطع

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 6/132.

(2) انظر: تأريخ الطبري 6/122.

(3) انظر: تأريخ الطبري 6/80.

(4) انظر: الاستيعاب 1/165.

(5) انظر: الكامل في التأريخ - لابن الأثير 3/213.

(6) انظر: مروج الذهب 3/35.

أيدي ثمانين أو ثلاثين رجلاً من أهل الكوفة(1)، وقد نوى في آخر أيامه أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي ولعنه، وأن يقتل كلّ مَنْ امتنع من ذلك ويخرب منزله، ولكنّه مات قبل أن يُنفّذ هذه الفكرة(2).

هذا كلّه بالإضافة إلى سياسة الترحيل والتشريد التي قصد بها إلى إضعاف المعارضة في العراق - وتقدّمت إشارة إليها في نصّ ابن أبي الحديد عن المدائني - فقد أنزل من الكوفيين وأُسرهم - وكانوا أعظم الثوار تشيعاً - خمسين ألفاً في خراسان(3)، وبذلك حطّم قوّة المعارضة في الكوفة وخراسان معاً.

\* \* \*

هذا عرض موجز للسياسة التي تتناول حياة الناس وأمنهم، وأمّا السياسة التي تتناول أرزاق الناس وموارد عيشهم فلا تقل قتامة وكلوحاً وإيغالاً في الظلم عن سابقتها؛ فإنّ معاوية بعد أن تمّ له السلطان على البلاد الإسلاميّة في عام الجماعة عالن الناس بطبيعة الحكم الجديد في كلمته التالية: « يا أهل الكوفة، أترون أنّي قاتلتكم على الصلاة، والزكاة والحجّ، وقد علمت أنّكم تُصلّون، وتزكون وتحجّون، ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وألي رقابكم، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إنّ كلّ دم اُصيب في هذه مطلول، وكلّ شرط شرطته فتحت قدَمي هاتين ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الكامل في التاريخ - لابن الأثير 3/73.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 4/58، مروج الذهب 3/35.

(3) انظر: تأريخ الشعوب الإسلاميّة - بروكلمان 1/128، تأريخ العرب - فليب حتي 2/259 - 260.

وكان قد قال قبل ذلك لمّا تمّ الصلح: « رضينا بها ملكاً »(1). وكان معاوية أميناً لمنهجه هذا، فلم يحد عنه أبداً.

وشهدت الأمّة المسلمة من جوره وعسفه ما لم تعهد مثله في سالف أيّامها. وكان أوفر دهاء من أن يدع للمضطهدين منفذاً للتعبير عن سخطهم واستيائهم، بل كان من البراعة بحيث حمل الكثيرين على وصفه بالحلم والكرم، والإعجاب به لذلك.

وترى كتب التاريخ والأدب حافلة بالحديث عن حلم معاوية وسخائه وبذله الأموال، ولكنّ شيئاً من دقّة الملاحظة يكشف عن حقيقة الحال؛ فإنّ هذا السخاء كان مقصوراً على حفنة من الناس لا يتعدّاها إلى غيرها من العامّة ممّن هم في أمس الحاجة إلى الدرهم.

لقد كان سخاء معاوية مقصوراً على هذه الطبقة الإرستقراطية التي صعد على أكتافها إلى الحكم، والتي استعان بما لها من نفوذ سياسي أو ديني في مؤامراته أو حروبه. وكانت هذه الطبقة مؤلّفة من زعماء القبائل الموالين له، ومن بعض الأشخاص الذين قذفت بهم أحداث الإسلام الأولى مرغمين إلى صحبة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، ولولا ذلك لفضلوا أن يكونوا في صفوف أعدائه، فتدفّقت الثروات الضخمة، والعطايا الجزيلة على أفراد هذه الطبقة، وحرم سائر الناس من مطالبهم الأساسية، وطفق المحدّثون الرسميون (القُصّاص) يُذيعون في الناس سخاء معاوية وكرمه، مستشهدين بهباته الجزيلة لفلان وفلان. وتناقل الرواة هذه الأحاديث حتّى سجّلها المؤرّخون مفاخر له.

ولا يُغيّر من مغزى هذا شيئاً أنّ معاوية كان يهب بعض أعدائه القدماء أموالاً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: البداية والنهاية 6/246، تأريخ مدينة دمشق 52/380، تأريخ ابن كثير 8/121، الكامل في التأريخ 6/220، مقاتل الطالبيِّين/70، شرح النهج - لابن أبي الحديد 4/16 و16/15.

جزيلة؛ فإنّ الذي ألجأ هؤلاء الأعداء إلى مسالمته وإن كان عجزهم عن المقاومة إلاّ إنّ هذا لا ينفي أنّهم كانوا قادرين على أن يشغبوا عليه إذا لم يستجب لمطالبهم، ولم يكن عسيراً عليه إدراك أنّ من الأفضل له عدم إثارتهم بحرمانهم من الامتيازات الثابتة لهم بحكم كونهم زعماء قبليين.

ويجب علينا حين ندرس سياسة معاوية المالية أن نضع خطّاً فاصلاً بين الشام وبين سائر الولايات الإسلاميّة؛ لأنّ الشام قد تمتّعت برخاء حقيقي؛ والسرّ في ذلك هو أنّ جند الشام كان عماد معاوية في حروبه، فلم يسعه إلاّ أن يسترضيه بالأموال.

ونلاحظ أنّه كان يُنفق على جيشه الذي بلغ ستين ألف جندي، ستين مليون درهم في السنة(1)، على أنّه لا يفوتنا أن نلاحظ أنّ هذا الرخاء لم يكن من حظّ عرب الشام أجمع، وإنّما كان لقبائل اليمن وحدها، وأمّا قبائل قيس فكانت تُعاني شظف العيش؛ لأنّه لثقته بولاء اليمن له لم يأبه لقيس، فلم يفرض لها في العطاء إلاّ في وقت متأخّر بعد أن خشي على سلطانه من قوّة قبائل اليمن(2).

وأما سائر الولايات الإسلاميّة فقد ذاقت الطبقات الفقيرة فيها طعم البؤس، وعانت ألواناً من الاستعباد والإفقار، بلا فرق في ذلك بين المسلمين وبين الداخلين في ذمّة الإسلام، فقد اهتمّ معاوية بجمع المال دون أن يهتمّ بمصادره وأساليب جبايته، واتّخذ من هيمنته على مصادر الجباية وبيت المال ذريعة إلى التحكّم في أعدائه المغلوبين على أمرهم، والذين لا يقدرون على إزاحته عن الحكم. وهناك بعض الشواهد على ما نقول.

كتب معاوية إلى عمّاله بعد عام الجماعة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الإسلام 1/475.

(2) انظر: التمدن الإسلامي - زيدان 4/74 - 75.

«... انظروا إلى مَنْ قامت عليه البيّنة أنّه يُحبّ علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه. وشفع ذلك بنسخة أخرى: مَنْ اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره »(1). وكثيراً ما كان الأنصار يمكثون بلا عطاء، ولا ذنب لهم إلاّ أنّهم ينصرون أهل البيت عليهم‌السلام(2).

وكانوا إذا عصاهم أحد من المسلمين قطعوا عطاءه ولو كان العاصون بلداً برمّتها(3).

وكان من جملة الأساليب التي اتّبعها معاوية لحمل الحسين عليه‌السلام على بيعة يزيد حرمان جميع بني هاشم من عطائهم حتّى يُبايع الحسين عليه‌السلام(4).

وكتب إلى زياد بن سميّة عامله على العراق: « اصطف لي الصفراء والبيضاء ». فكتب زياد إلى عمّاله بذلك، وأمرهم أن لا يُقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضّة(5).

وكتب إلى وردان عامله على مصر أن زد على كلّ امرئ من القبط قيراطاً. ولكن وردان كان أعدل من معاوية،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة « بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم » 11/44 - 46.

(2) انظر: التمدن الإسلامي 4/76.

(3) انظر المصدر نفسه.

(4) انظر: الكامل في التاريخ - لابن الأثير 2/252، الإمامة والسياسة 1/200.

(5) انظر: التمدن الإسلامي 4/79.

فكتب إليه: « كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ألاّ يُزاد عليهم؟ »(1).

وكان ذلك هو شأنه في تحريض عمّاله على جمع الأموال، وهم يخترعون الطرق للاستكثار منها(2).

وفرض ضريبة على الأهالي تُقدّم إليه يوم النيروز، فكان يُجبى منها عشرة ملايين درهم(3)، وهو أوّل مَنْ استصفى أموال الرعية(4).

وها هو معاوية يُعطي عمرو بن العاص(5) أرض مصر وأموالها وسكّانها المعاهدين ملكاً حلالاً له. وقد جاء في صك هذا العطاء: أنّ معاوية أعطى عمرو بن العاص مصر وأهلها هبة يتصرّف كيف يشاء.

مصر التي كتب علي بن أبي طالب للأشتر عامله عليها وثيقة تُعتبر من أعظم حقوق الإنسان على مدى

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الإسلام السياسي 1/474.

(2) انظر: التمدن الإسلامي 2/19.

(3) انظر المصدر نفسه.

(4) انظر المصدر نفسه.

(5) أبو عبد الله أو أبو محمد عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي، واُمّه النابغة بنت حرملة، سُبيت من بني جبلان بن عتيك وبيعت بعكاظ، واشتراها الفاكه بن المغيرة، ثمّ انتقلت إلى عبد الله بن جدعان، ومنه إلى العاص بن وائل فولدت له عمراً.

أرسلته قريش إلى النجاشي ليغيّر رأيه على جعفر بن أبي طالب ومَنْ معه من المهاجرين إلى الحبشة، ويسترجعهم إلى مكة، فردّه النجاشي.

أسلم سنة ثمان، وقبل الفتح بستة أشهر، وافتتح مصر لعمر، ووليها إلى السنة الرابعة من خلافة عثمان، فعزله عنها، فأخذ يؤلّب عليه حتّى قُتل، ثمّ اشترك مع معاوية بصفين مطالباً بثأر عثمان، وأشار برفع المصاحف للصلح فانخدع جيش علي وقبلوا الصلح، وعيّنوا أبا موسى من قبلهم، وعيّن معاوية عمراً، فغدر بأبي موسى وخلعا علياً، ونصب عمرو معاوية وأخذ مصر طعمة من معاوية، ووليها بعد قتل محمد بن أبي بكر حتّى توفي سنة (43 هـ) أو بعدها، ودفن هناك.

راجع ترجمته في جمهرة أنساب العرب - لابن حزم/154، وطبقات ابن سعد 7/ق2/188، المعارف - لابن قتيبة/285، أُسد الغابة 4/420، الكامل في التاريخ 2/232، البداية والنهاية 4/275، شرح النهج - لابن أبي الحديد 1/20 و8/53، مقاتل الطالبيِّين/44.

العصور غدت عند معاوية سلعة تُباع وتُشترى.

وهاك نموذجاً من سلوك عمرو بن العاص في مصر: سأله صاحب أخنا بمصر أن يُخبره بمقدار ما عليه من الجزية، فأجابه: « لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنّما أنتم خزانة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنّا خففنا عنكم »(1).

وحين استولى معاوية على العراق نقل بيت المال من الكوفة إلى دمشق، وزاد في جرايات أهل الشام، وحطّ من جرايات أهل العراق(2). وقد أوضح فلسفته في جميع المال بقوله: « الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركته كان جائزاً لي ».

وكان معاوية على أن يولي على العراق - موطن الولاء لآل البيت - أشخاصاً من أعداء آل البيت عليهم‌السلام؛ ليضمن تنفيذ سياسة الإرهاب والإذلال والتجويع في العراق بسهولة، وليستطيع أن يمنح العراقيين امتيازات يعلم أنّ ولاته - بسبب من حقدهم - لا ينفذونها، فيفوز بحسن السمعة دون أن يتخلّى عن مبادئه.

ونذكر نموذجاً لذلك هو أنّه أمر لأهل الكوفة: « بزيادة عشرة دنانير في أعطيتهم، وعامله يومئذ على الكوفة وأرضها النعمان بن بشير(3)، وكان عثمانياً، وكان يبغض أهل الكوفة لرأيهم في علي عليه‌السلام،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: التمدن الإسلامي 4/79 - 80.

(2) انظر: الدولة العربية وسقوطها - بوليوس ولهاوزن/158.

(3) النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي، ولد قبل وفاة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بثماني سنين وسبعة أشهر، وقيل: =

فأبى النعمان أن ينفذها لهم، فكلّموه وسألوه بالله فأبى أن يفعل.

ولمّا استرحمه عبد الله بن همام السلولي وطلب إليه في قطعة شعرية مؤثّرة أن ينجز لهم الزيادة، قال: « والله لا اُجيزها ولا اُنفذها أبداً »(1).

\* \* \*

وهكذا حرم المسلمون من أموالهم لتُنفق هذه الأموال على الزعماء القبليين، والقادة العسكريين، وزمر الكذّابين على الله ورسوله.

وقد طُبّقت هذه السياسة - سياسة الإرهاب والتجويع - بالنسبة إلى

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= بست سنين، وكان هواه مع عثمان،، ثمّ مع معاوية، ثمّ مع يزيد في أيام الفتن خلافاً لقومه، وكان انتهازياً مُرتزقاً، يبيع دينه وضميره لأي شيطان يدفع الثمن، وكان من المتقرّبين عند عثمان.

ولمّا قُتل عثمان أخذ النعمان قميصه، وأصابع زوجته نائلة، وباعهما إلى معاوية، فعلّق معاوية القميص وعليه الأصابع ليستثير أهل الشام.

وقد عمل النعمان أميراً على الكوفة لمعاوية، ومن بعده ليزيد... وفي ذات يوم جهّزه معاوية بالسلاح والرجال وأمره بالغارة على عين التمر في العراق، ولمّا ورد الخبر بذلك إلى الإمام عليه‌السلام استنهض الناس فتثاقلوا وتجاهلوا، فقال: « مُنيت بمَنْ لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت ».

تُفيض هذه الكلمات بالأسى والألم، ومثلها كثير في كلام الإمام عليه‌السلام؛ وما ذاك إلاّ لأنّه كان يهتمّ برعيّته وبالإنسان أيّما كان أكثر من اهتمامه بنفسه وأهله، ولكن ما يصنع وكلّ ما لاقاه الإمام عليه‌السلام وقاساه من جنده وأصحابه تجمعه وتحكيه كلمة واحدة، وهي قوله: « اُريد أن اُداوي بكم وأنتم دائي، كنافش الشوكة بالشوكة »؟! انظر: شرح النهج - الخطبة (121)، لا شيء أشدّ قسوة من داء دواؤه داء.

وولاّه معاوية الكوفة، ثمّ حمص. وفي زمن معاوية بن يزيد دعا إلى بيعة عبد الله بن الزبير فقتله شيعة بني أميّة بمرج راهط في ذي الحجّة سنة (64 هـ) كما جاء ذلك في ترجمته في أُسد الغابة 5/22، والإصابة 3/529 تحت رقم 8730، والطبري في تأريخه 6/77، وابن الأثير 3/150، وشرح النهج - لابن أبي الحديد 1/212، وابن كثير في تاريخه 7/319.

(1) انظر: الأغاني 16/29 - 32 طبعة دار الكتب.

المسلمين عموماً، وبالنسبة إلى كلّ مَنْ اتّهم بحبّ علي وآله على الخصوص. لقد كان حبّ علي عليه‌السلام سرطان الحكم الأموي، فعزموا على قطعه تماماً.

ويُقدّم لنا يوليوس ولهاوزن صورة مُعبّرة عن الآثار السياسيّة والاجتماعيّة التي خلّفتها هذه السياسة في المجتمع العراقي في ذلك الحين: « لقد غُلب أهل العراق في صراعهم مع أهل الشام... وضاع منهم دخل الأراضي التي استولوا عليها، وصار عليهم أن يقبلوا باُجور هي فتات موائد أسيادهم، وكانوا مغلوبين على أمرهم، تغلبهم عليه تلك الصدقات التي هم محتاجون إليها، والتي في يد الاُمويِّين تخفيفها أو إلغاؤها، فلا عجب إذاً في أن يروا في حكم أهل الشام نيراً ثقيلاً، وأن يتأهّبوا لدفعه متى سنحت الفرصة المواتية لهم بذلك.

وازدادت الضغينة على الاُمويِّين بسبب عدائهم للنبي والعقيدة الإسلاميّة بما انظمّ إليها من الشكاوى على السلطان التي أصبحت الآن شكاوى من الاُمويِّين، وهم أصحاب السلطان، وهي النقاط أنفسها تُعاد وتُكرر؛ عمّال يسيئون استعمال سلطانهم، وأموال للدولة تذهب إلى جيوب عدد قليل من الناس، بينما لا يحصل غيرهم على شيء.

وكان زعماء القبائل والأسر في الكوفة يشاركون غيرهم منذ الأصل هذا الشعور، بيد أن وضعهم الذي يُلقي بالمسؤولية على عاتقهم جنح بهم إلى أن يعتصموا بالحيطة والحكمة، فلا يشرعون في القيام بثورة لا هدف لها، بل

يردون الجماهير عنها حين ينطلقون فيها، وها هم أولاء باسم السلام والنظام يضعون نفوذهم تحت تصرّف الحكومة؛ كيلا يُعرضوا وضعهم للأخطار، وإذا هم يُصبحون أعداء أكثر فأكثر للشيعة الحقيقيين، وأعداء لهم يشتدّ عداؤهم يوماً بعد يوم، تلك الشيعة التي لم ينقض من تمسكها بورثة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله إخفاقها في تحقيق رغباتها... بل زاد فيه. وكانت مقاومتها للإرستقراطية القبلية تُضيق الخناق عليها »(1).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الدولة العربية وسقوطها - يوليوس ولهاوزن/51 - 52 و53 و56.

إحياء النزعة القبلية واستغلالها

دعا الإسلام إلى ترك التعصّب للقبيلة والتعصّب للجنس، واعتبر الناس جميعاً سواء من حيث الإنسانيّة المشتركة، وأقام مبادئه وتشريعاته على هذه النظرة الصائبة إلى الجنس البشري. وفي الحديث: « المؤمنون إخوة؛ تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على مَنْ سواهم »(1).

وممّا روي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه قال في خطبته في حجّة الوداع: « أيّها الناس، إنّ الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وفخرها بالآباء، كلكم لأدم وأدم من تراب، ليس لعربيٍّ على عَجَميٍّ فضل إلاّ بالتقوى »(2).

وروي عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: مسند أحمد 2/192 ح6797، صحيح ابن حبان 13/341، المستدرك على الصحيحين 2/153 ح2623، مجمع الزوائد 1/283، سنن أبي داود 4/180 ح 4530.

(2) انظر: سنن البيهقي 9/118، سبل الهدى والرشاد 5/242، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 17/281، بحار الأنوار 31/35.

« مَنْ قاتل تحت عَمية، يغضب لعصبيّة، أو يدعو إلى عصبيّةٍ، أو ينصر عصبيّةً، فقُتل، قُتل قتلةً جاهليّة »(1).

وقال الله تعالى مبيّناً في الكتاب الكريم المقياس الإسلامي في التفاضل: ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ )(2).

بهذه الروح الإنسانيّة الرحبة الآفاق دعا الإسلام إلى النظر إلى اختلاف القبائل والشعوب، وبهذه الروح الإنسانيّة الرحبة حاول الإسلام أن يجعل من القبائل العربية المسلمة أمّة واحدة لا يمزّقها التناحر القبلي الجاهلي، وإنّما تربط بين أفرادها أخوّة الإسلام، ورسالة الإسلام، وحاول أن يجعل من المسلمين جميعاً - على اختلاف أوطانهم ولغاتهم - أمّة واحدة متماسكة، تجمعها وحدة العقيدة، ووحدة الهدف والمصير.

وقد عمل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله طيلة حياته بأقواله وأعماله على تركيز هذه النظرة الإسلاميّة في وجدان المسلمين، وجعلها حقيقة حيّة في تفكيرهم، وتابعه على ذلك علي عليه‌السلام؛ فعمل على تركيزها بأعماله وأقواله طيلة حياته، بعد أن شهد عهد عثمان انحرافاً خطيراً عن هذه النظرة الإسلاميّة، واتجاهاً خطيراً نحو الروح الجاهلي والعصبية القبلية التي اتّبعها هو وعمّاله(3).

ولا نزال حتّى اليوم نحس

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: مسند الروباني 2/141 ح959، صحيح ابن حبان 10/440 ح4579، مجمع الزوائد 5/244.

(2) سورة الحجرات/13.

(3) قد بيّنا في صدر هذه الرسالة أنّ الروح القبلية بُعثت في وقت مبكر جدّاً بالنسبة إلى هذا التاريخ. نعم، يُعتبر عهد عثمان عهد استفحالها وظهور آثارها الوبيلة في المجتمع الإسلامي، وقد ظهرت هذه =

بحرارة نضال علي عليه‌السلام في هذا المجال، وإنْ ما سلم من أيدي الحوادث من آثار علي عليه‌السلام الكلامية في هذا الموضوع على قلّته ليدلّنا على عمق النظرة التي نظر بها علي عليه‌السلام إلى التكوين القبلي للمجتمع، ويدلّنا على وعيه لمدى خطر هذا التكوين القبلي على المجتمع الإسلامي.

ومن أبرز الآثار الباقية من كلامه في هذا الموضوع الخطبة القاصعة، وهي وثيقة عظيمة الأهمية في الدلالة على وجهة نظره عليه‌السلام(1).

أمّا معاوية فقد استغل هذه الروح في ميدانَين؛ فقد أثار بالقول والفعل

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= العصبيّة من عثمان حينما حكّم بني اُميّة في رقاب الناس، وقد اعتبر كثير من المسلمين في هذا العمل تعصّباً قبلياً مجافياً لروح الإسلام. ومن سعيد بن العاص والي الكوفة يوم قال في ملأ من رجال القبائل ردّاً على أحدهم: « إنّما السواد بستان لقريش ». فردّ عليه الأشتر النخعي قائلاً: « أتزعم أنّ السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا لك ولقومك؟! ». فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين. انظر: التمدن الإسلامي - زيدان 4/57 - 58.

أضف إلى هذا سلوك معاوية في الشام وعبد الله بن سعد بن أبي شرح في مصر، وعبد الله بن عامر في البصرة. منه رحمه‌الله.

(1) وما كان علي عليه‌السلام ليتعصّب وهو الذي ذمّ العصبية في الخطبة ( القاصعة )، وردّ أصلها إلى تعصّب إبليس للنار ضدّ الطين: « أمّا إبليس فتعصّب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته فقال: أنا ناري، وأنت طيني. وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم فتعصّبوا لآثار مواقع النعم، فقالوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ). فإن كان لا بدّ من العصبية، فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال ». انظر: نهج البلاغة - الخطبة 192.

وليست الدعوة ضدّ العصبية دعوة هيّنة، فالعصبية سبب لمصائب كثيرة كان منها حروب كثيرة أثارها التعصّب للجنس، أو الدين، أو اللون، أو المذهب، أو الوطن، ولعل مما بين كراهته عليه‌السلام للتعصّب، وهو حقيق أن يكره التعصّب لِما ذاق من تعصّب أهل الشام لمعاوية، قوله: « ليس بلد بأحقّ بك من بلد، خير البلاد ما حملك ». انظر: نهج البلاغة - الخطبة 442.

وانظر: نهج البلاغة (نشر مكتبة الأندلس - بيروت) 3/23 - 48، وراجع للمؤلف: دراسات في نهج البلاغة - طبعة النجف 1956 - في فصلي (المجتمع والطبقات الاجتماعيّة) و(الوعظ) ففيهما دراسة مستوفاة من هذا الموضوع.

العصبية القبلية عند القبائل العربية ليضمن ولاءها عن طريق ولاء زعمائها من ناحية، وليضرب بعضها ببعض حين يخشاها على سلطانه من ناحية أخرى. وآثار العصبية العنصرية عند العرب عموماً ضدّ المسلمين غير العرب، وهم الذين يُطلق عليهم المؤرّخون اسم الموالي.

ففي حياة علي عليه‌السلام سلك معاوية سبيل الدسّ والتآمر على حكم علي عليه‌السلام عن طريق إثارة الروح القبلية في سكّان العراق من القبائل العربية، فتارة يُلوّح لزعماء هذه القبائل بالامتيازات الماديّة والاجتماعيّة التي يخصّ بها الزعماء القبليون في الشام؛ ومن هنا صارت الشام ملاذاً لمَنْ يغضب عليه الإمام عليه‌السلام من هؤلاء الزعماء لجناية جناها، أو خيانة خانها في عمله، ومطمحاً لمَنْ يريد الغنى والمنزلة، فيجد عند معاوية الإكرام والعطاء الجزل، والمنزلة الاجتماعيّة الرفيعة.

وقد كتب الإمام علي عليه‌السلام إلى سهل بن حنيف(1) عامله على المدينة في شأن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) سهل بن حنيف الأنصاري، أبو ثابت، وأنّه ممّن ثبت يوم أحد مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لمّا انهزم الناس، وبايعه على الموت، وجعل ينضح يومئذ بالنبل مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، فقال عنه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: « نبّلوا سهلاً؛ فإنّه سهل ».

انظر: المستدرك على الصحيحين 3/409، شرح الأخبار 2/53، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 14/252، الطبقات الكبرى 3/471، سير أعلام النبلاء 2/328، الإصابة 3/166، تاريخ المدينة 2/490، المنتخب من ذيل المذيل/17.

وكان بدرياً، وشهد المشاهد كلّها مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، وكان من نقباء ليلة العقبة، ثمّ صحب علي بن أبي طالب عليه‌السلام حين بويع بالخلافة، وقد استخلفه على المدينة لمّا سار إلى البصرة، وشهد معه صفين، وولاّه بلاد فارس.

وكان في بدء الإسلام عام الأوّل من الهجرة يكسر أصنام قومه ليلاً، فيحملها إلى امرأة مسلمة من الأنصار لا زوج لها يقول لها: خذي فاحتفظي بهذا. وكان أمير المؤمنين عليه‌السلام يذكر ذلك عنه بعد موته متعجّباً.

وقال عندما توفّي سهل بن حنيف الأنصاري بالكوفة بعد مرجعه معه من صفين، وكان أحبّ الناس إليه: « لو أحبّني جبل لتهافت ». انظر: نهج البلاغة - الحكمة 111، تحف العقول/344، =

قوم من أهلها لحقوا بمعاوية: « أمّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ؛ فَكَفَى لَهُمْ غَيّاً وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، وَقَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ فَهَرَبُوا إِلَى الأَثَرَةِ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقاً! إِنَّهُمْ وَاللَّهِ لَمْ يَنْفِرُوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللَّهُ لَنَا صَعْبَهُ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالسَّلامُ »(1).

وقد كان معاوية يجد دائماً أشخاصاً من هذا النوع في مجتمع العراق، وكان يتخلص بولائهم له، وطمعهم فيما عنده من مآزق حرجة(2).

وكان يتمتعّ بحس يوفّق به إلى إثارة هذه الروح في الوقت المناسب، وبحيث يبدو فعله منسجماً مع

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 18/275، شرح نهج البلاغة - لمحمد عبده 4/26.

ولمّا مات سنة (38 هـ) بالكوفة كبّر عليه علي بن أبي طالب عليه‌السلام خمس تكبيرات، ثمّ مشى ساعة فوضعه، ثمّ كبّر عليه خمساً أخرى، فصنع ذلك حتّى كبّر عليه خمساً وعشرين تكبيرة، ثمّ كفّنه في بُرد أحمر حبرة. انظر: تذكرة الفقهاء 1/43، الكافي 3/149 ح9، التهذيب 1/296، وسائل الشيعة 2/726 ح3.

انظر: تهذيب التهذيب 4/220 ح 439، تحف العقول/344، سبل السلام 2/103، كشف القناع 2/139، المحلى 5/126، كتاب الأمّ 1/323 و7/178، المغني 2/393، الشرح الكبير 2/349، تهذيب الأحكام 3/315 ح 977، المعتبر - للعلاّمة الحلّي 2/357، أُسد الغابة 2/364، سير أعلام النبلاء 2/325، الكافي 3/186 ح2، التهذيب 3/325 ح1011، فقه الرضا/188، الاستبصار 1/484 ح1876، المقنعة - للشيخ المفيد/23.

(1) انظر: نهج البلاغة - الرسالة 73.

(2) انظر: كتاب صفّين - نصر بن مزاحم/8، 108، 345 - 346.

ما يقتضيه الإنصاف والعدل، كقوله لشبث بن ربعي(1) وقد سفر عنده لعلي مع زعيمين آخرين من أهل العراق في صفين: « أوّل ما عرفت به سفهك، وخفّة حلمك قطْعك على الحسيب الشريف سيد قومه منطقه. يعني سعيد بن العاص الهمداني »(2).

ومن ذلك ما كان منه في شأن النزاع الذي حدث حول رياسة كندة وربيعة، فقد كانت للأشعث بن قيس الكندي، فعزله عنها علي عليه‌السلام ودفعها لحسّان بن مخدوج من ربيعة، فلمّا بلغ ذلك معاوية أغرى شاعراً كنديّاً يقول شعراً يهيج به الأشعث وقومه، فقال شعراً عظّم به شأن الأشعث وقومه، وهجا به حسّان وربيعة، ولكنّ أهل اليمن فطنوا إلى ما يريد معاوية، فقد قال شريح بن هانئ: « يا أهل اليمن، ما يريد صاحبكم إلاّ أن يُفرّق بينكم وبين ربيعة »(3).

وهكذا نراه يسعى إلى أن يؤجج القبلية بين القبائل العربية؛ فيلقي بينها العداوة والبغضاء، ويثير فيها إحن الجاهليّة وأحقادها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هو أبو عبد القدوس شبث بن ربعي التميمي، كان مع المتنبئة ثمّ أسلم، ثمّ سار مع الخوارج ثمّ تاب، وعمّر إلى ما بعد المختار.

انظر: الجمهرة/216، وابن سعد في طبقاته 6/216، وقعة صفين/97 و98 و187 و195 و197 و199 و205 و294، معجم الفرق الإسلاميّة/214، الملل والنحل - للشهرستاني 1/106 لتجد أنّ شبث بن ربعي من زعماء الخوارج، وكان دينه تكفير علي وعثمان، وأصحاب الجمل والحكمين في صفين.

انظر: المعارف - لابن قتيبة/405، حيث قال: إنّ شبث بن ربعي أذّن لها - أي أذّن لسجاح. والإمامة والسياسة/149 و169 على الرغم من أنّه ذكره باسم شيث بن ربعي. تاريخ الطبري 5/240، الأخبار الطوال/172.

(2) انظر: كتاب صفّين - نصر بن مزاحم/209 - 311.

(3) انظر: كتاب صفّين/153 - 156.

وأرسل معاوية في سنة (38) للهجرة ابن الحضرمي إلى البصرة ليضرم الفتنة بين قبائلها بإثارة ذكريات حرب الجمل، وقتل عثمان، وقال له: « فانزل في مضر، واحذر ربيعة، وتودّد الأزد، وانع ابن عثمان، وذكّرهم الوقعة التي أهلكتهم، ومن لمَنْ سمع وأطاع دنياً لا تفنى، وأثرة لا يفقدها »(1).

وقد وفق ابن الحضرمي إلى حدٍّ ما في إثارة إحن القبائل، وكأنّما سرت هذه النار التي أججها ابن الحضرمي بين قبائل البصرة إلى قبائل الكوفة؛ للقرابة النسبيّة التي بين القبائل هنا وهناك. فقال علي عليه‌السلام يخاطب قبائل الكوفة بهذه المناسبة من جملة كلام له: « وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة، وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل، فاقصدوا لهامهم ووجوههم بالسيف حتّى يفزعوا إلى الله، وإلى كتابه وسنّة نبيّه؛ فأمّا تلك الحميّة فإنّها من خطرات الشياطين، فانتهوا عنها - لا أباً لكم! - تُفلحوا وتنجحوا »(2).

\* \* \*

وحينما بويع معاوية بالخلافة لم تخضع له البلاد الإسلاميّة كلّها خضوعاً تامّاً، فقد كان هنالك الشيعة الذين يوالون علياً وأهل بيته، وكان هنالك الخوارج الذين يتّفقون مع الشيعة في عدائهم للاُمويِّين، وكان هنالك قبائل العراق التي لم تنظر بعين الارتياح إلى نقل بيت المال إلى الشام، وإلى تفضيل أهل الشام في العطاء على أهل العراق(3).

هذا مضافاً إلى أنّ كثيراً من المسلمين كانوا يرون في

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الغارات 2/378، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 4/37.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/84 - 86.

(3) انظر: الدولة العربية/108.

انتصار الاُمويِّين انتصاراً للوثنية على الإسلام؛ لذلك كلّه كرهوا الاُمويِّين وغطرستهم، وكبريائهم وإثارتهم للأحقاد القديمة، ونزوعهم للرّوح الجاهليّة(1).

ولقد واجه معاوية هذه الموجة العارمة من البغضاء التي قوبل بها حكمه بأنماط متعدّدة من السلوك كان منها - ولعلّه أهمّها - ضرب القوى العقائدية المعادية للحكم الأموي بعضها ببعض، وإثارة الرّوح القبلية على نطاق واسع يكفل له انشقاق القبائل بتأثير أحقادها الصغيرة، ويخلق بينها حالة من التوتّر تجعل من المتعذّر عليها أن تتوحّد، وأن تنظر إلى الحكم الأموي نظرة موضوعية، وبذلك فاز معاوية بتفتيت المعارضة بعوامل داخلية تنبع من صميم المعارضة نفسها.

ولم تكن هذه السياسة هي اللون المفضّل عند معاوية بالنسبة إلى سائر القبائل فحسب، بل كانت بهذه المنزلة عنده بالنسبة إلى أسرته الأموية ذاتها أيضاً، ففد كان - كما يقول ولهاوزن - يسعى إلى أن يدخل القطيعة بين مختلف فروع الأسرة الأموية بالمدينة ليقضي بذلك على شوكتهم(2).

وإذا كانت هذه هي خطّته بالنسبة إلى أسرته ذاتها فليس لنا أن نطمع منه بسلوك أنبل بالنسبة إلى سائر القبائل التي كان يخشاها على سلطانه؛ لأنّ الدوافع المشتركة كانت توحّدها في الوقوف ضدّه.

ولا يجد الباحث صعوبة كبيرة في اكتشاف هذا الخُلق في معاوية؛ فتأريخه مليء بالشواهد عليه.

فبراعته في استغلال ما لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام من

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الإسلام السياسي 1/278 - 279.

(2) انظر: الدولة العربية/112 نقلاً عن الطبري، وفي شرح نهج البلاغة 11/19 نقلاً عن الجاحظ: « وكان معاوية يحبّ أن يغري بين قريش ».

أجل مصالحه الخاصّة جعلته يستغل هؤلاء الشعراء في هذا الميدان، فيحرّضهم على القول في موضوعات الفخر والهجاء كالذي كان بين القبائل في الجاهليّة(1).

ومن ذلك موقف شاعره الأخطل من الأنصار، فقد واصل شعراء الأنصار هجاء معاوية على أساس ديني، فردّ عليهم الأخطل بهجاء قبلي جاهلي، ونظم فيهم قصيدته التي يقول فيها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ذهبت قريش بالمكارم والعُلا |  | واللؤم تحت عمائم الأنصارِ(2) |

ولا يصعب علينا أن نعرف الدوافع التي دفعت معاوية إلى اتّخاذ هذا الموقف من الأنصار، فقد كانوا يقفون في صف المعارضة للحكم الأموي إلى جانب الأُسر القرشية البارزة التي أحفظها أن تفوز أميّة بالحكم دونها؛ لأنّهم لم ينظروا بعين الارتياح إلى استيلاء أعداء الإسلام ونبيّه على الحكم بهذه السهولة، ولعلّه قدّر أنّ إثارة الأحقاد القديمة التي خلّفتها حروب الإسلام القديمة كفيلة بأن تنال من هذا الاتّحاد بين الأنصار وبين المنافسين لأميّة من قريش.

ومن جهة أخرى نراه يسعى إلى تفتيت وحدة الأنصار بإثارة الأحقاد الجاهليّة التي كانت بين الحيين الأوس والخزرج، فيضرب إحدى القبيلتين بالاُخرى. وقد توصّل إلى ذلك ببراعة؛ فقد كان يوعز إلى المعنيين بإنشاد الشعر الجاهلي الذي تهاجت به القبائل قبل الإسلام.

قال أبو الفرج الأصفهاني:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الشعوب الإسلاميّة - بروكلمان 1/148، قصة الأدب في العالم - أحمد أمين 1 - 372.

(2) انظر: تأريخ الشعر السياسي - أحمد الشايب/308 - 309، تأريخ مدينة دمشق 34/298، أُسد الغابة 2/381، طبقات الشعراء/392.

« كان طويس(1) ولعاً بالشعر الذي قالته الأوس والخزرج في حروبهم، وكان يريد بذلك الإغراء، فقلّ مجلس اجتمع فيه هذان الحيّان فغنى فيه طويس إلاّ وقع فيه شيء... فكان يُبدي السرائر ويُخرج الضغائن »(2).

وهذا عبد الله بن قيس الغطفاني، من قيس عيلان اعتدى على كثير بن شهاب الحارثي، فكتب ناس من اليمانية إلى معاوية أنّ سيدنا ضربه خسيس من غطفان، فإن رأيت أن تُقيدنا من أسماء بن خارجة. فحمّقهم معاوية.

وقال كثير بن شهاب: والله لا أستقيدها إلاّ من سيد مضر. فغضب معاوية، وأمّن عبد الله وأطلقه، وأبطل ما فعله بابن شهاب فلم يقتصّ ولا أخذ له عقلاً(3).

وحين تعرف أنّ أشدّ الناس إخلاصاً لعلي عليه‌السلام في العراق كانوا من قبائل اليمن، يتّضح لنا لماذا يتعصّب معاوية لمضر العراق على يمن العراق.

هذا بالإضافة إلى أنّ السلطة حين تكفّ عن أن تكون حكماً بين القبائل في منازعاتها تسعى هذه القبائل إلى أن تقتصّ لنفسها، وتتناحر فيما بينها، وهي النتيجة التي يطمح إليها معاوية.

أمّا في الشام فتراه يتعصّب لليمن على مضر؛ فقد تقرّب إلى قبيلة كلب اليمانية فتزوّج ميسون اُمّ يزيد، وهي ابنة بجدل زعيم قبيلة كلب، وزوّج ابنه

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هو عيسى بن عبد الله، مولى بني مخزوم، وهو أوّل مَنْ غنّى بالعربي بالمدينة، وأوّل مَنْ ألقى الخُنث فيها، وهو مشؤوم؛ لأنّه ولد يوم وفاة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، وفطم يوم موت أبي بكر، وبلغ يوم مقتل عمر، وتزوّج يوم مقتل عثمان، وولد له يوم مقتل علي. انظر: سير أعلام النبلاء 4/364، الأغاني 3/37، تفسير القرطبي 12/236.

(2) انظر: الأغاني 2/170، تأريخ الإسلام السياسي 1/535، فجر الإسلام/280.

(3) انظر: تأريخ الشعر السياسي/160 - 161.

يزيد من هذه القبيلة أيضاً. وقد اعتمد حروبه ومؤامراته على هذه القبيلة وعلى قبائل اليمن الأخرى: عكّ، والسكاسك، والسكون، وغسّان وغيرها، واضطهد مضر الشام فلم يفرض عطاءً لقيس وهي من مضر؛ لثقته العظيمة بكفاءة أنصاره اليمانيين.

وهكذا مسكين الدارمي، وهو شاعر يخشى لسانه ويُرجى، طلب من معاوية أن يفرض له في العطاء فلم يجبه إلى ذلك؛ لأنّه مضري، فقال شعراً يرقق به قلب معاوية فلم يلتفت إليه. وقد سببت هذه المحاباة اعتزاز اليمن، فاشتدّ بأسها، واستطالت على الدولة، وتضعضعت قيس وسائر عدنان.

وسمع معاوية كلمة من بعض أهل اليمن أثارت مخاوفه، فرأى أن يضرب اليمانيين بالمضريِّين، ففرض من وقته لأربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان، وبعث إلى مسكين يقول له: « لقد فرضنا لك وأنت في بلدك؛ فإن شئت أن تقيم بها أو عندنا فافعل؛ فإنّ عطاءك سيأتيك »(1).

\* \* \*

ولقد كانت سياسة عمّال معاوية على أمصار الدولة هي سياسة معاوية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: التمدن الإسلامي 4/74 - 75، وقد جنى معاوية من فعله هذا ولاء مسكين الدارمي، وها هو يزين له استخلاف يزيد بقوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألا ليتَ شعري ما يقول ابنُ عامرٍ |  | ومروانُ أم ماذا يقول سعيدُ |
| بني خلفاء اللهِ مهلاً فإنّما |  | يُبوّئها الرحمان حيث يريدُ |
| إذا المنبرُ الغربيُّ خلاه ربُّه |  | فإنّ أميرَ المؤمنين يزيدُ |

انظر: تأريخ الشعر السياسي/241، الأغاني 8/71، ولا يفوتنا أن نلاحظ أنّ البيت الأوّل يشهد لهذا التناحر الذي كان يعمل عمله في صميم الأسرة الاُمويّة، ويشير إلى الأسماء البارزة في هذا الصراع؛ عبد الله بن عامر، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص. منه رحمه‌الله.

نفسه، فيعمد الوالي إلى إثارة العصبيات القبلية فيما بين القبائل؛ ليشغلها عن مراقبته والاتّحاد ضدّه، بالتناحر عنده فيما بينها.

وقد لاحظ ولهاوزن هذه الظاهرة، وقال عنها: «... وأججّ الولاة نار هذه الخصومة - يعني الخصومة بين القبائل - ولم يكن تحت تصرّف الولاة إلاّ شرطة قليلة، وفيما سوى ذلك كانت فرقهم من مقاتلة المصر، وهي قوّة الدفاع في القبائل، حتّى إذا أحسنوا التصرّف تهيّأ لهم أن يضربوا القبائل بعضها ببعض، وأن يثبتوا مركزهم بينهم.

وكثيراً ما كان يحدث أنّ الوالي يعتمد على إحدى القبائل ضدّ الأخرى، وبوجه عام على قبيلته التي أتى بها معه، حتّى إذا أتى والٍ جديد أتت قبيلة أخرى إلى الحكم، وينتج من ذلك أنّ القبيلة التي نُحّيت عن الحكم تُصبح عدوّاً لدوداً للقبيلة التي تحكم، وهكذا أضحت الميزات القبلية ملطّخة بالسياسة والخصام على الغنائم السياسيّة »(1).

وقد كان زياد بن سميّة من أبرع عمّال معاوية في هذا الميدان، وممّا يؤثر عنه أنّه عندما همّ القبض على حجر بن عدي الكندي(2) أمر محمد بن الأشعث

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الدولة العربيّة/58.

(2) هو حجر بن عدي الأبرد الكندي الملقّب بحجر الخير، وكان من فضلاء الصحابة، وفد إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وشهد القادسية، وقد قتله معاوية صبراً، ويُقال: إنّه أوّل مَنْ قُتل صبراً في الإسلام. قُتل معه ستة من أصحابه، وهم: شريك بن شدّاد الحضرمي، وصيفي بن قبيل الشيباني، وقبيصة بن ضيعة العبسي، ومحرز بن شهاب السعدي، وكدام بن حيان العنزي، وعبد الرحمن بن حسّان العنزي.

وكان حجر ثقة =

الكندي بالقبض عليه هادفاً من وراء ذلك إلى زرع بذور الشقاق في كندة، وهي من أقوى قبائل الكوفة؛ ليستريح من وحدتها، ويلهي كلاً من أنصار حجر وأنصار محمد بأعدائه الجدد، ولكنّ يقظة حجر فوّتت على زياد هذه الفرصة، فسلّم نفسه إلى السلطة طوعاً(1).

وقد قال عنه ولهاوزن: «... ولكنّ الواقع أنّه لم يقض في الكوفة على ثورة الشيعة بواسطة الشرطة، بل بعون من القبائل نفسها... وتمكّنه الغيرة القائمة بين القبائل من أن يضرب بعضها ببعض »(2).

وقال عنه أيضاً:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= عيناً، ولم يرو عن غير علي عليه‌السلام شيئاً، وهو الذي افتتح مرج عذراء، وكان شريفاً في قومه مطاعاً، آمراً بالمعروف، صالحاً عابداً يلازم الوضوء، وباراً باُمّه، كثير الصلاة والصيام.

انظر: ترجمته في شرح نهج البلاغة 15/100، طبقات ابن سعد 6/151 و154، المستدرك 3/468، الاستيعاب 1/134 الرقم 548 طبعة حيد آباد، أُسد الغابة 1/385، سير أعلام النبلاء 3/305 الترجمة رقم 314، تاريخ الذهبي 3/276، تاريخ ابن الكثير 8/50، الإصابة 1/315، تأريخ الطبري 2/111 - 149 و5/277، تأريخ ابن الأثير 3/403 و404، وقعة صفّين/103، مروج الذهب 3/3 - 4، تهذيب الكمال 5/485 الرقم 1141، المعارف - لابن قتيبة/334، الأغاني 16/10، تأريخ مدينة دمشق 2/379، مسند أحمد 4/421، والمعجم الكبير - للطبراني 1/427، والعقد الفريد 4/345، وتهذيب ابن عساكر 7/206، وصفوة الصفوة 1/238، وسيرة ابن هشام 4/179.

(1) وترى عند أحد رفقاء حجر، وهو قبيصة بن ربيعة العبسي، تنبّهاً لهذه الأساليب؛ فقد قال لأبي شريف البدري حين قدم ليقتل في مرج عذراء: « إنّ الشرّ بين قومي وقومك آمن، فليقتلني سواك. فقال: برّتك رحم. ثمّ قتله القضاعي ».

(2) انظر: الدولة العربيّة/105 - 106.

«... وعرف زياد كيف يخضع القبائل بأن يضرب إحداها بالأخرى، وكيف يجعلها تعمل من أجله، وأفلح في ذلك »(1).

وقد سلك ابنه عبيد الله هذا المسلك حين ولاّه معاوية البصرة بعد أبيه، وممّا يؤثر عنه في هذا الباب أنّه أغرى بين صديقيه الشاعرين أنس بن زنيم الليثي وحارثة بن بدر الفداني، وكان يُكره أحدهما على هجاء الآخر وقومه حتّى وقع بينهما شرّ بسبب ذلك، وعبيد الله ماضٍ في الإيقاع بينهما(2).

وقد كان المغيرة بن شعبة والي الكوفة من قبل معاوية يتّبع نفس هذا الأسلوب، فعندما ولي الكوفة جعل من همّه أن يُفسد ما بين الخوارج والشيعة، وبذلك استطاع أن يشغل الكوفيين عن معارضة الاُمويِّين معارضة فعّالة(3).

وها هو يصرّ على أن يدفع بصفوة الشيعة في الكوفة والبصرة إلى حرب الخوارج، ويُجهّز جيشاً منهم لهذه الغاية(4).

وقد كانت عاقبة هذه السياسة أن عادت إلى الاشتعال من جديد تلك العداوات والأحقاد القديمة التي كانت بين القبائل، وكان من نتائجها بعد ذلك ظهور الشعر السياسي الحزبي والقبلي.

فقد شبّت نيران الهجاء بين شعراء الشيعة والخوارج والاُمويِّين، واشتعلت نيران الهجاء والمفاخرات القبلية بين القبائل نفسها، وعاضد الشعراء القبليون الأحزاب بدوافع قبلية، فقد انضمّ الأخطل إلى الاُمويِّين على قيس عيلان أعداء قومه التغلبيين، ثمّ انضمّ إلى الفرزدق على

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: المصدر السابق/207.

(2) انظر: الأغاني/21 - طبعة الساسي.

(3) انظر: تأريخ الشعوب الإسلاميّة 1/146.

(4) انظر: تأريخ الطبري 4/175.

جرير؛ لأنّ جريراً كان لسان القيسية على تغلب، وكان الفرزدق تميمياً، وجرير أخذته قيس عيلان.

وقد تقمصّت هذه العصبية القبلية شكلاً دينياً حينما أخذت القبائل تسعى إلى اختراع الأحاديث في فضلها تنسبها إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله؛ وذلك إنّ هذه القبائل لمّا كانت تتنازع الرياسة، والفخر، والشرف وجدت في الأحاديث باباً تدخل منه إلى المفاخرة كالذي وجدته في الشعر، فكم من الأحاديث وضعت في فضل قريش، والأنصار، وأسلم، وغفار، والأشعريين، والحميريين، وجهينة، ومزينة(1).

وسنرى أنّ معاوية قد استأجر بعض تجّار الدين لاختلاق الأحاديث في مديحه ومديح أسرته، ولعلّ مساعيه هذه هي التي حملت الآخرين على اختلاق الأحاديث في تمجيد قبائلهم.

\* \* \*

وهكذا بثّ معاوية روح البغضاء والنفرة بين القبائل العربيّة، فشغلت هذه القبائل بأحقادها الصغيرة عن مقارعة خصمها الحقيقي، الحكم الأموي، وشغل زعماء هذه القبائل بالسعي عند الملوك الاُمويِّين للوقيعة بأعدائهم القبليين، وفاز معاوية - وحلفاؤه من بعد - بكونه حكماً بين أعداءٍ هو الذي أشعل نيران العداء بينهم من حيث لا يشعرون، ووحّدهم في طاعته من حيث لا يدرون.

وقد دفعهم هذا الوضع إلى أن يقفوا دائماً مع الحاكمين ضدّ الثائرين؛ ليحافظوا على الامتيازات الممنوحة لهم، ويخذّلون عنها بل ويتسابقون في استخدام أقصى ما يملكونه من نفوذ ودهاء في هذا السبيل؛ للتأكيد على ولائهم التام للسلطة القائمة.

وقد لاحظ ولهاوزن:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: فجر الإسلام - أحمد أمين/213.

« إنّ وضعهم - زعماء القبائل - جنح بهم إلى أن يعتصموا بالحِطية والحكم، فلا يشرعون في القيام بثورة لا هدف لها بل يردّون الجماهير عنها عندما ينطلقون فيها، وها هم أولاء باسم الإسلام والنظام يضعون نفوذهم تحت تصرّف الحكومة؛ كيلا يُعرضوا وضعهم للأخطار »(1).

والشواهد التي تدلّ على صدق هذه الملاحظة عمّا آل إليه أمر المسلمين بسبب استفحال الروح القبلية كثيرة جدّاً، وسيمر بعضها فيما يأتي من هذه الدراسة.

\* \* \*

والعمل الآخر الذي قام به معاوية في هذا المجال هو إثارته للعصبية العنصرية عند العرب عموماً ضدّ المسلمين غير العرب، وقد أغرى هذا الموقف رؤساء القبائل العراقية فاندفعوا ينصحون الإمام علياً عليه‌السلام قائلين: « يا أمير المؤمنين، أعطِ هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل مَنْ تخاف خلافه من الناس »(2).

ناظرين إلى ما يصنع معاوية، ولكنّ الإمام علياً عليه‌السلام أجابهم قائلاً: « أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ؟! وَاللَّهِ لا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً. لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ...؟! »(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الدولة العربيّة/52.

(2) انظر: الغارات 1/75، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 2/203، الإمامة والسياسة 1/173.

(3) انظر: نهج البلاغة - الخطبة 126.

أمّا السياسة الاُمويّة فلها من الموالي موقف آخر.

« تخاصم عربي ومولى بين يدي عبد الله بن عامر، فقال المولى للعربي: لا أكثر الله فينا مثلك.

فقال العربي: بل كثّر الله فينا مثلك.

فقيل له: يدعو عليك وتدعو له؟!

وقال: نعم، يكسحون طرقنا، ويخرزون خفافنا، ويحوكون ثيابنا »(1).

وقالوا: لا يصلح للقضاء إلاّ عربي.

واستدعى معاوية بن أبي سفيان الأحنف بن قيس، وسمرة بن جندب، وقال لهما: « إنّي رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وأراها قد قطعت على السلف، وكأنّي أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً، وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق »(2).

وكان هذا الموقف العدائي من الموالي سبباً في امتهانهم وإرهاقهم بالضرائب، وفرض الجزية والخراج عليهم، وإسقاطهم من العطاء، فكان الجنود الموالي يُقاتلون من غير عطاء.

وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلاّ ثلاثة؛ حمار، أو كلب، أو مولى(3). وكانوا لا يُكنّونهم بالكُنى، ولا يدعونهم إلاّ بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يُقدّمونهم في الموكب، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم، وإن أطعموا المولى لسُنّه وفضله وعلمه أجلسوه

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ مدينة دمشق 26/10، قريب منه.

(2) انظر: تأريخ مدينة دمشق 24/320، قريب منه.

(3) انظر: العقد الفريد 2/270، طبعة مصر سنة 1935 م، تأريخ التمدن الإسلامي 4/341.

على طريق الخبّاز؛ لئلاّ يخفى على الناظر أنّه ليس من العرب، ولا يدعونهم يُصلّون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان غَريراً.

وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها، إنّما يخطبها إلى مواليها، فإن رضي مولاها زوّجت وإلاّ فلا. وإن زوّجها الأب أو الأخ بغير إذن مواليه فُسخ النكاح، وإن كان قد دخل بها عُدّ ذلك سفاحاً. وإذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولىً دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع، ولا السلطان يُغيّر عليه، وكان إذا لقيه راكباً وأراد أن ينزل فعل(1).

وقد سبّب هذا الموقف اللاإنساني من الموالي شقّ عصا المسلمين، وتراكم الأحقاد والعداوات بينهم، وكان سبباً في انعدام الرقابة الشعبية على الحاكمين.

\* \* \*

وقد استمر هذا الداء الوبيل ينخر في جسم الأمّة الإسلاميّة حتّى مزّقها شرّ ممزّق، وقضى على وحدتها التي أنشأها الإسلام وقذف بها في عُباب حروب طاحنة أتت على روابط الألفة والمحبّة، وزرعت بين طوائفها الإحن والبغضاء.

ولقد كانت هذه السياسة التي سنّها معاوية وحلفاؤه لتدعيم سلطانهم بتحطيم وحدة الأمّة سبباً حاسماً في تحطيمهم، وتمكين أعدائهم منهم في نهاية المطاف(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: العقد الفريد 2/260 - 261، ضحى الإسلام 1/18 - 34، التمدن الإسلامي 4/60 - 64 و91 - 96.

(2) للتوسع في موضوع القبلية انظر: أنساب الأشراف - البلاذري 1/18 - 34، تأريخ العرب - فيليب حنّى 2/350 - 352، تأريخ الشعوب الإسلاميّة - بروكلمان 1/156 - 157، الدولة العربيّة - ولهاوزن/165 - 173 و403 و414 - 415 و418 - 419، تاريخ الإسلام السياسي - حسن إبراهيم حسن 1/337 - 341، مختصر تأريخ العرب - سيد أمير علي /63 - 67 و78 و113 - 114. منه رحمه‌الله.

## التحذير باسم الدين وشلّ الروح الثوريّة

« المأخذ الدائم الذي يؤخذ على الاُمويِّين هو أنّهم كانوا اُصولاً وفروعاً أخطر أعداء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، وأنّهم اعتنقوا الإسلام في آخر ساعة مرغمين، ثمّ أفلحوا في أن يحوّلوا إلى أنفسهم ثمرة حكم الدين أوّلاً بضعف عثمان، ثمّ بحسن استخدام نتائج قتله، هذا وأصلهم يفقدهم مزية زعامة اُمّة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ومن المحن التي بُلي بها حكم الدين أنّهم أصبحوا قائمين عليه، مع أنّهم كانوا ومافتئوا مغتصبين لسلطانه، وقوّتهم في جيشهم الذي هو على قدم الاستعداد في الشام، ولكنّ قوّتهم لا يمكن أن تُصبح حقّاً »(1).

بهذه المشاعر ونظائرها واجه المسلمون الحكم الاُموي، وقد أراد معاوية أن يتغلّب على هذا الشعور العام بسلاح الدين نفسه، كما أراد التوصّل إلى تحطيم ما لأعدائه من سلطان روحي على المسلمين عن هذا الطريق أيضاً، وقد برع في الميدان كلّ البراعة، وواتته الظروف عليه فبلغ منه أقصى ما يرجو.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الدولة العربيّة/53، تأريخ الإسلام السياسي 1/278 - 279.

وقد حفظ لنا التأريخ بعض الأسماء البارزة من أعوان معاوية في هذا اللون من النشاط.

قال ابن أبي الحديد: « ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي إنّ معاوية وضع قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه‌السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه. منهم؛ أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير »(1).

وقد استعمل معاوية هؤلاء الأشخاص في سبيل إيجاد تبرير ديني لسلطان بني اُميّة، أو على الأقل لكبح الجماهير عن الثورة برادع داخلي هو الدين نفسه، يعمل مع الروادع الخارجية: التجويع، والإرهاب، والانشقاق القبلي.

هذا بالإضافة إلى مهمّة أساسية أخرى ألقاها معاوية على عاتق هؤلاء الأشخاص، وهي اختلاق « الأحاديث » التي تتضمّن الطعن في علي عليه‌السلام وأهل بيته، ونسبتها إلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ويوضّح لنا النصّ الآتي مدى اتّساع الشبكة التي كوّنها معاوية، ومدى تجاوبها مع رغباته: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة: « أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون علياً، ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته »(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة 4/61.

(2) معاوية أوّل مَنْ لعن الإمام علي عليه‌السلام على منابر المسلمين. =

فقامت الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون علياً ويبرءون منه... وكتب إلى عمّاله أن لا تقبلوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة(1).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= انظر: شواهد التنزيل 2/459، فرائد السمطين 1/155 ب31 ح117 ط بيروت، تأريخ مدينة دمشق 2/348 و443 ح851 الطبعة الثانية ح959، لسان الميزان 1/175، أنساب الأشراف 2/103 و113، أحمد بن حنبل ح72/46 ط قم، كفاية الطالب ب 62/244 و246، كنز الحقائق/82 و92 و131، المناقب - للخوارزمي/62 و187 فصل 17 ح11 فصل 9، نور الأبصار/70 و101، الصواعق المحرقة/96 و161 ولكن زعم أنّه يروي الحديث بلفظ «... قال: ومَنْ عدوّي؟ قال: مَنْ تبرّأ منك ولعنك ».

فقد سبّ أمير المؤمنين عليه‌السلام، وذلك من خلال حبّه - ابن حجر - لمعاوية بن أبي سفيان الذي سبّ علياً عليه‌السلام، ولعنه في الأقطار الإسلاميّة، وطلب التبرّي منه، وإن لم يكن ذلك فالضرب والشتم والهتك والقتل للمؤمنين. وهذا المشهور لا يحتاج إلى برهان ودليل.

انظر: خصائص الوحي المبين/131 فصل 21 الطبعة الأولى، الدر المنثور 6/89 و319 و7/305، مجمع الزوائد 9/131 و7/17، وبشارة المصطفى/163، تفسير الطبري 6/186 و12/657 ط اُخرى، وذخائر العقبى/88 و102، وروح المعاني 30/207 ط مصر، وتأريخ بغداد 7/421، الأغاني 18/39 الطبعة الأولى بيروت، والمسترشد في إمامة أمير المؤمنين/354، وينابيع المودّة/62 و74 و270 ط إسلامبول و71 و84 و361 و362 ط الحيدرية و1/196 و223 ط أسوة و2/357 و452 ط أسوة، وتذكرة الخواص/18، وفتح القدير - للشوكاني 5/477، إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار/172، جواهر العقدين 2/219، وفي الصواعق المحرقة/161 ب11 فصل1.

(1) الشيعة أنفسهم اعتزّوا بهذا الاسم؛ فالسيد الحميري يردّ على لسان مَنْ قال له: يا رافضي، في محاولة للحطّ من شأنه، فيقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ونحنُ على زعمكَ الرافضو |  | ن لأهلِ الضلالةِ والمنكرِ |

انظر: كتاب الزينة - للرازي (مخطوط)، الفصول - للسيد المرتضى 1/61.

وذُكر أنّ عمّار الدهني شهد شهادة عند ابن أبي ليلى القاضي، فقال له: قم يا عمّار فقد عرفناك، لا تُقبل شهادتك؛ لأنّك رافضي.

فقام عمّار يبكي، فقال ابن أبي ليلى: أنت رجل من أهل العلم والحديث، إن كان يسوءك أن يُقال لك: رافضي، فتبرّأ من الرفض، وأنت من إخواننا.

فقال له عمّار: ما هذا ذهبت والله إلى حيث ذهبت، ولكنّي بكيت عليك وعليّ؛ أمّا بكائي على نفسي فنسبتني إلى رتبة شريفة لستُ من أهلها. انظر: تنبيه الخواطر ونزهة النواظر - للأشتري 2/106.

وكتب إليهم: « أن انظروا مَنْ قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه، والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم، وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا إليّ بكلّ ما يروي كلّ رجل منهم، واسمه، واسم أبيه، وعشيرته »(1).

ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه؛ لِما كان يبعثه معاوية إليهم من الصلات، والكساء، والحباء، والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثُر ذلك في كلّ مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كتب اسمه وقرّبه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً.

« ثمّ كتب إلى عمّاله أنّ الحديث في عثمان قد كثُر، وفشا في كلّ مصر، وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة؛ فإنّ هذا أحبّ إليّ، وأقرّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته »(2).

فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 11/44، فجر الإسلام - لأحمد أمين/275.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 11/45، فجر الإسلام - لأحمد أمين/276.

رواية ما يجري هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وأُلقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموا بناتهم ونساءهم وخدمهم [وحشمهم].

فلبثوا بذلك ما شاء الله، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القُرّاء المراؤون، والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث؛ ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويُقربوا مجالسهم، ويُصيبوا به الأموال والضياع والمنازل... فلم يزل الأمر كذلك حتّى مات الحسن بن علي عليه‌السلام فازداد البلاء والفتنة(1).

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه - وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: « إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني اُميّة؛ تقرّباً إليهم بما يظنّون أنّهم يرغمون به أنوف بني هاشم »(2).

وقد تجلّى « سخاء » معاوية في هذا الميدان بوضوح؛ فها هو ذا يبذل (للصحابي) سمرة بن جندب أربعمئة ألف درهم على أن يروي أنّ هذه الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ \* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة 11/45 - 46.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة 11/46.

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ)(1)، قد نزلت في علي بن أبي طالب، وأنّ الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)(2)، فروى ذلك(3).

وأمّا أبو هريرة فقد كافأه بولاية المدينة؛ لأنّه روى عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله في شأن علي عليه‌السلام وبني اُميّة ما يلائم ذوق معاوية وأهدافه السياسيّة(4).

وممّا يتصل بهذا ما تكشف عنه بعض النصوص أنّ من ملامح سياسة معاوية وجهازه إلغاء الرموز ذات المحتوى التأريخي الذي يعبّر عن قيمة دينية معينة ذات أثر اجتماعي، وذلك بما يعكسه الرمز ويثيره في الأذهان من صور تأريخيّة تتّصل بحياة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، وبالكفاح من أجل انتصار الإسلام.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) سورة البقرة/204 - 205.

(2) سورة البقرة/207.

(3) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 1/789 الطبعة الحديثة بيروت و4/73. قال طه حسين: « لو ردّت إلى المسلمين أمورهم، وطلب إليهم أن يختاروا إماماً لما اختاروا معاوية بحال من الأحوال؛ لأنّهم بلوا سياسته، وحبروا عمّاله، فرأوا أنّ أمورهم تصير إلى شرّ عظيم... فهم يحكمون بالخوف لا بالرضا، ويُساسون بالرعب والرهب لا بما ينبغي أن يُساس به المسلمون من كتاب الله وسنّة نبيّه.

وأموالهم العامّة ليست لهم بل إلى ملكهم وولاتهم، يتصرّفون فيها ما يشتهون، لا على ما يقتضيه الحقّ والعدل والمعروف... ودماؤهم ليست حراماً على الملك وعمّاله، وإنّما يستحلّ منها الملك والعمّال ما حرم الله... لا إقامة لحدود الدين، ولكن تثبيتاً لسلطان الملك ». انظر: الفتنة الكبرى - 2 - علي وبنوه - للدكتور طه حسين/131 - 132.

(4) انظر: شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 4/67 و69 و 73.

من هذه السياسة ما يكشف عنه النصّ الذي يتضمّن أنّ معاوية وعمرو بن العاص أرادا أن يختبرا إمكانية إلغاء اسم « الأنصار » الذي اشتهر به الأوس والخزرج منذ عهد الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، وورد في القرآن الكريم اسماً لمسلمي المدينة كما كان اسم « المهاجرين » لمسلمي مكة قبل الهجرة(1).

ولا بدّ أنّ هدف هذه المحاولة هو تجريد الأنصار من القوّة المعنوية التي يسبغها هذا اللقب عليهم. قال عمرو لمعاوية: « ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد القوم إلى أنسابهم. فقال معاوية: إنّي أخاف من ذلك الشَّنعة. فقال: هي كلمة تقولها، إن مضت عضّتهم ونقّصتهم ». ولكنّ الأنصار انتبهوا للمحاولة، فردّوها بحزم(2).

وقد خلقت لنا هذه المدرسة - مدرسة معاوية في الرواية والحديث - ألواناً من الأحاديث النبويّة، منها ما يرجع إلى القدح في علي وآل بيته عليهم‌السلام، وقد استفرغ معاوية غاية وسعه في هذا الميدان الذي قدّمنا لك آنفاً تعريفاً بأسلوب معاوية في خوضه(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ورد لقب الأنصار في القرآن الكريم مرتين مقروناً بالمهاجرين في آيتين من سورة التوبة، تضمّنتا مدح الله تعالى لهم وثناءه عليهم: ( وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ) الآية 100، و ( لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ) الآية 117. منه رحمه‌الله.

(2) انظر: الأغاني 16/42 - 43 و48، طبعة دار الكتب.

(3) ويظهر أنّ هذا الاتجاه اعتُبر سياسة ثابتة في مهمات الدولة الثقافية، فنجد أنّ هشام بن عبد الملك =

ومنها ما يرجع إلى تمجيد بني اُميّة - وعلى الأخص عثمان ومعاوية - ويجعلهم في مرتبة القدّيسين، كهذا الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: إنّ الله ائتمن على وحيه ثلاثاً؛ أنا، وجبرئيل، ومعاوية(1).

وأنّ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله ناول معاوية سهماً، فقال له: خذ هذا حتّى تلقاني في الجنّة(2)، وأنا مدينة العلم، وعلي بابها، ومعاوية حلقتها(3)، وتلقون من بعدي اختلافاً وفتنة، فقال له قائل من الناس: فمَنْ لنا يا رسول الله؟ قال: عليكم بالأمين وأصحابه، يشير بذلك إلى عثمان(4).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= طلب من ابن شهاب الزهري أن يقول في قوله تعالى: ( وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) النور/11، أي الذي تولّى كبره هو علي بن أبي طالب، فأبى وقال: هو عبد الله بن أبي سلول. وعندما طلب خالد من عبد الله القسري - والي العراق في عهد هشام بن عبد الملك - من ابن شهاب الزهري أن يكتب سيرة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، يقول ابن شهاب: « فقلت له: فإنّه يمرّ بي الشيء من سيرة علي بن أبي طالب فأذكره؟ »، ولكنّ خالداً القسري رفض أن يأذن لابن شهاب في ذكر علي عليه‌السلام إلاّ إذا كان ذكره يتضمّن قدحاً وذمّاً.

انظر: ضحى الإسلام (الطبعة الخامسة) 2/326، نقله عن الأغاني 19/59. منه رحمه‌الله.

(1) انظر: تأريخ مدينة دمشق 59/74، البداية والنهاية 8/120.

(2) انظر: تحف العقول/194.

(3) انظر: كشف الخفاء 1/236.

(4) انظر: مسند أحمد 2/345، البداية والنهاية 6/230، كنز العمّال 13/42، تأريخ مدينة دمشق 29/267، بغية الباحث/294، ولا نريد التعليق على هذه الرواية الموضوعة سنداً ومتناً؛ لأنّه من غير المعقول أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يوصي بأصحاب عثمان بن عفّان وهو يعلم سيرة مروان بن الحكم وأمثاله! بل نترك للقارئ المنصف أن يحكم بنفسه على مثل هذه الموضوعات.

ومنها ما يُحذّر المسلمين من الثورة، ويزيّن لهم الرضوخ، ويوهمهم أنّ الثورة على الظلم، والسعي نحو إقامة نظام عادل عمل مخالف للدين. وبديهي أنّ شيئاً من ذلك لم يصدر عن الله ولا عن رسوله.

ومن هذه الأحاديث ما عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: إنّكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها. قالوا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدّوا إليهم حقّهم، وسلوا الله حقّكم(1). و « مَنْ رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه؛ فإنّ مَنْ فارق الجماعة شبراً فمات إلاّ ميتة جاهليّة »(2)، و « ستكون هنات وهنات، فمَنْ أراد أن يفرّق أمر هذه الأمّة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائناً ما كان »(3).

وحدّث العجّاج(4) قال: قال لي أبو هريرة: مَنْ أنت؟ قال: قالت: من أهل العراق. قال: يوشك أن يأتيك بقعان أهل الشام فيأخذوا صدقتك، فإذا أتوك فتلقّهم بها، فإذا دخلوها فكن في أقاصيها، وخلّ عنهم وعنها. وإيّاك

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: صحيح البخاري 2/837 ح2247، سنن الترمذي 4/482 ح2189، سنن البيهقي الكبرى 8/159.

(2) انظر: صحيح مسلم 3/1447 ح1849، صحيح البخاري 6/2588 ح6646، سنن الدارمي 2/314 ح2519، مسند أحمد 1/275 ح2487.

(3) نجد هذه النصوص وغيرها في البخاري وغيره من كتب الحديث. انظر: صحيح مسلم 3/1479 ح1852، صحيح ابن حبّان 10/255 ح4406، المستدرك على الصحيحين 2/169 ح2665.

(4) هو رؤبة بن العجّاج الباهلي.

أن تسبّهم؛ فإنّك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك، وإن صبرت جاءتك في ميزانك يوم القيامة(1). وما شاكل هذا من الأحاديث التي تدعو المسلمين إلى الخضوع لأمرائهم الظالمين، وتحرّم عليهم الثورة على هؤلاء الأمراء طلباً لحقّهم.

إنّ هذه الأحاديث تدعو إلى الصبر على الظلم والجوع والإرهاب؛ لأنّ استنكار ذلك مخالف للدين.

وينطلق المأجورون من الوعّاظ والمحدّثين فينفثون هذه السموم في قلوب الجماهير المسلمة وعقولها، وبذلك يلجمونها عن التذمّر والثورة بلجام ينسبونه إلى الدين والدين منه بريء، يقعدون بها عن الاحتجاج على سياسة العسف والظلم، ويحجزونها عن محاولة تحسين حياتها.

\* \* \*

هذا لون من ألوان التضليل الديني الذي ابتدعه الاُمويّون لتثبيت ملكهم. وهنا لون آخر من ألوان التضليل الديني استخدموه وبرعوا في استخدامه، وهو تأسيس الفرق الدينية السياسيّة التي تُقدّم للجماهير تفسيرات دينية تخدم سلطة الاُمويِّين وتبرّر أعمالهم.

ومن الأمثلة البارزة في هذا الميدان فرقة المرجئة، فقد كان الاُمويّون يواجهون الشيعة الذين يعتبرون بني اُميّة قتلة غاصبين لتراث النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، والخوراج الذين يرونهم كفرة تجب الثورة عليهم وإزاحتهم عن الحكم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: عيون الأخبار 1/7، الشعر والشعراء - لابن قتيبة/572، شيخ المضيرة أبو هريرة/234، غريب الحديث 4/206، الفائق في الحديث 1/106.

وكان كلّ واحد من هذين الفريقين يُقدّم بين يدي دعواه حججاً لا يملك الاُمويّون ما يُقابلها؛ لذلك أنشؤوا فرقة المرجئة التي قدّمت أدلّة مقابلة لأدلّة الشيعة والخوارج، ووقفت ضدّهم في ميدان النضال السياسي الديني.

ويحدّثنا ابن أبي الحديد أنّ معاوية كان يتظاهر بالجبر والإرجاء، وأنّ المعتزلة كفّروه لذلك(1). لقد اعتبروا المرجئة الإيمان عملاً قلبياً خالصاً لا يحتاج إلى التعبير عنه بفعل من الأفعال، فيكفي الإنسان أن يكون مؤمناً بقلبه ليعصمه الإسلام، ويحرم الاعتداء عليه، وهم ينادون: « لا تضرّ مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ».

وقالوا: « إنّ الإيمان الاعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان، ولزم اليهودية، والنصرانية في دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عزّ وجلّ ولي لله عزّ وجلّ، من أهل الجنّة »(2). والنتيجة المنطقية لهذا اللون من التفكير هي أنّ الاُمويِّين مؤمنون مهما ارتكبوا من الكبائر(3).

ومن نتائج ذلك أنّ المرجئة لا يوافقون الخوارج والشيعة شرعية لا يجوز الخروج عليها، ولم يسلّم المرجئة بأنّ انصراف خلفاء بني اُميّة عن تطبيق أحكام الشريعة كافٍ لحرمانهم من حقوقهم كأولياء الأمر في

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة 1/340.

(2) انظر: الفصل في الملل والنحل 4/204.

(3) انظر: تأريخ العرب - فيليب حتّي 2/316.

الإسلام(1).

وقد كان المرجئة يبشّرون بهذه الأفكار بين صفوف الأمّة المسلمة؛ لأجل تخديرها وصرفها عن الاستجابة لدعاة الثورة على الاُمويِّين.

وبينما نجد الاُمويِّين يضطهدون كلّ دعوة دينية لا تلائمهم نراهم بالنسبة إلى المرجئة على العكس من ذلك فهم يحتضنون هذه الفرقة ويعطفون على قادتها، وما ذلك إلاّ لأنّ معاوية سيّدهم هو واضع أسسها، وقد عرفت آنفاً إنّه كان يقول بالجبر والإرجاء.

من البيّن أنّ هذا الموقف الذي اتّخذه المرجئة من الاُمويِّين يتعارض تعارضاً مطلقاً مع إدراك اُولئك الذين يؤيّدون مطالب العلويين. ويصوّر لنا هذان البيتان من الهجاء نظرة الشيعة إلى المرجئة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا ما الـمُرجيّ سرّك أن تراه |  | يموتُ بدائهِ من قبلِ موتهْ |
| فجدّد عندهُ ذكرى عليٍّ |  | وصلِّ على النبي وآلِ بيتهْ(2) |

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) لمّا استخلف يزيد بن عبد الملك بن مروان قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز. فمكث كذلك أربعين ليلة، فأتى بأربعين شيخاً فشهدوا له أنّه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب.

انظر: ابن كثير/232.

« وإنّ قوماً من المرجئة على رأسهم رجل يُقال له: أبو رُوّية، انضموا إلى يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة في ثورته على يزيد بن عبد الملك بن مروان، ولمّا جاء مسلمة بن عبد الملك لقمع الثورة، وحرّض يزيد بن المهلّب الناس على القتال، قال ابن رُوّية: إنّا قد دعوناهم إلى كتاب الله، وسنّة نبيّه، وقد زعموا أنّهم قبلوا، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر، ولا نريدهم بسوء.

فقال لهم يزيد بن المهلّب: ويحكم! أتصدّقون بني اُميّة؟! إنّهم أرادوا أن يجيبوكم ليكفّوكم منهم حتّى يعملوا في المنكر.

قالوا: لا نرى أن نفعل ذلك حتّى يردّوا علينا ما زعموا أنّهم قبلوه منّا » منه رحمه‌الله. انظر: تأريخ الطبري 6/593.

(2) لاحظ في هذا الموضوع، فجر الإسلام - أحمد أمين/279 - 282 و291 - 294، ضحى الإسلام 3/316 - 329، العقيدة والشريعة في الإسلام - إجناس جولد تسهر/75 - 77 و295 هامش رقم 20، ونسب إلى المأمون هذان البيتان كما جاء في مروج الذهب 3/329.

وإلى جانب ما تقدّم أعتمد الاُمويّون أسلوباً آخر من أساليب التضليل الديني لدعم حكمهم وصرف الناس عن الثورة عليهم؛ فقد واجه الاُمويّون خطراً ساحقاً عليهم من عقيدة القدرية القائلين بحرية الإرادة والاختيار، وإنّ الإنسان هو الذي يختار نوع السلوك والعمل الذي يمارسه في حياته، وإذا كان حرّاً فهو مسؤول عن أفعاله؛ لأنّ كلّ حرية تستتبع حتماً المسؤولية.

هذه العقيدة كانت خطراً على الاُمويِّين الذي يفرّقون من رقابة الاُمّة عليهم وعلى تصرّفاتهم؛ ولذلك فقد اضطهدوا هذه العقيدة ودعاتها وتمسّكوا بالعقيدة المضّادة لها (عقيدة الجبر)(1). فهذه هي العقيدة التي تلائمهم في الميدان السياسي؛ لأنّها توحي إلى الناس بأنّ وجود الاُمويِّين وتصرّفاتهم مهما كانت شاذّة وظالمة ليست سوى قدر مرسوم من الله لا يمكن تغييره ولا تبديله، فلا جدوى من الثورة عليه.

وها هو معاوية يتظاهر بالجبر والإرجاء كما قدّمنا؛ لأجل تبرير أفعاله أمام الملأ بأنّها مقدورة لا سبيل إلى تبديلها، مع كونها في الوقت نفسه غير قادحة فيه باعتباره حاكماً دينياً.

ولا بدّ أنّه قد عهد بإذاعة أفكاره الخاصّة حول هاتين العقيدتين - الجبر والإرجاء - بين المسلمين إلى ولاته وأجهزة الدعاية عنده، ومنها القصّاص.

قال الليث بن سعد:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: النظم الإسلاميّة موريس غودفردا/39. « في الخلاف الذي قام حول الجبرية ساند الخلفاء الاُمويّون فكرة إنكار الإرادة في أفعال الإنسان ».

« وأمّا قصص الخاصّة فهو الذي أوجده معاوية، ولّى رجلاً على القصص فإذا سلّم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عزّ وجلّ، وحمده ومجّده، وصلى على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، ودعا للخليفة ولأهل بيته، وحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه، وعلى المشركين كافّة »(1).

وأمر رجلاً يقصّ بعد الصبح، وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام(2)، ولا بدّ أنّ هذا الدعاء كان استهلالاً يبتدئ به القاصّ، ثمّ يأخذ بعده في قصصه.

ومثل معاوية لا يجعل الفوائد الجليلة التي يمكن أن تُقدّمها له عقيدة الجبر، فهو - وسائر الاُمويِّين - كانوا يعلمون أنّ أُسرتهم غير مُحتلمة من المسلمين، ويعلمون أنّهم في نظر كثير من رعاياهم مُختلسون. وصلوا إلى السلطة بوسائل قهريّة شديدة، وأنّهم أعداء لآل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، وقتلة لأشخاص مُقدّسين لا ذنب لهم، وإن كان ثمّة عقيدة تمسك الناس عن أن يثوروا عليهم وعلى ولاتهم لكانت عقيدة الجبر، هذه العقيدة التي توحي إلى الناس بأنّ الله قد حكم منذ الأزل أن تصل هذه الأسرة إلى الحكم، فأعمالهم وتصرّفاتهم ليست إلاّ نتيجة لقدر إلهي محكم، من أجل ذلك كان حسناً جدّاً لهم ولدولتهم أن تتأصّل هذه الأفكار في أذهان الاُمّة(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: فجر الإسلام/159.

(2) انظر: فجر الإسلام/160.

(3) انظر: فجر الإسلام 3/81، يقول الدكتور أحمد أمين: «... وبنو اُميّة - كما يظهر - كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة، لا دينياً فقط، ولكن سياسياً كذلك؛ لأنّ الجبر يخدم سياستهم. فالنتيجة للجبر أنّ الله الذي يُسيّر الاُمور قد فرض على الناس بني اُميّة كما فرض كلّ شيء، ودولتهم بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع للقضاء والقدر ». منه رحمه‌الله.

وقد استغل الشعر إلى جانب النصوص الدينية في سبيل تعزيز هذه الأفكار، فقد كان معاوية - كما يقول بروكلمان - قادراً على أن يفيد ممّا لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام بسبيل مصالحه العائلية(1).

فكان معاوية - وملوك بني اُميّة من بعده - يسعون راضين شعراءهم بل ويحملون هؤلاء الشعراء على أن يقولوا الشعر الذي يُمجّدونهم فيه بنعوت تجعل سلطانهم وسيادتهم قدراً مقدوراً من الله، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يثور المؤمن ضدّهم.

فمعاوية عند الأخطل ليس ملكاً كما وصف نفسه في ساعة من ساعات سهوه، بل خليفة الله، والظفر الذي حازه ليس ناشئاً من أسبابه الطبيعية وإنّما هو من صنع الله(2):

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إلى امرئ لا تعدينا نوافلُه |  | أظفرهُ اللهُ فليهنأ لهُ الظفرُ |
| الخائضُ الغمرَ والميمونُ طائرُه |  | خليفةُ اللهِ يُستسقى بهِ المطرُ |

ولم يُفضل الاُمويّون غيرهم - عند الأخطل - بماضيهم المجيد في الجاهليّة ولا بسخائهم، ولا بنجدتهم وشجاعتهم، وإنّما فضّلهم الله. ولم يكن رفع المصاحف في صفّين خدعة تفتّق عنها ذهن ابن العاص، وإنّما هو إلهام من الله. وأخيراً فالله هو الذي مكّنهم من الثأر لعثمان حين أوصلهم إلى سدّة الحكم:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تمّت جدودُهمُ واللهُ فضّلهمْ |  | وجدُّ قومٍ سواهم خاملٌ نكدُ |
| همُ الذينَ أجابَ اللهُ دعوتهمْ |  | لما تلاقت نواصي الخيلِ واجتلدوا |

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الشعوب الإسلاميّة 1/148.

(2) انظر: لسان العرب 4/138.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ويوم صفّين والأبصارُ خاشعةٌ |  | أمدّهم إذ دُعوا من ربّهم مددُ |
| على الاُلى قتلوا عثمانَ مظلمةً |  | لم ينههم نشدٌ عنهُ وقد نُشدوا |

والأخطل كسائر شعراء عصره ذو روح جاهليّة تعرف الفضل بالنسب وما إليه من عنعنات الجاهليّين، لا بالله، وتعرف النصر بالشجاعة والقوّة والكثرة والدهاء، لا بالله.

فهذا النفس الديني الذي يشبه أن يكون صوفيّاً؛ لكثرة ذكر الله فيه ليس من طبيعة الأخطل، وإنّما هو موحى به من ممدوحه، أو من هؤلاء الذين بثّهم معاوية لصوغ أفكاره الخاصّة بما يشيع بين العامّة؛ سواء كان ذلك بالرواية عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله أو بالشعر.

ومسكين الدارمي يقول في شأن عقد ولاية العهد ليزيد:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألا ليتَ شعري ما يقولُ ابنُ عامرٍ |  | ومروانُ أم ماذا يقولُ سعيدُ |
| بني خلفاءِ اللهِ مهلاً فإنّما |  | يبوّئها الرحمانُ حيثُ يريدُ |
| إذا المنبرُ الغربي خلاه ربُّه |  | فإنّ أميرَ المؤمنينَ يزيدُ(1) |

وكما أنّ مذهب الجبر استُخدم لتبرير حال الأسرة الاُمويّة على العموم، فقد استخدم أيضاً في تهدئة الشعب حين كان يُبتلى، أو يُغرى بأن يرى في أعمال الحكّام والعمّال الظلم والطغيان(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الشعر السياسي/241، الأغاني 8/71.

(2) انظر: ضحى الإسلام 3/81 - 82، العقيدة والشريعة في الإسلام/85 - 87.

آثار سياسة معاوية في المجتمع الإسلامي

لقد رأينا أنّ سياسة الاضطهاد والتجويع خنقت نزعة الحرية في النفوس، وحملت الجماهير على أن ترضى بحياة ذليلة مُضطهدة؛ خشية أن تصير إلى لون من الحياة أقسى وأنكد. ورأينا أنّ الروح القبلية حوّلت الإنسان المسلم عن أهدافه العظيمة التي وجّهه إليها الإسلام، وشغلته بأهداف أخرى تتّصل بأفقه القبلي الضيّق وصنمه القبلي الجديد.

فهنا عامل نفسي وهو الخوف، وعامل اجتماعي وهو الوضع القبلي كانا يُقعدان بالإنسان المسلم عن الثورة، ويحملانه على تقبّل حياته على ما فيها من نكد وقسوة وحرمان، ولكنّهما ما كانا ليحملا الرضى الباطني لروحه القلقة المعذّبة، فقد كان يشعر بالإثم لسكوته عن الحكم الأموي، وقد كان يشعر بالإثم؛ لقعوده عن محاولة تطهير المجتمع من المنكرات التي يراها، وقد كان هذا الشعور بالإثم كفيلاً بأن يدفعه في النهاية إلى التغلّب على الخوف في نفسه وإلى تحطيم النطاق القبلي الذي يغلّه.

ولكن هذا الركن الثالث من أركان السياسة الاُمويّة - أعني التضليل الديني - تكفّل بإيجاد تبرير ديني للوضع الاجتماعي الشاذّ الذي كان عليه المجتمع

الإسلامي، واُريد منه حمل الجماهير المسلمة على السكوت عن النقد، والقعود عن محاولة تغيير الوضع إلى مستوى أحسن، وبذلك يختفي الشعور بالإثم من الضمير الجماهيري، هذا الشعور الذي يدفع إلى الثورة حين يبلغ درجة ضغط عالية، وعندما يضمحلّ الشعور بالإثم يستقر المجتمع نهائياً.

فهناك عامل نفسي وديني يدفعه إلى الخضوع، وهناك عامل اجتماعي يجعله حتميّاً، وحينئذ يطمئن الحاكمون إلى أنّ تصرّفاتهم لن تثير أيّ استنكار لدى الجماهير.

كان هذا هو الوضع النفسي لهؤلاء الذين أخذوا بأساليب الاُمويِّين في التحذير الديني، وأمّا اُولئك الذين لم يُؤخذوا بهذا اللون من الدعاية، ولم تنطلِ عليهم أحابيل الاُمويِّين وأكاذيبهم فقد كان لهم وضع آخر لا يقلّ إثارة للأسى عن هذا الوضع.

لقد صار الأمر بهؤلاء الآخرين إلى ازدواج الشخصيّة؛ فقد عملت سياسة معاوية المالية، وأسلوبه الوحشي في التنكيل بأعدائه العزّل من السلاح، وتعليم الناس على الدجل والنفاق، والسكوت عن الحقّ، والتظاهر بخلاف ما يعتقدون توصّلاً إلى دنيا معاوية، وتمسّكاً بروحهم القبلية التي تفرض عليهم أن يتبعوا ساداتهم القبليين دون تروّ أو تفكير.

وهذا الوضع الشاذّ - الوضع الذي يفرض عليهم أن يخفوا دوماً ما يعتقدونه حقّاً واقعاً، وأن يتظاهروا بما تريده السلطة منهم - ولّد عندهم ازدواج الشخصيّة، هذا الازدواج الذي يرجع إليه سرّ المأساة الدامية الطويلة الأمد التي عاشها الثائرون على حكّام الجور من الاُمويِّين والعباسيين، ومَنْ تلاهم من الظالمين، هذا الازدواج الذي كان يعمل عمله في فضّ أعوان الثورة عنها بتأثير الشخصيّة الخارجيّة المُنسجمة الأخرى، الشخصيّة التي تُطاردها السلطة وتُحاربها.

هذا الازدواج الذي صوّره الفرزدق

للحسين عليه‌السلام حين لقيه في بعض الطريق، فسأله عن أهل الكوفة: « قلوبهم معك وسيوفهم عليك »(1).

\* \* \*

ولقد كانت هذه السياسة خليقة بأن تنتهي بالمجتمع الإسلامي إلى حالة تعسة من الذلّ والخنوع، ومن تفاهة الحياة، وأهداف تلك الحياة.

لقد كانت خليقة بأن تحوّل المسلم من إنسان يستبدّ به القلق لمصير الإنسانيّة كلّها، ويُعبّر عن هذا القلق بالاهتمام المباشر والعمل الإيجابي المؤدّي إلى التخفيف من ويلات الإنسان في كلّ مكان إلى إنسان قبلي ضيّق الأفق، يعيش داخل نطاق قوقعته القبلية التي كانت قبل الإسلام تغل الإنسان العربي داخل إطارها فتعوق شخصيّته عن النمو والامتداد خارج حدود كيانه القبلي، والتي عادت في عهد معاوية تعمل عملها المُدمّر مرّة اُخرى.

ولقد كانت خليقة بأن تُحوّل من إنسان عقائدي تسير حياته على خطّ مستقيم - خطّ النضال من أجل العقيدة التي يحرّر بها غيره من الناس، ويردّ إليهم اعتبارهم الإنساني المسلوب - إلى إنسان لا ترتكز حياته على عقيدة، ولا يحفزه مطمح عظيم، إنسان تستبدّ به النزوات الطارئة، والمنافع القريبة، وتجعله تارة هنا وتارة هناك.

ولقد كانت خليقة بأن تحوّله من إنسان يعي وعياً عميقاً أنّ حياته الشخصيّة ليست ملكاً له بقدر ما هي ملك للجماعة الإنسانيّة، فإذا تعرضت الجماعة لتحدٍّ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/290 و6/218 و3/296 طبعة اُخرى، الكامل في التاريخ - لابن الأثير 4/16 و2/547، الفتوح - لابن أعثم 3/79، مقتل الحسين للخوارزمي 1/223.

يهددها بذل حياته مغتبطاً في نضال هذا التحدّي إلى إنسان يحرص على هذه حرصاً شديداً مهما كانت ملفّعة بالذلّ، ومجلّلة بالعار، ومهما كانت مزيّفة وناصلة.

ولقد كانت خليقة بأن تحوّله من إنسان يحارب الظلم ويناجزه، ويثور عليه أيّاً كان مصدره - فيكره الظلم من نفسه ويحملها على العدل، ويكره الظلم من غيره، ويحمله على العدل - إلى إنسان يُكافح من أجل أن يكون ظالماً إذا لم تقهره قوّة على أن يكون مظلوماً.

وكانت خليقة بأن تحوّله من إنسان يفهم أنّ الدين لا يجعل من المؤمنين به عبيد الطاغية يحكمهم باسم الدين إلى إنسان يؤيّد الطّغاة الحاكمين. وكانت خليقة بأن تحوّله من إنسان يرى أنّ الثورة على سياسة التجويع والإرهاب حقّ إلى إنسان يُحارب الثائرين.

وتأريخ هذه الفترة من حياة المسلمين حافل بالشواهد على أنّ هذا التحوّل كان قد بدأ يظهر للعيان، ويطبع المجتمع الإسلامي بطابعه، ويمكننا أن نخرج بفكرة واضحة عن أثر هذه السياسة في المجتمع الإسلامي حين نُقارن بين ردّ الفعل الذي واجه به المسلمون سياسة عثمان وعمّاله، وبين موقفهم من سياسة معاوية؛ فقد كان ردّ الفعل لسياسة عثمان وعمّاله ثورة عارمة من معظم أقطار الأمّة المسلمة من المدينة ومكة، والكوفة والبصرة ومصر وغيرها من حواضر المسلمين وبواديهم.

فهل نجد ردّ فعل جماعيّاً كهذا لتحدّيات معاوية في سياسته اللإنسانيّة للجماهير المسلمة، مع ملاحظة أنّ الظلم على عهد معاوية أفدح، والاضطهاد والقتل والإرهاب أعمّ وأشمل، وحرمان الأمّة من حقوقها في ثرواتها وإنتاجها أظهر؟

الحقّ إنّنا لا نجد شيئاً من ذلك أبداً؛ لقد كانت الجماهير خاضعة خضوعاً أعمى.

نعم، كانت ثمّة احتجاجات تنبعث من هنا تارة ومن هناك أخرى، تدلّ على أنّ المجتمع يتململ تحت وطأة الاضطهاد والظلم، كتلك التي عبّر عنها موقف حجر بن عدي، وعمرو بن الحمق الخزاعي وأضرابهما(1)، ولكنّها لم تأخذ مداها، ولم تُعبّر عن نفسها في حركة فعلية عامّة بل كانت سرعان ما تهمد وتموت في مهدها حين كانت السلطة تأخذ طلائع هذه الحركات فيُقتلون دون أن يُحرك المجتمع ساكناً، وإذا حدث وتحرّك إنسان اشتُري سكوته بالمال(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الكامل في التاريخ 3/233 - 243 وغيره.

(2) كما حدث من مالك بن هبيرة السكوني الذي بدا وكأنّه سيثور بسبب قتل حجر وأصحابه؛ فقد أرسل إليه معاوية مئة ألف درهم « فأخذها وطابت نفسه ». انظر: الكامل في التاريخ 3/242.

## موقف الحسن والحسين عليهما‌السلام من السياسة الاُمويّة

ومُنذ بدأ الحكّام المسلمون يناوئون الننزعة الإنسانيّة في الإسلام، ليحوّلوه إلى مؤسسة تخدم مآرب فئة خاصة، بدأ علي وأبناؤه عليهم‌السلام وأصحابهم يدافعون عن الإسلام، ويردّون عنه شرّ مَنْ يريد تحريفه وتزويره.

كان هذا هو عمل علي عليه‌السلام طيلة حياته، حتّى إذا استشهد خلفه في الصراع ابنه الحسن، وقضت عليه ظروف المجتمع الإسلامي؛ الاجتماعيّة والنفسية أن يُهيئ هذا المجتمع للثورة على الحكم الأموي حتّى استشهد.

وبقي الحسين وحيداً، وقد عاصر الحركة التي بدأها أعداء الإسلام، الدخلاء فيه، والمستورون والحاقدون، وطلاّب المنافع العاجلة في حربهم ضدّ الإسلام وضدّ مبادئه الإنسانيّة. عاصر هذه الحركة منذ نشوئها؛ عاصرها حيناً مع أبيه وأخيه عليهما‌السلام، والصفوة من الأصحاب، وعاصرها حيناً آخر مع أخيه، وبقية السيف الاُموي من الأصحاب(\*).

وها هو ذا الآن يقف وحيداً في ساحة الصراع، إنّه يقف وحيداً ضدّ معاوية وجهاز حكمه الإرهابي، ويرى بعينيه كيف يُراد للأمّة المسلمة أن تتحوّل عن الأهداف العظيمة التي كوّنت لأجلها، وكيف تُزيّف حياتها، وكيف يُراد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(\*) هكذا وردت العبارة الأخيرة في الأصل، ولعل هناك سقطاً أو خطأً ما أربكها وجعلها بهذا الشكل الغامض. (موقع معهد الإمامين الحسنين)

لوجودها أن يضمر ويضيق لينحصر في لقمة العيش، وفي حفنة من الدراهم يبيع المسلم بها حياته وضميره، وحريته وكرامته الإنسانيّة للحاكمين الظالمين.

وقد رأى منهج معاوية وبطانته الذي اعتمدوه للوصول بالأمّة المسلمة إلى هذا المصير الكالح. رأى كيف يُطارد الناس، ويجوعون ويُضطهدون، ويُنكّل بهم؛ لأنّهم يخالفون السلطة في الهوى السياسي، ورأى كيف يُحرّف الإسلام وتزور مبادئه الإنسانيّة في سبيل المآرب السياسيّة، ورأى حملة التخدير الديني والكذب على الله ورسوله، ورصد عن كثب محاولة إفساد المجتمع بتشجيع الروح القبلية والنزعة العنصرية.

ولقد أراد الاُمويّون من الحسين عليه‌السلام أن يخضع لهم؛ لأنّ خضوعه يؤمن لهم انقياد الأمّة المسلمة كلّها، ويمكّنهم من ممارسة سياستهم دون خشية. أراد ذلك معاوية بن أبي سفيان حين عزم على أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد من بعده، وتوسّل إلى ذلك بالشدّة حيناً، وباللين حيناً آخر فما نال بغيته(1).

وأراد ذلك يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه، ولكنّ الحسين عليه‌السلام أبى أن يخضع؛ لأنّه كان يعي أعمق الوعي دوره التأريخي الذي يفرض عليه أن يثور؛ لتهزّ ثورته ضمير الأمّة التي اعتادت الانحناء أمام جبروت السلطة الحاكمة. اعتادت ذلك حتّى ليُخشى ألاّ يصلحها شيء. إنّ المجتمع الذي خضع طويلاً لتأثير السياسة الاُمويّة والتوجيه الأموي لا يمكن أن يصلح بالكلام؛ فهو آخر شيء يمكن أن يؤثر فيه.

إنّ الكلمة لا يمكن أن تؤثّر شيئاً في النفس الميّتة، والقلب الخائر، والضمير المخدّر. كان لا بدّ لهذا المجتمع المتخاذل من مثال يهزّه هزّاً عنيفاً، ويظلّ يواليه بإيحاءاته الملتهبة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الكامل في التاريخ 3/249 - 252.

ليقتلع الثقافة العفنة التي خدّرته، وقعدت به عن صنع مصير وضّاء.

وهذا الواقع الكالح وضع الإمام الحسين عليه‌السلام وجهاً لوجه أمام دوره التاريخي ورسالته النضالية. هذا الدور الذي يفرض عليه أن يثور، وأن يُعبّر بثورته عن شعور الملايين، وأن يهزّ بثورته هذه الملايين نفسها، ويضرب لها المثل والقدرة في حرب الظالمين.

وقد كان كلّ ذلك، وكانت ثورة الحسين عليه‌السلام.

الفصل الثاني: دوافع الثورة وأسبابها

« إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في اُمّة جدّي؛ اُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومَنْ ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يحكم الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين »(1).

الحسين بن علي عليه‌السلام

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الفتوح - لابن أعثم 5/34، مناقب آل أبي طالب 3/241.

## لماذا لم يثر الحسين عليه‌السلام في عهد معاوية

كانت مبررات الثورة على الحكم الاُموي متوفّرة في عهد معاوية، وقد كان الإمام الحسين عليه‌السلام يعرفها، وقد عبّر عنها في عدّة كُتب وجّهها إلى معاوية جواباً عن كُتبه إليه، وهي كثيرة، نقتبس منها قوله في كتاب: « وهيهات هيهات يا معاوية! فضح الصبح فحمة الدُّجى، وبهرت الشمس أنوار السراج. ولقد فضّلت حتّى أفرطت، واستأثرت حتّى أجحفت، ومنعت حتّى بخلت، وجُرت حتّى جاوزت، وما بذلت لذي حقّ من اسم حقّه بنصيب حتّى أخذ الشيطان حظّه الأوفر، ونصيبه الأكمل... »(1).

وقوله في كتاب آخر: « أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أنّه انتهت إليك عنّي اُمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير؛ فإنّ الحسنات لا يهدي إليها ولا يُسدد إليها إلاّ الله تعالى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الإمامة والسياسة 1/195، 196.

وأمّا ما ذكرت أنّه رقى إليك عنّي، فإنّما رقاه إليك الملاّقون، المشّاؤون بالنميم، المفرّقون بين الجمع. وكَذَب الغاوون، ما أرادت لك حرباً، ولا عليك خلافاً، وإنّي لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الأعذار فيه إليك، وإلى أوليائك القاسطين الملحدين؛ حزب الظلمة، وأولياء الشياطين.

ألست القاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه الصالحين المصلّين العابدين، الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم، ثمّ قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلّظة، والمواثيق المؤكّدة ألاّ تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم؛ جرأة على الله، واستخفافاً بعهده؟

أوَلست قاتل ابن الحمق صاحب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، العبد الصالح، فقتلته بعدما آمنته؟

أوَلست المدّعي زياد بن سميّة المولود على فراش عُبيد بن ثقيف، فزعمت أنّه ابن أبيك، وقد قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: الولد للفراش، وللعاهر الحجر(1). فتركت سنّة رسول

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) لسنا بصدد بيان كلّ ما قاله صلى‌الله‌عليه‌وآله فيه وفي اُسرته كالحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط وغيرهما، ونكتفي برواية الطبري من حوادث سنة (51 هـ)، والكامل - لابن الأثير/202 - 209، وابن عساكر 2/379، والشيخ محمود أبو ريّه/184 - 185 ما نقلوه عن الحسن البصري أنّه كان يقول: =

الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، وتبعت هواك بغير هُدى من الله، ثمّ سلّطته على أهل الإسلام؛ يقتّلهم، ويقطع أيديهم وأرجلهم، ويسمل عيونهم، ويصلبهم على جذوع النخل، كأنّك لست من هذه الأمّة وليسوا منك؟

أوَلست صاحب الحضرمِيين الذين كتب فيهم ابن سميّة أنّهم على دين علي (صلوات الله عليه)، فكتبت إليه أن اقتل كلّ مَنْ كان على دين علي، فقتلهم ومثّل بهم بأمرك، ودينُ علي هو دين ابن عمّه صلى‌الله‌عليه‌وآله الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك، وبه جلست مجلسك الذي أنت فيه؟

وقُلت فيما قُلت: انظر لنفسك ولدينك، ولأمّة محمد، واتّقِ شقّ عصا هذه الأمّة، وأن تردهم إلى فتنة. وإنّي لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمّة من ولايتك عليها، ولا أعلم نظراً لنفسي ولديني ولأمّة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله من أن اُجاهدك...

وقُلت فيما قُلت: إن أنكرك تنكرني، وإن أكدك تكدني.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= أربع خصال كنّ في معاوية، ولو لم يكن فيه منهنّ إلاّ واحدة لكانت موبقة؛ انتزاؤه على هذه الأمّة بالسفهاء حتّى ابتزّها أمرها بغير مشورة، وفيهم بقايا وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيراً، خمّيراً، يلبس الحرير، ويضرب الطنابير، وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله: « الولد للفراش، وللعاهر الحجر »، وقتله حجراً وأصحابه، ويل له من حجر وأصحابه! ويل له من حجر وأصحابه!

ومَنْ أراد المزيد فليراجع الطبري 4/202 و11/375، وسير أعلام النبلاء 1/237، ومسند أحمد 4/421، ووقعة صفّين - لنصر بن مزاحم/246، والمعجم الكبير - للطبراني 1/427، والعقد الفريد 4/345، والاستيعاب/412، وأُسد الغابة 3/106، وتهذيب ابن عساكر 7/206، والإصابة 2/260، والطبقات الكبري 4/222، وصفوة الصفوة 1/238، وسيرة ابن هشام 4/179.

فكد ما بدا لك؛ فإنّي أرجو ألاّ يضرّني كيدك، وأن لا يكون على أحد أضرّ منه على نفسك؛ لأنّك قد ركبت جهلك، وتحرّصت على نقض عهدك.

ولعمري ما وفيت بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان، والعهود والمواثيق، ولم تفعل ذلك إلاّ لذكرهم فضلنا، وتعظيمهم حقّنا، وليس الله بناس لأخذك بالطنّة، وقتلك أولياءه على التهم، ونفيك أولياءه من دورهم إلى دار الغربة... »(1).

ولذا، فإنّ الباحث يتساءل عن السرّ في قعود الحسين عليه‌السلام عن الثورة في عهد معاوية مع وجود مبرّرات الثورة في عهده، فلماذا لم تدفعه هذه المبرّرات إلى الثورة في أيّام معاوية، وحملته على الثورة في أيّام يزيد؟

الذي نراه في الجواب على هذا التساؤل: هو أنّ قعود الحسين عليه‌السلام عن الثورة في عهد معاوية كانت له أسباب موضوعية لا يمكن تجاهلها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

## الوضع النفسي والاجتماعي

لقد كانت حروب الجمل وصفّين والنهروان، والحروب الخاطفة التي نشبت بين القطع السورية وبين مراكز الحدود في العراق والحجاز واليمن بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الإمامة والسياسة 1/202 - 208، جمهرة الخطب 2/242، جمهرة الرسائل 2/67، مروج الذهب 3/7.

التحكيم قد ولّدت عند أصحاب الإمام عليه‌السلام حنيناً إلى السلم والموادعة؛ فقد مرّت عليهم خمس سنين وهم لا يضعون سلاحهم من حرب إلاّ ليشهروه في حرب أخرى، وكانوا لا يحاربون جماعات غريبة عنهم، وإنّما يحاربون عشائرهم وإخوانهم بالأمس، ومَنْ عرفهم وعرفوه....

وما نشكّ في أنّ هذا الشعور الذي بدأ يظهر بوضوح في آخر عهد علي عليه‌السلام إثر إحساسهم بالهزيمة أمام مراوغة خصمهم في يوم التحكيم، أفاد خصوم الإمام عليه‌السلام من زعماء القبائل ومن إليهم ممّن اكتشفوا أنّ السياسة لا يمكن أن تُلبّي مطامحهم التي تُؤججها سياسة معاوية في المال والولايات فحاولوا إذكاء هذا الشعور والتأكيد عليه.

وقد ساعد على تأثير هؤلاء الزعماء ونفوذهم في أوساط المجتمع الرّوح القبلية التي استفحلت في عهد عثمان بعد أن اُطلقت من عقالها بعد وفاة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله؛ فإنّ الإنسان ذا الرّوح القبلية عالمة قبيلته(\*)، فهو ينفعل بانفعالاتها، ويطمح إلى ما تطمح إليه، ويُعادي مَنْ تُعادي، وينظر إلى الأمور من الزاوية التي تنظر منها القبيلة؛ وذلك لأنّه يخضع للقيم القبلية التي تخضع لها القبيلة، وتتركّز مشاعر القبيلة كلّها في رئيسها، فالرئيس في المجتمع القبلي هو المُهيمن، والموجّه للقبيلة كلّها.

وقد عبّر الناس عن رغبتهم في الدّعة وكراهيتهم للقتال؛ بتثاقلهم عن الخروج لحرب الفرق السورية التي كانت تغير على الحجاز، واليمن، وحدود العراق، وتثاقلهم عن الاستجابة للإمام عليه‌السلام حين دعاهم للخروج ثانية إلى صفّين.

فلمّا استشهد الإمام علي عليه‌السلام وبويع الحسن عليه‌السلام بالخلافة برزت هذه الظاهرة على أشدّها، وبخاصّة حين دعاهم الحسن عليه‌السلام للتجهّز لحرب الشام، حيث كانت الاستجابة بطيئة جدّاً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(\*) هذه العبارة هي الاُخرى التي وردت بهذا الشكل، ولعل هناك سقطاً أو خطأً ما أربكها كما ذكرنا قبل قليل. (موقع معهد الإمامين الحسنين)

وبالرغم من أنّ الإمام الحسن عليه‌السلام قد استطاع بعد ذلك أن يجهّز لحرب معاوية جيشاً ضخماً، إلاّ إنّه كان جيشاً كُتبت عليه الهزيمة قبل أن يلاقي العدو بسبب التيارات المتعدّدة التي كانت تتجاذبه؛ فقد « خفّ معه أخلاط من الناس؛ بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكّمة - أي خوارج - يؤثرون قتال معاوية بكلّ حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكّاك وأصحاب عصبية اتّبعوا رؤساء قبائلهم »(1).

وقد كان رؤساء القبائل هؤلاء قد باعوا أنفسهم من معاوية الذي كتب إلى كثير منهم يُغريهم بالتخلّي عن الحسن عليه‌السلام والالتحاق به، وأكثر أصحاب الحسن عليه‌السلام لم يستطيعوا مقاومة هذا الإغراء، فكاتبوا معاوية واعدين بأن يسلّموه الحسن عليه‌السلام حيّاً أو ميّتاً.

وحين خطبهم الإمام الحسن عليه‌السلام ليختبر مدى إخلاصهم وثباتهم، هتفوا به من كلّ جانب: « البقيّة البقيّة »(2)، بينما هاجمته طائفة منهم تريد قتله. هذا في الوقت الذي أخذ الزعماء يتسلّلون تحت جنح الليل إلى معاوية بعشائرهم.

ولمّا رأى الإمام الحسن عليه‌السلام - أمام هذا الواقع السيِّئ - أنّ الظروف النفسية والاجتماعيّة في مجتمع العراق جعلت هذا المجتمع عاجزاً عن النهوض بتبعات القتال، وانتزاع النصر، ورأى أنّ الحرب ستكلّفه استئصال المخلصين من أتباعه بينما يتمتّع معاوية بنصر حاسم، حينئذ جنح إلى الصلح بشروطٍ منها ألاّ يعهد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الإرشاد - الشيخ المفيد 2/10.

(2) انظر: مقاتل الطالبيِّين/73، شرح النهج - لابن أبي الحديد 16/40، الكامل في التاريخ 3/204 و176 طبعة أخرى، وحماة الإسلام 1/123، المجتني - لابن دريد/36.

معاوية لأحد من بعده، وأن يكون الأمر للحسن، وأن يترك الناس ويُؤمنوا(1).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) والنتيجة: أنّ وثيقة الصلح تضمّنت خمس موارد هي:

أ - تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله، وسُنّة نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله، وسيرة الخلفاء الصالحين.

ب - ليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده، والأمر بعده للحسن عليه‌السلام، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين عليه‌السلام.

ج - أن لا يُسمّيه أمير المؤمنين، وأن يترك سبّ أمير المؤمنين عليه‌السلام، والقنوت عليه بالصلاة، وأن لا يذكر علياً إلاّ بخير، وأن لا يُقيم عنده شهادة.

د - الأمن العام لعموم الناس الأسود والأحمر منهم سواء فيه، والأمن الخاص لشيعة أمير المؤمنين عليه‌السلام، وعدم التعرّض لهم بمكروه.

هـ - استثناء ما في بيت مال الكوفة وهو خمس آلاف، فلا يشمله تسليم الأمر، وأن يُفضّل بني هاشم في العطاء، وأن يُفرّق في أولاد مَنْ قُتل مع أمير المؤمنين عليه‌السلام يوم الجمل، وأولاد مَنْ قُتل معه بصفين ألف ألف درهم، وأن يُوصل إلى كلّ ذي حقّ حقّه.

وممّا يجدر ذكره أنّ بعض المؤرّخين والباحثين أصرّ على المغالطات والمجادلات واللعب بالألفاظ، وأورد أنّ الإمام الحسن عليه‌السلام قد تنازل عن الخلافة لمعاوية بما لكلمة التنازل من المعنى الخاص.

ونحن لو رجعنا إلى التاريخ لم نجد، ولم يرد على لسان أحد ما يشعر من خطبه عليه‌السلام أنّه تنازل عن الخلافة، بل إنّ المصادر تشير إلى أنّه عليه‌السلام سلّم الأمر، أو ترك الأمر لمعاوية؛ وذلك من خلال ملاحظتنا للشروط التي ورد فيها إسقاطه إيّاه عن إمرة المؤمنين، وأنّ الحسن عليه‌السلام عاهده على أن لا يكون عليه أميراً؛ إذ الأمير هو الذي يأمر فيؤتمر له؛ ولذا أسقط الإمام الحسن عليه‌السلام الائتمار لمعاوية، إذ أمره أمراً على نفسه.

والأمير هو الذي أمّره مأمور مَنْ فوقه، فدلّ على أنّ الله عزّ وجلّ لم يؤمّره عليه، ولا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أمّره عليه؛ ولذا لا يُقيم عنده شهادة، فكيف يُقيم الشهادة عند مَنْ أزال عنه الحكم؟ لأنّ الأمير هو الحاكم، وهو المُقيم للحاكم، ومَنْ ليس له تأمير، ولا تحاكم فحكمه هدر، ولا تُقام الشهادة عند مَنْ حكمه هدر.

انظر: تاريخ الخلفاء/194، البداية والنهاية - لابن كثير 8/41، الإصابة 2/12 و13، ابن قتيبة في المعارف/150، مقاتل الطالبيِّين/75، الإمامة والسياسة/200، الطبري في تاريخه 6/92، الطبقات الكبرى - للشعراني/23، ابن أبي الحديد في شرح النهج 4/8، حياة الحيوان - للدميري 1/57، تهذيب التهذيب 2/229، تهذيب الأسماء واللغات - للنووي 1/199، ذخائر العقبى/139، ينابيع المودّة/293، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب - لجمال =

ولقد كان هذا هو الطريق الوحيد الذي يستطيع الحسن عليه‌السلام أن يسلكه باعتباره صاحب رسالة قد اكتنفته هذه الظروف السيئة المُؤيسة. ونحن حين نسمح لأنفسنا أن نندفع وراء العاطفة نحسب أنّه كان على الحسن عليه‌السلام أن يُحارب معاوية ولا يُهادنه، وإنّ ما حدث له لم يكن إلاّ استسلاماً مُذلاً مكّن معاوية من أن يستولي على الحكم بسهولة ما كان يحلم بها.

وقد انزلق في هذا الخطأ كثير من أصحابه المؤمنين المخلصين، وقد عبّر بعضهم عن المرارة التي يحسّ بها بأنّ خاطب الحسن عليه‌السلام بقوله: (يا مُذلّ المؤمنين)(1).

هذا، ولكن علينا أن نفكّر بمقاييس اُخرى إذا شئنا فهم موقف الإمام الحسن عليه‌السلام الذي يبدو محيّراً لأوّل وهلة، فلا شك أنّ الإمام الحسن عليه‌السلام لم يكن مُغامراً، ولا طالب ملك، ولا زعيماً قبلياً يُفكّر ويعمل بالعقلية القبلية، وإنّما كان صاحب رسالة، وحامل دعوة، وكان عليه أن يتصرّف على هذا الأساس.

ولقد كان الموقف الذي اتّخذه هو الموقف الملائم لأهدافه كصاحب رسالة وإن كان ثقيلاً على نفسه، مؤلماً لمشاعره الشخصيّة.

لقد كان من الممكن بالنسبة لقائد مُحاط بنفس الظروف السيئة التي كان

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحسني/52، تذكرة الخواص/206، تأريخ مدينة دمشق 4/221، تأريخ دول الإسلام 1/53، جوهرة الكلام في مدح السادة الأعلام/112، تأريخ الخميس 2/323، دائرة المعارف - للبستاني 7/38، الفتوح 2/293.

(1) ولمّا وصل الحسن عليه‌السلام إلى قنطرة ساباط، وثب عليه الجرّاح الأسدي(\*) فضربه على فخده بمغول - في خنجر، مِغْوَل، مِعْوَل - كان بيده، وقال له: يا مُذلّ المؤمنين! أتريد أن تُلحد كما ألحد أبوك من قبل؟! ونزل بالمدائن وتداوى للضربة أربعين يوماً. انظر: أنساب الأشراب 2/282.

(\*) الجراح بن سنان من بني قبيصة الأسدي كما جاء في تاريخ اليعقوبي 2/215، والإمام الحسن بن علي/18، لكن في الفتوح 2/29 « سنان بن الجرّاح ». انظر: الأخبار الطوال/217، المقاتل/72، مستدرك الحاكم 2/174، وابن الأثير 3/175، وابن خلدون 2/186، والإصابة - ترجمة الحسن بن علي، وابن الوردي 1/166.

الإمام الحسن عليه‌السلام مُحاطاً بها أن يتّخذ من الأحداث أحد ثلاثة مواقف:

الأوّل: أن يُحارب معاوية رغم الظروف السيئة، ورغم النتائج المؤلمة التي تترتّب على هذا الموقف.

الثاني: أن يُسلّم السلطة إلى معاوية، وينفض يده من الأمر، ويتخلّى عن أهدافه، ويقنع بالغنائم الشخصيّة.

الثالث: أن يخضع للظروف المعاكسة فيتخلّى مؤقّتاً عن الصراع الفعلي المسلّح، لكن لا ليرقب الأحداث فقط، وإنّما ليُكافح على صعيد آخر فيُوجّه الأحداث في صالحه وصالح أهدافه.

ما كان للحسن عليه‌السلام باعتباره صاحب رسالة أن يتّخذ الموقف الأوّل؛ لأنّه لو حارب معاوية في ظروفه التي عرضناها، وبقواه المُفككة المُتخاذلة، لكانت نيتجة ذلك أن يُقتل، ويُستأصل المخلصون من أتباعه. ولا شك أنّه حينئذ كان يُحاط بهالة من الإكبار، والإعجاب لبسالته وصموده، ولكنّ النتيجة بالنسبة إلى الدعوة الإسلاميّة ستكون سيئة إلى أبعد حدّ؛ فإنّها كانت ستفقد فريقاً من أخلص حُماتها دون أن تحصل على شيء سوى أسماء جديدة تُضاف إلى قائمة شهدائها.

كذلك ما كان له باعتباره صاحب رسالة أن ينفض يده من كلّ شيء ويسترسل في حياة الدعة والرغد، والخلو من هموم القيادة والتنظيم.

لقد كان الموقف الثالث - وهو الموقف الذي اتّخذه الإمام الحسن عليه‌السلام - هو الموقف الوحيد الصحيح بالنسبة إليه، وذلك أن يعقد مع معاوية هدنة يعدّ فيها المجتمع للثورة؛ وذلك لأنّنا نسمح لأنفسنا أن نقع في خطأ كبير حين ننساق إلى الاعتقاد بأنّ الإمام الحسن عليه‌السلام قد اعتبر الصلح خاتمة مريحة لمتاعبه، فما صالح الإمام الحسن عليه‌السلام

ليستريح، وإنّما ليُكافح من جديد، ولكن على صعيد آخر(1).

فإذا كان الناس قد كرهوا الحرب لطول معاناتهم لها، ورغبوا في السلم انخداعاً بحملة الدعاية التي بثّها فيهم عملاء معاوية، إذ مَنّوهم بالرخاء والأعطيات الضخمة، والدعة والسكينة، وطاعة لرغبات زعمائهم القبليين، فإنّ عليهم أن يكتشفوا بأنفسهم مدى الخطأ الذي وقعوا فيه حين ضعفوا عن القيام بتبعات القتال، وسمحوا للأماني تخدعهم، ولزعمائهم بأن يظلّلوهم، ولا يمكن أن يكتشفوا ذلك إلاّ إذا عانوا هذا الحكم بأنفسهم.

عليهم أن يكتشفوا طبيعة هذا الحكم وواقعه، وما يقوم عليه من اضطهاد وحرمان، ومُطاردة مُستمرة، وخنق للحريات، وعلى الإمام الحسن عليه‌السلام وأتباعه المخلصين أن يفتحوا أعين الناس على هذا الواقع، وأن يُهيّئوا عقولهم وقلوبهم لاكتشافه، والثورة عليه، والإطاحة به.

ولم يطل انتظار أهل العراق، فقد قال لهم معاوية حين دخل الكوفة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ومجمل القول: « إنّ الذين خطّؤوا الإمام الحسن عليه‌السلام في هذا الصلح نظروا إلى ما ينبغي أن يكون، وتجاهلوا الظروف والأحداث التي أحاطت بالحسن عليه‌السلام وفرضت نفسها عليه... اعتمدوا على اللمحة العابرة، أو النظرية المجرّدة عن الزمان والمكان، وصرفوا النظر عمّا يعترض تطبيقها من العقبات.

أمّا قول مَنْ قال: كان على الحسن عليه‌السلام أن يستشهد كما استشهد أخوه الحسين عليه‌السلام، فإنّما يصح لو أدّى استشهاد الحسن عليه‌السلام إلى نفس النتيجة التي أدّت إليها تضحية الحسين عليه‌السلام من إحياء الدين، وإعلان حقيقة الاُمويِّين. أمّا مع اختلاف النتيجة لاختلاف الظروف والمؤثرات فلا مبرّر للقياس.

قال العقاد: آلت خلافة الإمام إلى ابنه الحسن في معسكر مضطرب بين الخوارج والشيعة، والموالي والأتباع الذين لا يعملون عمل الأتباع طائعين، ولا يعملون عمل الرؤساء مُقتدرين مُضطلعين. وورث الحسن معسكراً لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط ليُناضل به، معسكراً لم يقع فيه خلاف قطّ منذ الفتح الأوّل إلاّ الخلاف الذي كان يريده معاوية ويعمل له؛ حذراً من مغبّة الاتّفاق عليه.

انظر كتابه الموسوم: معاوية بن أبي سفيان/122، طبع بمطابع مؤسسة دار الهلال. ومعنى هذا في واقعه أنّ الحسن عليه‌السلام لو لم يُصالح لقُتل بسيوف معسكره لا بسيوف أعدائه.

« يا أهل الكوفة، أترون أنّي قاتلتكم على الصلاة، والزكاة، والحجّ، وقد علمت أنّكم تُصلّون، وتُزكّون، وتحجّون؟! ولكنّي قاتلتكم لأأتمر عليكم، وألي رقابكم، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إنّ كلّ دم اُصيب في هذه مطلول، وكلّ شرط شرطته فتحت قدمي هاتين »(1).

ثمّ اتّبع ذلك طائفة من الإجراءات التي صدمت العراقيين؛ أنقص من أعطيات أهل العراق ليزيد في أعطيات أهل الشام، وحملهم على أن يُحاربوا الخوارج فلم يتح لهم أن ينعموا بالسلم الذي كانوا يحنّون إليه، ثمّ طبّق منهاجه الذي شرحناه في الفصل السابق؛ الإرهاب، التجويع، والمُطاردة، ثمّ أعلن بسبّ أمير المؤمنين علي عليه‌السلام على منابر المسلمين.

وبيّنما راح الزعماء القبليون يجنون ثمرات هذا العهد، بدأ العراقيون العاديون يكشفون رويداً طبيعة هذا الحكم الظالم الشرس الذي سعوا إليه بأنفسهم، وثبّتوه بأيديهم، « وقد جعل أهل العراق يذكرون حياتهم أيام علي فيحزنون عليها، ويندمون على ما كان من تفريطهم في جنب خليفتهم، ويندمون على ما كان من الصلح بينهم وبين أهل

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: البداية والنهاية 6/246، تأريخ مدينة دمشق 52/380، تأريخ ابن الأثير 8/121، الكامل في التاريخ 6/220، مقاتل الطالبيِّين/70، شرح النهج - لابن أبي الحديد 4/16 و16/15، المعرفة والرجال - للبسوي 3/318، شرح الأخبار 2/157، مناقب آل أبي طالب 3/196، المصنف - لابن أبي شيبة الكوفي 7/351 ح23، تأريخ مدينة دمشق 52/380، 59/150، البداية والنهاية 8/140.

الشام، وجعلوا كلّما لقي بعضهم بعضاً تلاوموا فيما كان، وأجالوا الرأي فيما يمكن أن يكون. ولم تكد تمضي أعوام قليلة حتّى جعلت وفودهم تفد إلى المدينة للقاء الحسن عليه‌السلام، والقول له، والاستماع منه ».

وقد أقبل عليه ذات يوم وفد من أشراف أهل الكوفة فقال له متكلّمهم سليمان بن صرد الخزاعي: « ما ينقضي تعجبنا من بيعتك معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة كلّهم يأخذ العطاء وهم على أبواب منازلهم، ومعهم مثلهم من أبنائهم وأتباعهم، سوى شيعتك [من] أهل البصرة، وأهل الحجاز، ثمّ لم تأخذ لنفسك ثقة في العقد، ولا حظّاً من العطية!

فلو كنت إذا فعلت ما فعلت أشهدت على معاوية وجوه أهل المشرق والمغرب، وكتبت عليه كتاباً بأنّ الأمر لك بعده، كان الأمر علينا أيسر، ولكنّه أعطاك شيئاً بينك وبينه، ثمّ لم يفِ به، ثمّ لم يلبث أن قال على رؤوس الناس إنّي كنت شرطت شروطاً، ووعدت عدات؛ إرادة لإطفاء نار الحرب، ومداراة لقطع هذه الفتنة، فأمّا إذ جمع الله لنا الكلمة والإلفة، وأمّننا من الفرقة، فإنّ ذلك تحت قدمي.

فوالله، ما اغترّني بذلك إلاّ ما كان بينك وبينه وقد نقض، فإن شئت فأعد الحرب جذعة، وأذّن في تقدمك إلى الكوفة، فأخرج عنها عامله، وأظهر خلعه، وتنبذ

إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين »(1).

وقال الآخرون مثل ما قال سليمان بن صرد... فقال لهم فيما روى البلاذري: « أنتم شيعتنا، وأهل مودّتنا، فلو كنتُ بالحزم في أمر الدنيا أعمل، ولسلطانها أعمل وأنصب ما كان معاوية بأبأس منّي بأساً، ولا أشدّ شكيمة، ولا أمضى عزيمة، ولكنّي أرى غير ما رأيتم؛ وما أردت فيما فعلت إلاّ حقن الدماء، فارضوا بقضاء الله، وسلّموا الأمر، والزموا بيوتكم، وامسكوا، وكفّوا أيديكم حتّى يستريح برّ، ويستراح من فاجر »(2).

فقد أعطاهم الحسن عليه‌السلام - كما ترى - الرضا حين أعلن إليهم أنّهم شيعة أهل البيت، وذووا مودّتهم، وإذن فمن الحقّ عليهم أن يستمعوا له، ويأتمروا بأمره، ويكونوا عندما يريد منهم.

ثمّ طلب إليهم أن يرضوا بقضاء الله. يطيعوا السلطان، ويكفّوا أيديهم عنه، وأنبأهم بأنّهم لن يفعلوا ذلك آخر الدهر، ولن يستسلموا لعدوهم بغير مقاومة، وإنّما انتظار إلى حين، هو انتظار إلى أن يستريح الأبرار من أهل الحقّ، أو يريح الله من الفجّار من أهل الباطل.

فهو إذن يهيئهم للحرب حين يأتي إبّانها، ويحين حينها، ويأمرهم بالسلم المؤقتة حتّى يستريحوا ويحسنوا الاستعداد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تنزيه الأنبياء - الشريف الرضي/223.

(2) انظر: الإمامة والسياسة 1/186.

ومَنْ يدري لعلّ معاوية أن يريح الله منه، فتستقبل الأمّة أمرها على ما يحبّ لها صالحوا المؤمنين(1).

ولم يكن سليمان بن صرد ومَنْ معه منفردين في هذه الحركة، فكثيراً ما جاء العراقيون إلى الحسن عليه‌السلام يطلبون منه أن يثور، ولكنّه كان يعدهم المستقبل ويعدّهم للثورة. وها هو يجيب حجر بن عدي الكندي بقوله: « إنّي رأيت هوى عظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم أحبّ أن أحملهم على ما يكرهون؛ فصالحت بقياً على شيعتنا خاصّة من القتل، ورأيت دفع هذه الحرب إلى يوم ما؛ فإنّ الله كلّ يوم هو في شأن »(2).

وإذاً، فهذه فترة إعداد وتهيؤ حتّى يأتي اليوم الموعود، حين يكون المجتمع قادراً على الثورة مستعداً لها، أمّا الآن فلم يبلغ المجتمع هذا المستوى من الوعي، بل لا يزال أسير الأماني والآمال.

هذه الأماني والآمال التي بثّت فيه روح الهزيمة التي صوّرها الإمام الحسن عليه‌السلام لعلي بن محمد بن بشير الهمداني حين قال له: « ما أردت بمصالحتي معاوية إلاّ أن أدفع عنكم القتل عندما رأيت من تباطؤ أصحابي عن الحرب، ونكولهم عن القتال. ووالله لئن سرنا إليه بالجبال والشجر ما كان بدّ من إفضاء هذا الأمر إليه »(3).

وإذاً فقد كان دور الحسن عليه‌السلام أن يُهيئ عقول الناس وقلوبهم للثورة على حكم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الفتنة الكبرى - 2 - علي وبنوه - للدكتور طه حسين/206 - 208.

(2) انظر: الأخبار الطوال/220.

(3) انظر: الأخبار الطوال/221.

الاُمويِّين، هذا الحكم الذي كان يشكّل إغراءً قوياً للعرب في عهد أمير المؤمنين علي عليه‌السلام، والذي غدا فتنة للعراقيين بعده حملتهم على التخلّي عن الإمام الحسن عليه‌السلام في أحلك الساعات، وذلك بأن يدع لهم فرصة اكتشافه بأنفسهم، مع التنبيه على ما فيه من مظالم، وتعدٍّ لحدود الله.

\* \* \*

ولم يكن الحسين عليه‌السلام أقلّ إدراكاً لواقع مجتمع العراق من أخيه الحسن عليه‌السلام؛ لقد رأى من هذا المجتمع وتخاذله مثل ما رأى أخوه؛ ولذلك فقد آثر أن يعدّ مجتمع العراق للثورة، ويعبّئه لها بدل أن يحمله على القيام بها الآن.

كان هذا رأيه في حياة أخيه الإمام الحسن عليه‌السلام، فقد قال لعلي بن محمد بن بشير الهمداني حين فاوضه في الثورة بعد أن يئس من استجابة الإمام الحسن عليه‌السلام: « صدق أبو محمد، فليكن كلّ رجل منكم حلساً من إحلاس بيته(1) ما دام هذا الإنسان حيّاً »(2). يعني معاوية بن أبي سفيان.

وكان هذا رأيه بعد وفاة الإمام الحسن عليه‌السلام، فقد كتب إليه أهل العراق يسألونه أن يجيبهم إلى الثورة على معاوية، ولكنّه لم يجيبهم إلى ذلك، وكتب إليهم: « أمّا أخي، فأرجو أن يكون الله قد وفّقه وسدّده فيما يأتي، وأمّا أنا فليس رأي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض، واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنّة ما دام

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) حلس بالمكان حلساً: أي الزمه في الفتنة والهرج لزوم البساط له. انظر: لسان العرب 6/41.

(2) انظر: الأخبار الطوال/221.

معاوية حيّاً »(1).

وإذاً، فقد كان رأي الحسين عليه‌السلام ألاّ يثور في عهد معاوية، وهو يأمر أصحابه بأن يخلدوا إلى السكون والهدوء، وأن يبعدوا عن الشبهات.

وهذا يوحي لنا بأنّ حركة منظمة كانت تعمل ضدّ الحكم الاُموي في ذلك الحين، وأنّ دُعاتها هم هؤلاء الأتباع القليلون المخلصون الذين ضنّ بهم الحسن عليه‌السلام عن القتل فصالح معاوية، وأنّ مهمّة هؤلاء كانت بعث روح الثورة في النفوس عن طريق إظهار المظالم التي حفل بها عهد معاوية؛ انتظاراً لليوم الموعود.

وقد رأينا أنّ هذه الدعوة ضدّ الحكم الاُموي قد بدأت بعد الصلح، وقد كانت في عهد الإمام الحسن عليه‌السلام تسير في رفق وهدوء، نظراً لأنّ المجتمع كان لا يزال مأخوذاً ببريق الحكم الاُموي، ولم يتمثّل بعد طبيعة هذا الحكومة الظالمة الباغية تمثّلاً صحيحاً.

أمّا في عهد الإمام الحسين عليه‌السلام فقد ازدادت الدعوة عنفاً وشدّة واحتداماً، وأخذت تكسب أنصاراً كثيرين في كلّ مكان بعد أن أسفر الحكم الاُموي عن وجهه تماماً، وبعد أن بدا على واقعه الذي سترته الوعود الجذّابة والألفاظ المعسولة.

ولقد كان كلّ حدث من أحداث معاوية يجد صدى مدوّياً في المدينة حيث الإمام الحسين عليه‌السلام، ويكون مداراً لاجتماعات يعقدها الإمام الحسين عليه‌السلام مع أقطاب الشيعة في العراق، والحجاز وغيرهما من بلاد الإسلام، يدلّنا على ذلك أنّه حين قتل معاوية حجر بن عدي الكندي وأصحابه خرج نفر من أشراف الكوفة إلى الحسين عليه‌السلام فأخبروه الخبر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الأخبار الطوال/222.

ولا بدّ أنّ حركة قويّة دفعت مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة إلى أن يكتب إلى معاوية: « أمّا بعد، فإنّ عمرو بن عثمان ذكر أنّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وإنّه لا يُؤمن وثُوبه، وقد بحثت عن هذا فبلغني أنّه يُريد الخلاف يومه هذا، فاكتب إليّ برأيك »(1).

شخصيّة معاوية

وأكبر الظنّ أنّ الحسين عليه‌السلام لو ثار في عهد معاوية لما استطاع أن يسبغ على ثورته هذا الوهج الساطع الذي خلّدها في ضمائر الناس وقلوبهم، والذي ظلّ يدفعهم عبر القرون الطويلة إلى تمثّل أبطالها، واستيحائهم في أعمال البطولة والفداء.

وسرّ ذلك يكمن في شخصيّة معاوية، واُسلوبه الخاصّ في معالجة الأمور؛ فإنّ معاوية لم يكن من الجهل بالسياسة بالمثابة التي يُتيح فيها للحسين عليه‌السلام أن يقوم بالثورة مدوّية، بل الراجح أنّه كان من الحصافة بحيث يُدرك أنّ جهر الحسين عليه‌السلام بالثورة عليه، وتحريضه الناس على ذلك كفيل بزجّه في حروب تُعكّر عليه بهاء النصر الذي حازه بعد صلح الحسن عليه‌السلام، إن لم يكن كافياً لتفويت ثمرة هذا النصر عليه؛ لأنّه عارف - ولا ريب - بما للحسين عليه‌السلام من منزلة في قلوب المسلمين.

وأقرب الظنون في الاُسلوب الذي يتبعه معاوية في القضاء على ثورة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الأخبار الطوال/224.

الحسين عليه‌السلام - لو ثار في عهده - هو أنّه كان يتخلّص منه بالسمّ قبل أن يتمكّن الحسين عليه‌السلام من الثورة، وقبل أن يكون لها ذلك الدوي الذي يُموّج الحياة الإسلاميّة التي يرغب معاوية في بقائها هادئة ساكنة.

والذي يجعل هذا الظنّ قريباً ما نعرفه من اُسلوب معاوية في القضاء على مَنْ يخشى منافستهم له في السلطان، أو تعكير صفو السلطان عليه؛ فإنّ الطريقة المثالية عنده في التخلّص منهم هي القضاء عليهم بأقلّ ما يمكن من الضجيج.

ولقد مارس معاوية هذا الاُسلوب في القضاء على الحسن بن علي عليهما‌السلام، وسعد بن أبي وقاص(1)، ومارسه في القضاء على الأشتر لمّا توجّه إلى مصر، ومارسه في القضاء على عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لمّا رأى افتتان أهل الشام به(2).

وقد أوجز هو اُسلوبه هذا في كلمته المأثورة: « إنّ لله جنوداً من العسل »(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: مقاتل الطالبيِّين/29 « وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن عليه‌السلام، وسعد بن أبي وقاص، فدسّ إليهما سمّاً فماتا منه »، مختصر تاريخ العرب - سيد أمير علي/62.

(2) انظر: التمدن الإسلامي 4/71.

(3) انظر: عيون الأخبار 1/201، مروج الذهب 2/139 طبعة بيروت، المغتالين من الأشراف/39، وتاريخ اليعقوبي 2/139 طبعة بيروت، شرح النهج - لابن أبي الحديد 2/29، والطبري في تاريخه حوادث سنة (38 - 39 هـ)، تهذيب الكمال 27/126 رقم 5731، التاريخ الكبير - للبخاري 7/311، وتاريخ الصغير 1/87، الثقات - لابن حبّان 2/298، سير أعلام النبلاء 4/35، تأريخ مدينة دمشق 56/376 و391، الأنساب 5/476، نظرات في الكتب الخالدة - لحامد حفني/161، شيخ المضيرة، أبو هريرة - لمحمود أبو ريّة/179، ولكن بعض المصادر نسبت القول إلى عمرو بن العاص.

ويعني العسل الذي كان يدسّ فيه السمّ، وقتل به الإمام الحسن عليه‌السلام ريحانة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله. انظر: المقاتل/=

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= 43، وأنساب الأشراف 1/404، وابن أبي الحديد في شرح النهج 4/11 و17، ابن كثير 8/41، تأريخ الخلفاء/138، الإصابة ترجمة الحسن، ابن قتيبة/150، الصواعق/81، المسعودي في مروج الذهب بهامش الكامل 2/353، 6/55، وتهذيب تأريخ مدينة دمشق - لابن عساكر 4/226، وأسماء المغتالين من الأشراف/44، وتاريخ اليعقوبي 2/225، وابن الأثير 2/197، وابن شحنة بهامش ابن الأثير 11/132، تأريخ الدول الإسلاميّة 1/53، تذكرة الخواص/62، تأريخ أبي الفداء 1/194، الاستيعاب 1/389، تاريخ الخلفاء - للسيوطي/74، مستدرك الحاكم 3/176، الإرشاد - للشيخ المفيد 3/15، المناقب - لابن شهر آشوب 3/191، كشف الغمّة 1/584.

والأشتر النخعي هو مالك بن الحارث النخعي، أدرك الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، وكان رئيس قومه، شُترت عينه في اليرموك فلقّب بالأشتر، وله مواقف شهيرة في الجمل وصفين مع علي عليه‌السلام. وفي سنة (38 هـ) ولاّه على مصر، فأمر معاوية دهقاناً وكان بالعريش - مدينة من أوّل أعمال مصر من ناحية الشام - أن يدسّ له السمّ، فلمّا نزل الأشتر العريش سمّه الدهقان في عسل، فقال معاوية: « لله جنود من العسل ».

وعبد الرحمان بن خالد، هو عبد الرحمان بن خالد بن الوليد المخزومي، وكان ممّن أدرك النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، وهو من فرسان قريش وشجعانهم، وكان له فضل وهدى وكرم، إلاّ إنّه كان منحرفاً عن علي عليه‌السلام، وذكر أنّ أخاه المهاجر كان مع علي بصفين، وذكر أنّ عبد الرحمان مرض فأمر معاوية طبيباً عنده يهودياً أن يأته فيسقيه سقية يقتله بها، فأتاه فسقاه فانخرق بطنه فمات.

وأمر معاوية ابن آثال النصراني أن يحتال في قتله، وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يوليه خراج حمص، فوفى معاوية بما ضمن له.

أمّا المهاجر بن خالد بن الوليد فدخل دمشق مستخفياً هو وغلام له، فرصد ذلك اليهودي، فخرج ليلاً من عند معاوية ومعه قوم، فهربوا عنه، فقتله المهاجر. وكان ابن آثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركّبة، وقوّاها، ومنها سموم قواتل، وكان معاوية يقرّبه لذلك كثيراً.

انظر: الاستيعاب 2/396 تحت رقم 1697، اُسد الغابة 3/289، تأريخ الطبري 6/128، وابن الأثير 3/195، المغتالين من الأشراف/47، ابن كثير في البداية والنهاية 8/31، الأغاني 14/13، مختصر ابن شحنة في هامش ابن الأثير 11/133، عيون الأنباء في طبقات الأطباء/171 طبعة بيروت.

وقتل ولده يزيد الإمام الحسين عليه‌السلام، تقدّم استخراج ذلك، وقد شرحنا ذلك مفصّلاً في تحقيقنا لكتاب الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة - لابن الصباغ الماكي 2/131 وما بعدها. =

والذي يرتفع بهذا الظنّ إلى مرتبة الاطمئنان ما نعلمه من أنّ معاوية كان قد وضع الأرصاد والعيون على الحسين عليه‌السلام وعلى غيره ممّن يخشاهم على سلطانه، وأنّهم كانوا يكتبون إليه بما يفعل هؤلاء، ولا يغفلون عن إعلامه بأيسر الأمور وأبعدها عن إثارة الشكّ والريبة(1).

فلو تحفّز الحسين عليه‌السلام للثورة في عهد معاوية ثمّ قُضي عليه بهذه الميتة التي يُفضلها معاوية لأعدائه، فماذا كانت تكون جدوى فعله هذا الذي لم يخرج عن حدود الفكرة إلى أن يكون واقعاً بحياة الناس بدمائهم وأعصابهم؟ وما كان يعود على المجتمع الإسلامي من موته وقد قضى كما يقضي سائر الناس بهدوء وبلا ضجيج؟ إنّه لن يكون حينذاك سوى علوي مات حتف أنفه، يُثير موته الأسى في قلوب أهله ومحبيه وشيعة أبيه إلى حين، ثمّ يطوي النسيان ذكراه كما يطوي جميع الذكريات.

وأين هذا ممّا صار إليه أمره وأمر مبدئه حين ثار في عهد يزيد؟

\* \* \*

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= وضرب الكعبة بالمنجنيق. انظر: مروج الذهب 3/79، وأباح المدينة. انظر: تاريخ الخلفاء/209، وحاصر عبد الملك مكة، وهدم الكعبة، وأطلق يد الحجّاج في دماء المسلمين. وبعبد الملك اقتدى أولاده وأحفاده، وزادوا عليه أضعافاً مضاعفة. انظر: الإمامة والسياسة 2/32، مروج الذهب - للمسعودي 3/175، العقد الفريد 3/214، ويقول صاحب مروج الذهب، وصاحب العقد الفريد في أقوال الناس في الحجّاج: أُحصي مَنْ قتلهم الحجّاج صبراً، سواء مَنْ قتل في حروبه، فكانوا (120) ألفاً. وكان في حبسه (50) ألف رجلاً، و(30) ألف امرأة؛ ستة عشر منهنّ عاريات، وكان يطعم المساجين - كما يقول ابن الجوزي في تاريخه - الخبز ممزوجاً بالرماد.

وجاء في العقد الفريد أيضاً على لسان عمر بن العزيز: لو جاء الناس يوم القيامة بفسّاقهم وجئنا بالحجّاج لزدنا عليهم.

(1) كان لمعاوية عين بالمدينة يكتب إليه بما يكون من اُمور الناس، فكتب إليه: إنّ الحسين بن علي أعتق جارية وتزوّجها. انظر: أعيان الشيعة 4/القسم الأوّل.

هذا بالإضافة إلى أنّ معاوية كان يُدرك أنّه ليس ينبغي له - وهو يحكم الناس بسلطان الدين - أن يرتكب من الأعمال ما يراه العامّة تحدّياً للدين يحكم بسلطانه، بل عليه أن يسبغ على أعماله غشاء دينياً لتنسجم هذه الأعمال مع المنصب الذي وصل إليه، أمّا ما لا يمكن تمويهه من التصرّفات فليرتكبه في السرّ(1).

وقد أظهره سلوكه المحافظ على تعاليم الدين بمظهر لا غبار عليه من الناحية الدينية عند العامّة، على الرغم من بعض الروايات التأريخيّة التي تؤكّد أنّه كان مُلحداً لا يؤمن بشيء؛ ممّا جعل المغيرة بن شعبة وهو في تحلّله يغتمّ لما سمعه منه في بعض مجالسه معه، ويقول عنه أنّه أخبث الناس(2).

وقد استغل ظروفه لإسباغ صفة الشرعية على منصبه؛ وذلك بدعواه أنّه يطلب بدم عثمان، وبما موّه على الرأي العام في مؤتمر التحكيم بعد صفّين من صلوحه للخلافة، وبصلحه مع الإمام الحسن عليه‌السلام وبيعة الناس له بالخلافة. فلو أفلت من معاوية الزمام، وغفلت عيونه وأرصاده فخرجت الفكرة إلى حيّز الواقع، وتحوّلت إلى دويٍّ عظيم، فهل كانت ثورة الحسين عليه‌السلام تنجح في عهد معاوية؟

والذي نتساءل عنه هنا ليس النجاح العسكري؛ فإنّ ثورته ما كانت لتحوز نصراً عسكرياً آنيّاً يمكّن الحسين عليه‌السلام من الإمساك بالسلطة؛ لأنّه كان ضعيفاً من الناحية الماديّة، ومعاوية أقوى ما يكون، وقد رأينا أنّها أخفقت عسكرياً في عهد يزيد مع أنّ سلطان الاُمويِّين في عهده كان بالغ الضعف؛ بسبب استنكار عامّة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تاريخ الإسلام السياسي 1/533.

(2) انظر: شرح نهج البلاغة 2/357، مروج الذهب 2/341.

المسلمين لسلطانه، وبسبب التناحر القبلي الذي كان قد بلغ غايته في الشام(1).

وإنّما نتساءل عن نجاح ثورته بمعنى تمكّنه من التعبير بها عن أهدافه الاجتماعيّة والإنسانيّة، وإشعار الناس بواقعهم السيِّئ، وكشف الحكم الاُموي على حقيقته لأعينهم، وبعث روح جديدة فيهم، وبث أخلاق جديدة بينهم، على النحو الذي سنرى أنّه تمكّن منه في عهد يزيد.

والجواب الذي لا بدّ منه هنا هو النفي، بل كان مصيره إلى الإخفاق على الصعيد العسكري، وعلى هذا الصعيد الآخر الذي بوّأ ثورته في عهد يزيد منزلة فريدة في تأريخ الثورات.

وإذا بحثنا عن السبب في إخفاق ثورة الحسين عليه‌السلام لو ثار في عهد معاوية لوجدناه في مسحة الدين التي كان معاوية يحرص على إسباغها على سلوكه وسائر تصرّفاته أمام العامّة، وفي صفة الشرعية التي أفلح في أن يسبغها على منصبه لدى جانب كبير من الرأي العام الإسلامي.

فإنّ هذا الواقع كان يُجرّد ثورة الحسين عليه‌السلام - لو ثار - من مبرّرها الوحيد؛ لأنّ الجواب الذي كان سيقدّمه معاوية وأعوانه للناس حيث يتساءلون عمّا حمل الحسين عليه‌السلام على الثورة، أو يجيب به الناس أنفسهم، هو أنّ الحسين عليه‌السلام طالب ملك، ولو قُتل الحسين عليه‌السلام في سبيل ما توهّمه الناس هدفاً من ثورته لما أثار قتله استنكاراً، ولما عاد قتله بشيء على مبادئه ودوافعه الحقيقية للثورة، بل ربّما عدّه فريق من الناس مستحقّاً للقتل.

ولن يجدي الحسين عليه‌السلام وأنصاره أن يعلنوا للناس أنّ ثورتهم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) كان التناحر بين قيس وكلب، أو بين مضر واليمن قد بلغ غايته في عهد يزيد، ثم انفجر [بعد] موته بسبب الاختلاف فيمَنْ يخلف معاوية الثاني الذي تنازل عن الحكم، ونشبت الحروب بين القبائل بسبب ذلك. راجع: ولهاوزن - الدولة العربيّة/165 - 173، وبروكلمان - تأريخ الشعوب الإسلاميّة 1/156 - 157.

لحماية الدين من تحريف وتزييف معاوية، وإنقاذ الأمّة من ظلمه، فلن يصدّقهم الناس؛ لأنّهم لا يرون على الدين من بأس، ولم يُحدث معاوية في الدين حدثاً، ولم يُجاهر بمنكر، بل سيرى الناس أنّ مقالتهم هذه ستار يخفي مقاصدهم الحقيقية.

## العهد والميثاق

ولقد كان معاوية خليقاً بأن يستغل في سبيل تشويه ثورة الحسين عليه‌السلام - لو ثار في عهده - هذا الميثاق الذي كان نتيجة صلح الحسن عليه‌السلام مع معاوية، فلقد عرف عامّة الناس أنّ الحسن والحسين عليهما‌السلام قد عاهدا معاوية على السكوت عنه، والتسليم له ما دام حيّاً(1)، ولو ثار الحسين عليه‌السلام على معاوية لأمكن لمعاوية أن يصوّره بصورة المنتهز الناقض لعهده وميثاقه الذي أعطاه.

ونحن نعلم أنّ الحسين عليه‌السلام ما كان يرى في عهد معاوية عهداً حقيقياً بالرعاية والوفاء؛ فقد كان عهداً تمّ بغير رضاً واختيار، وقد كان عهداً تمّ في ظروف لا بدّ للمرء في تغييرها.

ولقد نقض معاوية هذا العهد، ولم يعرف له حرمة، ولم يحمل نفسه مؤونة الوفاء به، فلو كان عهداً صحيحاً لكان الحسين عليه‌السلام في حلّ منه؛ لأنّ معاوية قد تحلل منه، ولم يأل في نقضه جهداً.

ولكنّ مجتمع الحسين عليه‌السلام، هذا المجتمع الذي رأينا أنّه لم يكن أهلاً للقيام بالثورة، والذي كان يؤثر السلامة والعافية كان يرى أنّه قد عاهد، وإنّ عليه أن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: شرح نهج البلاغة « بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم » 4/8.

يفي(1).

وأكبر الظنّ أنّ ثورته - لو قام بها في عهد معاوية - كانت ستفشل على الصعيد السياسي وعلى الصعيد الاجتماعي حين ينظر إليها المجتمع الإسلامي من الزاوية التي كان معاوية سيسلّط عليها الأضواء، وهي هذا العهد والميثاق الذي نقضه الحسين عليه‌السلام وأنصاره من الثائرين، فيظهرها للرأي العام وكأنّها تمرّد غير مشروع.

ولعلّ هذا هو ما يفسّر جواب الحسين عليه‌السلام لسليمان بن صرد الخزاعي حين فاوضه في الثورة على معاوية، والحسن عليه‌السلام حي، فقد قال له: « فليكن كلّ رجل منكم حلساً من إحلاس بيته ما دام هذا الإنسان حيّاً؛ فإنّها بيعة كنتُ والله لها كارهاً، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم، ورأينا ورأيتم »(2).

وجوابه لعدي بن حاتم الطائي وقد فاوضه في الثورة أيضاً بقوله:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) يميل المرحوم الشيخ راضي آل ياسين في كتابه النفيس « صُلح الحسن »/252 - 270 - الطبعة الأولى - إلى التأكيد على أنّ الحسن والحسين عليهما‌السلام لم يبايعا معاوية بالخلافة؛ استناداً إلى نصوص وردت في بعض التي رُوي بها الميثاق بين الإمام الحسن عليه‌السلام ومعاوية، والتي يراها في بعض الصيغ دالّة على إعفاء الحسن عليه‌السلام من كلّ التزام يشعر بأنّه سلّم إلى معاوية - بالإضافة إلى السلطان السياسي - الإمامة الدينية أيضاً.

وهذا رأي لا نملك رفضه، فشيء آخر غير ما ذكر من النصوص، وهو شخصيتا الحسن عليه‌السلام ومعاوية يعزّز هذا الرأي. ولكن هذا الواقع لا يُغيّر من جوهر المسألة شيئاً؛ فقد أظهر معاوية للرأي العام أنّ الحسن عليه‌السلام قد بايع بما لهذه الكلمة من دلالات زمنية ودينية، وقد كان المسلمون ينظرون إلى البيعة على أنّها عهد لا يمكن نقضه ولا الفكاك منه. لاحظ كتابنا « نظام الحكم والإدارة في الإسلام »/48، ففيه شواهد تأريخيّة، ولاحظ أيضاً « الدولة العربيّة وسقوطها » ولهاوزن/115، وسمو المعنى في سمو الذات - للشيخ عبد الله العلايلي/101 - 105. منه رحمه‌الله.

(2) انظر: الأخبار الطوال/221، الإمامة والسياسة 1/173.

« إنّا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل لنقض بيعتنا »(1).

وقد ثبت على موقفه هذا بعد وفاة الإمام الحسن عليه‌السلام، فقد روى الكلبي، والمدائني، وغيرهما من أصحاب السير، قالوا: « لمّا مات الحسن بن علي عليهما‌السلام تحرّكت الشيعة بالعراق، وكتبوا إلى الحسين في خلع معاوية والبيعة له فامتنع عليهم، وذكر أنّ بينه وبين معاوية عهداً وعقداً ولا يجوز له نقضه حتّى تمضي المدّة، فإذا مات معاوية نظر في ذلك »(2).

وقد كان معاوية يستغل هذه الحُرمة التي للعهد في نفوس الناس؛ فيلوّح بها في مكاتباته إلى الإمام الحسين عليه‌السلام حول نشاطه في تعبئة المجتمع الإسلامي للثورة على الحكم الاُموي؛ فقد كتب إليه: « أمّا بعد، فقد انتهت إليّ اُمور عنك، إن كانت حقّاً فإنّي أرغب بك عنها. ولعمر الله، إنّ مَنْ أعطى عهد الله وميثاقه لجدير بالوفاء، وإنّ أحق الناس بالوفاء مَنْ كان مثلك في خطرك وشرفك، ومنزلتك التي أنزلك الله بها. ونفسك فاذكر، وبعهد الله أوفِ؛ فإنّك متى تنكرني أنكرك، ومتى تكدني أكدك، فاتقِ شقّ عصا هذه الاُمّة »(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الأخبار الطوال/203.

(2) انظر: الإرشاد/206، إعلام الورى/220، تأريخ الخلفاء/206، وقد ذكر فيليب حتّي « تأريخ العرب » 2/252 أنّ أهل الكوفة كانوا قد بايعوا الحسين بعد موت أخيه، وهذا غير صحيح، وما صح هو هذه المحاولة التي لم يستجب لها الإمام الحسين عليه‌السلام.

(3) انظر: الأخبار الطوال/224 - 225، والإمامة والسياسة 1/188.

فها هو ذا معاوية يُلوّح هنا بالعهد والميثاق، ويُطالب بالوفاء بهما.

ولربما فهم الناس من ثورته لو ثار في عهد معاوية أنّه كان على غير رأي أخيه الحسن عليه‌السلام في الصلح مع معاوية، وقد كان الحسين عليه‌السلام دائماً حريصاً على أن يُظهر اتّفاقه مع أخيه في القرار الذي اتّخذه.

ومن جملة ما يدلّ على ذلك جوابه لعلي بن محمد بن بشير الهمداني حين ذكر له امتناع الحسين عليه‌السلام من إجابة مَنْ دعاه إلى الثورة بعد الصلح، مبيّناً لهم عدم استعداد المجتمع الإسلامي لذلك: « صدق أبو محمد، فليكن كلّ رجل منكم حلساً من إحلاس بيته ما دام هذا الإنسان حيّاً »(1).

وإذاً، فلم يثُر الحسين عليه‌السلام في عهد معاوية؛ لأنّ المجتمع لم يكن مُهيئاً للثورة(2)، وكان هذا هو السبب الذي دفع بالحسن عليه‌السلام إلى أن يُصالح معاوية بعدما تبيّن له عقم محاولة المضي في الصراع، ولولا ذلك لما صالح الحسن عليه‌السلام معاوية، ولما قعد الحسين عليه‌السلام عن الثورة على معاوية.

وقد أضاف هذا الصلح سبباً آخر منع الحسين عليه‌السلام من الثورة على معاوية الذي كانت شخصيته عاملاً في جعل الثورة عليه عملاً غير مضمون بالنجاح؛ ولذا فقد كان لا بدّ للحسن والحسين عليهما‌السلام - وهذه هي ظروفهما في عهد معاوية - أن يُهيّئا هذا المجتمع للثورة، وأن يعدّاه لها.

وقد مضت الدعوة إلى الثورة على الحكم الاُموي تنتشر بنجاح طيلة عهد معاوية، تجد غذاءها في ظلم معاوية وجوره، وبُعده عن تمثيل الحكم الإسلامي الصحيح، وانتهى الأمر بهذه الدعوة إلى هذا النجاح الكبير الذي أوجزه

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الأخبار الطوال/221.

(2) انظر: الإرشاد - للشيخ المفيد/199 طبعة النجف الأشرف سنة 1962.

الدكتور طه حسين في هذه الكلمات: « ومات معاوية حين مات، وكثير من الناس وعامّة أهل العراق بنوع خاص يرون بغض بني اُميّة وحبّ أهل البيت لأنفسهم ديناً »(1).

شخصيّة يزيد

أمّا يزيد فقد كان على الضدّ مع أبيه في كلّ ما كان يحول بين الحسين عليه‌السلام وبين الثورة على أبيه. لقد كان يزيد من أبعد الناس عن الحذر والحيطة والتروّي، كان إنساناً صغير العقل، متهوراً، سطحي التفكير، « لا يهم بشيء إلاّ ركبه »(2).

واُسلوبه في معالجة المشاكل التي واجهته خلال حكمه يعزّز وجهة النظر هذه. اُسلوبه في معالجة ثورة الحسين عليه‌السلام، واُسلوبه في معالجة ثورة أهل المدينة، واُسلوبه في معالجة ثورة ابن الزبير.

وتدلّ بعض الملاحظات التي ذكرها المؤرّخون عن حياته العاطفية أنّ هذا النزق والتهوّر، والاستجابة السريعة العنيفة للانفعال ليس أموراً عارضة، بل هي سمات أصيلة في شخصيته(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الفتنة الكبرى - 2 - علي وبنوه - للدكتور طه حسين/295.

(2) انظر: أنساب الأشراف 4/القسم الثاني/1.

(3) انظر المصدر نفسه، وله أبيات من الشعر فيها دلالة على تهتّكه. ومن =

ومن ثمّ فهو أبعد الناس عن أن يواجه ثورة الحسين عليه‌السلام باُسلوب أبيه، بل القريب أن يواجهها بالاُسلوب الذي يتّفق مع شخصيته، وهو ما حدث في النهاية بالنسبة إليها وإلى غيرها من المشاكل التي واجهته.

ونشأة يزيد المسيحية، أو القريبة من المسيحية(1)، جعلته أضعف ما يكون صلة بالعقيدة التي يُريد أن يحكم الناس باسمها، أعني الإسلام. وحياة التحلّل التي عاشها قبل أن يلي الحكم، والانسياق مع العاطفة، وتلبية كلّ رغباته، كلّ ذلك جعله عاجزاً عن التظاهر بالورع والتقوى والتلبّس بلباس الدين بعد أن حكم المسلمين.

هذا بالإضافة إلى أنّ طبيعته النزقة جعلته يُعالن الناس بارتكاب المحرّمات، ويُقارف من الآثام ما عرف الناس بمدى بُعده عن الصلاحية لتولّي منصب الخلافة. ومن ثمّ فلن يكون في وسع أنصار الحكم الاُموي أن يُلوثوا ثورة الحسين عليه‌السلام أمام الرأي العام بأنّها ثورة في سبيل الملك؛ لأنّ العامّة ترى أنّ مبرّرات هذه الثورة موجودة في سلوك يزيد نفسه.

هذا السلوك الذي لا يلتقي مع الدين على صعيد، وسيقبل الناس بلا تردّد تبرير الحسين عليه‌السلام وأنصاره لثورتهم بحماية الدين، وإنقاذ المسلمين من جور الاُمويِّين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= أبياته في زوجته اُمّ خالد:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وما نحنُ يوم استعبرت اُمّ خالدٍ |  | بمرضى ذوي داءٍ ولا بصحاحِ |
| وقامت لتسقي الشُّربَ حُمراً عيونهمْ |  | مُخصّبة الأطرافِ ذات وشاحِ |
| لها عُكّنٌ بيضٌ كأنّ غصونها |  | إذا شَفّ عنها السابري فداحِ |

انظر: تأريخ مدينة دمشق 69/112، نسب قريش/128.

(1) انظر: تأريخ العرب 2/258، سمو المعنى في سمو الذات/59 - 61. وعن حياة اللهو لاحظ ولهاوزن - الدولة العربيّة وسقوطها/137 - 138، وبروكلمان - تأريخ الشعوب الإسلاميّة 1/156.

## موقف الحسين عليه‌السلام من يزيد في حياة معاوية

وقد حاول معاوية أن يُقيّد الإمام الحسين عليه‌السلام ببيعة يزيد، أو يضمن - على الأقل - سكوت الإمام الحسين عليه‌السلام عن يزيد، فلم يفز بطائل. ويروي المؤرّخون عدّة مواقف للحسين عليه‌السلام مع معاوية حين أخذ يعدّ الأمر لابنه يزيد من بعده.

وكان من جملة كتبه إليه في هذا الشأن قوله في أحدها: «... وفهمت ما ذكرت عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمّة محمد؛ تريد أن توهم الناس في يزيد كأنّك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عمّا كان ممّا احتويته بعلم خاص.

وقد دلّ يزيد من نفسه على موضع رأيه؛ فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب الهراش عند التهارش، والحمام السبق لأترابهنّ، والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول؛ فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر ممّا أنت لاقيه. فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتّى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلاّ غمضة... »(1).

وقد أراد معاوية أن يحمل الحسين عليه‌السلام على البيعة ليزيد بحرمان بني هاشم جميعاً من أعطياتهم حتّى يبايع الحسين (عليه السلام)(2)، فلم يتحقق له ما أراد، ومات معاوية والحسين عليه‌السلام باقٍ على موقفه من الإنكار لبيعة يزيد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الإمامة والسياسة 1/195 - 196.

(2) انظر: الإمامة والسياسة 1/200، الكامل في التاريخ 3/252.

## موقف الحسين عليه‌السلام من البيعة ليزيد

« ومات معاوية حين مات وكثير من الناس وعامة أهل العراق - بنوع خاص - يرون بغض بني اُميّة وحبّ أهل البيت لأنفسهم ديناً »(1)؛ فقد اكتشف المجتمع الإسلامي ما فيه الكفاية من عورات الحكم الاُموي، وذاق طعم عذابه، وخبر ألواناً من عسفه وظلمه في الأرزاق والكرامات، وانزاحت عن بصيرته الغشاوة التي رانت عليها في أوّل عهد معاوية.

ولم يكن يزيد في مثل تروّي أبيه وحزمه واحتياطه للأمور، ولم يلتزم اُسلوب أبيه في الاحتفاظ بالغشاء الديني مُسدلاً على أفعاله وتصرّفاته، ولم يكن بين الحسن والحسين عليهما‌السلام من جهة وبين يزيد من جهة اُخرى أي عهد أو ميثاق.

وهكذا فقد انزاحت بموت معاوية ووعي المجتمع الإسلامي جميع الأسباب التي كانت تحول بين الحسين عليه‌السلام وبين الثورة في عهد معاوية، وبدا الطريق

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الفتنة الكبرى - 2 - علي وبنوه - للدكتور طه حسين/295.

إلى الثورة على الحكم الاُموي مُمهّداً أمام الحسين عليه‌السلام.

وقد عجّل تلهف يزيد على أخذ البيعة له من كبار زعماء المعارضة له - وعلى رأسهم الحسين عليه‌السلام - في تتابع الأحداث؛ فقد كان أكبر همّه حين آل الأمر بعد موت أبيه هو بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعة يزيد، فكتب إلى الوليد بن عتبة والي المدينة كتاباً يُخبره فيه بموت معاوية، وكتاباً آخر جاء فيه: « أمّا بعد، فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وابن الزبير بالبيعة أخذاً ليس فيه رخصة حتّى يبايعوا، والسّلام »(1).

ولقد آثر الحسين عليه‌السلام أن يتخلّص من الوليد بالحُسنى حين دعاه إلى البيعة، فقال له: « مثلي لا يبايع سرّاً، ولا يجتزئ بها منّي سرّاً، فإذا خرجت للناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً ».

ولكن مروان قال للوليد: « لئن فارقك الساعة ولم يُبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتّى تكثر القتلى بينكم وبينه، ولكن احبسه فإن بايع

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الكامل في التاريخ 2/529 و3/263، تاريخ الطبري 4/250 و5/338، الأخبار الطوال - لابن داود الدينوري/227، وفي الفتوح 2/355 و3/9 زيادة: فمَنْ أبى عليك منهم فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه. وفي مقتل الحسين - للخوارزمي 1/180 مثله.

وهذا يُبطل كلّ كلام يُدافع به عن يزيد وعن تبرير المنافقين والمستشرقين الذي يدّعون بأنّ يزيد لم يكن راغباً في قتل الإمام الحسين عليه‌السلام.

وإلاّ ضربت عنقه ».

فوثب الحسين عليه‌السلام عند ذلك، وقال: « ويلي عليك يابن الزرقاء! أنت تأمر بضرب عُنقي؟ كذبت ولؤمت ».

ثمّ أقبل على الوليد فقال: « أيها الأمير، إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد فاسق فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله »(1).

بهذه الكلمات أعلن الحسين عليه‌السلام ثورته على الحكم الاُموي الفاسد على عظمته وجبروته وقسوته في مؤاخذة الخارجين عليه، فقد مات معاوية وانقضى العهد والميثاق، وأصبح وجهاً لوجه أمام دوره التأريخي الذي يتحتّم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: مقتل الحسين - للخوارزمي 1/184 وزاد فيه: « والله لو رام ذلك أحد لسقيت الأرض من دمه قبل ذلك، فإن شئت ذلك فرم أنت ضرب عنقي إن كنت صادقاً... ». تأريخ الطبري 4/251، تذكرة الخواص - لسبط ابن الجوزي/229 طبعة إيران، الآداب السلطانية - للفخري/88، الكامل في التاريخ - لابن الأثير 4/75، تاريخ ابن عساكر 7/407، أنساب الأشراف 5/129، الفتوح 3/14، وكان يُقال له - أي مروان - ولولده: بنو الزرقاء، يقول ذلك من يريد ذمّهم وعيبهم. وهي الزرقاء بنت موهب جدّة مروان بن الحكم لأبيه، وكانت من ذوات الرايات التي يستدلّ بها على بيوت البغاء؛ فلهذا كانوا يدعون بها.

وقال البلاذري في أنساب الأشراف 5/126: اسمها مارية ابنة موهب، وكان قيناً.

انظر: تذكرة الخواص/229، تأريخ ابن عساكر 7/407، تأريخ الطبري 8/16، تفسير من آية 13 سورة القلم في قوله: ( عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ )، وانظر: كنز العمال - للمتقي الهندي 1/156، روح المعاني - للآلوسي 29/28، الإمامة والسياسة 1/227.

عليه أن يصنعه، وإنّه لعلى يقين من أنّ حكم يزيد لن يأخذ صفة شرعية ما دام هو مُمسكاً عن بيعته، أمّا إذا بايعه فإنّه يكون قد اكتسب الغلّ الجديد الذي طُوقت به الأمّة المسلمة صفة قانونية شرعية، وهذا شيء لا يفعله عليه‌السلام.

إنّ ثمّة فرقاً عظيماً بين أن تكون الاُمّة راضخة لحكم ظالم ولكنّها تعلم أنّه حكم بغير حقّ، وأنّه حكم يجب أن يزول، وبين أن تخضع الاُمّة لحكم ظالم وترى أنّه حكم شرعي لا بدّ منه، ولا يجوز تغييره.

إنّ الاُمّة في الحالة الثانية ترى أنّ حياتها التعسة، وأنّ التشريد والجوع والحرمان والذلّ هو قدرها الذي لا مفرّ لها منه، هو مصيرها المحتوم الذي لا بدّ أن تصير إليه، وحينئذ يُقضى على كلّ أمل في تغيير الأوضاع، وحينئذ يضمحلّ كلّ أمل في الثورة، وحينئذ تدعم الاُمّة جلاّديها بدل أن تثور عليهم، وحينئذ يُصار إلى الرضا بما هو كائن بحسبانه ما ينبغي أن يكون.

أمّا حين تخضع الاُمّة وهي تعلم أنّ الحاكم لا حقّ له فحينئذ يبقى الأمل في التغيير حيّاً نابضاً، وتبقى الثورة مشتعلة في النفوس، وحينئذ يكون للثائرين مجال للعمل؛ لأنّ التربة مُعدّة للثورة.

وكان على الحسين عليه‌السلام وحده أن ينهض بهذا الدور. لقد كانت الثورة قدره المحتوم، أمّا الآخرون الذين أبوا البيعة ليزيد فلم يكن لهم عند المسلمين ما للحسين عليه‌السلام من المنزلة وعلوّ الشأن؛ أمّا ابن عمر فسرعان ما سلّم قائلاً: « إذا بايع الناس بايعت »(1)؛ وأمّا ابن الزبير فقد كان الناس يكرهونه ويتّهمونه في إبائه البيعة بأنّه يريد الأمر لنفسه؛ فلم تكن دوافعه دينية خالصة، وإنّما كان يدفعه الطمع

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تاريخ الطبري 4/254، الكامل في التاريخ 3/265، أنساب الأشراف 1/14.

في الخلافة، وما كان الناس يرونه لذلك أهلاً.

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أنّ الحسين عليه‌السلام لمّا خرج وابن الزبير من المدينة إلى مكة، وأقاما بها، « عكف الناس على الحسين يفدون إليه، ويقدمون عليه، ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه، وينتفعون بما يسمع منه، ويضبطون ما يروون عنه »(1). ومغزى هذا الخبر بيّن فقد اتّجهت أنظار الناس إلى الحسين عليه‌السلام وحده فانقطعوا إليه، وهذا يدلّك على مركزه في نفوس المسلمين إذ ذاك.

قال أبو الفرج الأصفهاني: « إنّ عبد الله بن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز، ولا أحبّ إليه من خروجه إلى العراق؛ طمعاً في الوثوب بالحجاز، وعلماً منه بأنّ ذلك لا يتمّ له إلاّ بعد خروج الحسين »(2).

وكان الحسين عليه‌السلام يعي هذا أيضاً، فقد قال يوماً لجلسائه: « إنّ هذا - يعني ابن الزبير - ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنّه ليس له من الأمر شيء معي، وأنّ الناس لم يعدلوه بي، فودّ أنّي خرجت منها لتخلو له »(3).

وقال عبد الله بن عباس له وهو يحاوره في الخروج إلى العراق: « لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إيّاه والحجاز،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: البداية والنهاية 3/217.

(2) انظر: مقاتل الطالبيِّين/245، وأنساب الأشراف 4/13 - 14، الإرشاد/202.

(3) انظر: تأريخ الطبري 4/288، والكامل 3/276، وأنساب الأشراف 4/14.

والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك »(1).

كلّ هذا يكشف عن مدى تعلّق جماهير المسلمين بالحسين عليه‌السلام باعتباره رجل الساعة. ويقيناً لو أنّه بايع يزيد لما كان لابن الزبير وأضرابه وزن في المعارضة؛ لأنّهم حينئذ ما كانوا ليجدوا أنصاراً على ما يريدون.

وإذاً، فقد وجد الحسين عليه‌السلام نفسه وجهاً لوجه أمام دوره التاريخي؛ الحكم الاُموي بكلّ ما فيه من فساد وانحطاط ورجعية وظلم، والاُمّة المسلمة بذلّها وجوعها وحرمانها ومركزه العظيم في المسلمين، كلّ ذلك وضعه وجهاً لوجه أمام دوره التأريخي، وخطّط له المصير الذي يتحتّم عليه أن يضعه لنفسه، وعند ذلك أعلن ثورته بهذه الكلمات التي مرّت عليك، وقد أجمل فيها أسباب هذه الثورة؛ التهتك، والتطاول على الدين، والاستهتار بحقوق الشعب، هذه هي أسباب ثورة الحسين عليه‌السلام.

ويبدو أنّ يزيد بن معاوية أراد أن يخنق ثورة الحسين عليه‌السلام قبل اشتعالها، وذلك باغتياله في المدينة. وقد وردت إشارتان إلى ذلك في كتاب أورده اليعقوبي في تأريخه(2) من ابن عباس إلى يزيد بن معاوية صريحتان في الدلالة على أنّ يزيد دسّ رجالاً ليغتالوا الحسين عليه‌السلام في المدينة قبل مغادرته إيّاها إلى العراق؛ ولعلّ هذا ما يكشف لنا عن سبب خروج الحسين عليه‌السلام من المدينة بصورة سرّية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/288، والكامل 3/276، وأنساب الأشراف 4/14.

(2) انظر: تأريخ اليعقوبي 2/234 - 236، طبع النجف سنة 1964 م.

بواعث الثورة عند الحسين عليه‌السلام

إنّ العنصر الاجتماعي شديد البروز في ثورة الحسين عليه‌السلام، ويستطيع الباحث أن يُلاحظه فيها من بدايتها حتّى نهايتها، ويرى أنّ الحسين عليه‌السلام ثار من أجل الشعب المسلم.

لقد ثار على يزيد باعتباره مُمثّلاً للحكم الاُموي. هذا الحكم الذي جوّع الشعب المسلم، وصرف أموال هذا الشعب في اللذات والرشا، وشراء الضمائر وقمع الحركات التحرّرية. هذا الحكم الذي اضطهد المسلمين غير العرب وهدّدهم بالإفناء، ومزّق وحدة المسلمين العرب، وبعث بينهم العداوة والبغضاء. هذا الحكم الذي شرّد ذوي العقيدة السياسيّة التي لا تنسجم مع سياسة البيت الأموي، وقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وقطع عنهم الأرزاق، وصادر أموالهم.

هذا الحكم الذي شجّع القبيلة على حساب الكيان الاجتماعي للاُمّة المسلمة. هذا الحكم الذي عمل عن طريق مباشر تارة، وعن طريق غير مباشر تارة اُخرى على تقويض الحس الإنساني في الشعب، وقتل كلّ نزعة إلى التحرّر بواسطة التخدير الديني الكاذب.

كلّ هذا الانحطاط ثار عليه الحسين عليه‌السلام، وها هو يقول لأخيه محمد بن الحنفيّة في وصيته له: « إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في اُمّة جدّي، اُريد أن آمر

بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومَنْ ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يحكم الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين »(1). فالإصلاح في اُمّة جدّه صلى‌الله‌عليه‌وآله هو هدفه من الثورة.

وهنا شيء اُريد أن أنبه عليه في قوله: «... فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ ». إنّه لم يقل: فمَنْ قبلني لشرفي ومنزلتي في المسلمين، وقرابتي من رسول الله، وما إلى ذلك... لم يقل شيئاً من هذا، إنّ قبوله يكون بقبول الحقّ فهذا داع من دعاته، وحين يقبل الناس داعي الحقّ فإنّما يقبلونه لما يحمله إليهم من الحقّ والخير لا لنفسه، وفي هذا تعالٍٍ وتسامٍ عن التفاخر القبلي الذي كان رأس مال كلّ زعيم سياسي أو ديني في عصره عليه‌السلام.

\* \* \*

وظهر العصر الاجتماعي في ثورة الحسين عليه‌السلام أيضاً حين التقى مع الحرّ بن يزيد الرياحي، وقد كان ذلك بعد أن علم الحسين عليه‌السلام بتخاذل أهل العراق عنه بعد بيعتهم له، وبعد أن انتهى إليه نبأ قتل رسوله وسفيره إليهم مسلم بن عقيل، وبعد أن تبيّن له ولمَنْ معه المصير الرهيب الذي ينتظرهم جميعاً، فقد خطب الجيش الذي مع الحرّ قائلاً: « أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: مَنْ رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الفتوح - لابن أعثم 5/34، مناقب آل أبي طالب 3/241.

الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر ما عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ مَنْ غيّر. وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم، وإنّكم لا تُسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم عليّ بيعتكم تصيبوا رُشدكم؛ فإنّي الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ اُسوة.

وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنُكر؛ لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي مسلم بن عقيل، والمغرور مَنْ اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومَنْ نكث فإنّما ينكث على نفسه »(1). فهو هنا يبيّن لهم أسباب ثورته: إنّها الظلم، والاضطهاد والتجويع، وتحريف الدين، واختلاس أموال الاُمّة.

ثمّ انظر كيف لمّح لهم إلى ما يخشون، لقد علم أنّهم يخشون الثورة لخشيتهم الحرمان والتشريد، فهم يؤثرون حياتهم على ما فيها من انحطاط وهوان على محاولة التغيير خشية أن يفشلوا فيعانوا القسوة والضّنك.

لقد علم منهم هذا، فقال لهم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 3/307 و4/304 - 305، والكامل في التأريخ 3/280.

« فإنّي الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ». فبيّن لهم مركزه أوّلاً، ثمّ قال لهم: « نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ اُسوة »، فيما قد يحدث من اضطهاد وحرمان.

ويقف المتأمّل وقفة اُخرى عند قوله: « وأنا أحقّ من غيّر ». فيها تعبير عن شعوره بدوره التأريخي الذي يتحتّم عليه أن يقوم بأدائه.

ومرّة ثالثة حدّث الحسين عليه‌السلام أهل العراق عن ثورته ومبرراتها، وكانت خطبته هذه في الساعات الأخيرة التي سبقت اشتباك القتال بينه وبين الجيش الأموي. قالوا: إنّه عليه‌السلام ركب فرسه فاستنصتهم فلم ينصتوا، حتّى قال لهم: « ويلكم! ما عليكم أن تنصتوا لي فتسمعوا قولي؟! وإنّما أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فمَنْ أطاعني كان من المرشدين، ومَنْ عصاني كان من المهلكين، وكلّكم عاصٍ لأمري، غير مستمع لقولي، فقد مُلئت [ بطونكم ] من الحرام، وطُبع على قلوبكم. ويلكم! ألا تنصتون؟ ألا تسمعون؟ ».

فتلاوم أصحاب عمر بن سعد بينهم، وقالوا: « أنصتوا له. فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله، وصلّى على محمد وعلى الملائكة والأنبياء والرسل، وأبلغ في المقال ».

ثمّ قال: « تبّاً لكم أيّها الجماعة وترحاً! أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً أوقدناها على عدوّنا وعدوّكم، فأصبحتم إلباً على أوليائكم، ويداً عليهم لأعدائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، إلاّ الحرام من الدنيا أنالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه، من غير حدث كان منّا، ولا رأي تفيّل لنا.

فهلاّ - لكم الويلات! - إذ كرهتمونا وتركتمونا، [ تجهزتموها ] والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لمّا يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدُّبا، وتداعيتم إليها كتداعي الفراش. فسحقاً لكم يا عبيد الاُمّة، وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومُحرّفي الكتاب، ومُطفئي السنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومُبيدي عترة الأوصياء، ومُلحقي العهار بالنسب، ومُؤذي المؤمنين، وصُراخ أئمّة المُستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين، ولبئس ما قدّمت لهم أنفسهم وفي العذاب هم خالدون!

وأنتم ابن حرب وأشياعه تعضدون، وعنّا تخاذلون! أجل والله، الخذل فيكم معروف؛ وشجت عليه اُصولكم، وتأزّرت عليه فروعكم، وثبتت عليه قلوبكم، وغشيت صدوركم، فكنتم أخبث ثمرة شجيّ للناظر، وأكلة للغاصب، ألا لعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، فأنتم والله هم.

ألا وإنّ الدّعيّ ابن الدّعيّ قد ركز بين اثنتين؛ بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وجدود طابت وحجور طهرت، واُنوف حمية ونفوس أبيّة، لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام...

ألا وإنّي

قد أعذرت وأنذرت، ألا وإنّي زاحف بهذه الاُسرة مع قلّة العدد، وكثرة العدوّ، وخذلان الناصر.

ثمّ قال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فإن نهزِم فهزّامونَ قدماً |  | وإن نُغلب فغير مُغلّبينا |
| وما أن طبّنا جبنٌ ولكن |  | منايانا ودولة آخرينا |
| إذا ما الموتُ رفّعَ عن اُناسٍ |  | كلاكلَه أناخَ بآخرينا |
| فأفنى ذلكمْ سرواتُ قومي |  | كما أفنى القرونَ الغابرينا |
| فلو خلدَ الملوكُ إذاً خلدنا |  | ولو بقي الكرامُ إذاً بقينا |
| فقل للشامتينَ بنا أفيقوا |  | سيلقى الشامتونَ كما لقينا »(1) |

في هذه الخطبة حدّثهم الحسين عليه‌السلام عن أنفسهم، وعن واقعهم، وعن زيف حياتهم. حدّثهم كيف أنّهم استصرخوه على جلاّديهم ثمّ انكفؤوا مع هؤلاء الجلاّدين عليه. هؤلاء الجلاّدون الذين لم يسيروا فيهم بالعدل وإنّما حملوهم على ارتكاب الحرام في مقابل عيش خسيس. خسيس في نفسه، قليل دون الكفاية، خسيس لأنّه يعمل على مدّ الأجل بحياة حقيرة ذليلة، خسيس باعتباره أجراً لعمل خسيس.

وحدّثهم عن مواقفهم المتكرّرة من الحركات الإصلاحية، إنّهم دائماً يُظهرون العزم على الثورة والرغبة فيها، يُظهرون العزم على تطوير واقعهم السيِّئ حتّى إذا جدّ الجدّ انقلبوا جلاّدين للثورة بدل أن يكونوا وقوداً لها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نجد هذه الأبيات تارة مجتمعة في مصدر واحد، وتارة متفرقة. انظر: الاحتجاج - الشيخ الطبرسي 2/25، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد 3/344، النزاع والتخاصم - المقريزي/139، اللهوف في قتلى الطفوف - السيد ابن طاووس/59، تأريخ الطبري 2/292، البداية والنهاية 5/83، السيرة النبوية - لابن كثير 4/137.

حدّثهم عن أعدائه باعتبارهم أعدائهم أيضاً، ولكنّهم يُزيّفون حياتهم بأيديهم، يُحاربون محرّريهم، مَنْ يعلمون أنّهم المحرّرون. مع مَنْ؟ مع أعدائهم مُذلّيهم وظالميهم.

هذه الخطبة، بهذا الاُسلوب الثائر، وبما فيها من تقريع، وبما فيها من فضح لهم، كانت ملائمة تمام الملاءمة للجو النفسي السائد آنذاك على الجيش الاُموي. إنّ محاربي ذلك الجيش كانوا على علم بمَنْ يُحاربون، فأراد أن يُشعرهم بفداحة الإثم الذي يُقارفونه، وعظم الأمر الذي يُحاولونه، وأراد أن يُسمع المجتمع الإسلامي - هذا المجتمع الخاضع - صوته المدوّي. وبهذا اللون من البيان جعل الحسين عليه‌السلام من كلّ مسلم بركاناً مدمّراً على أهبة الانفجار.

## بواعث الثورة لدى الرأي العام

ولم يكن المغزى الاجتماعي للثورة مُدركاً من قبل الحسين عليه‌السلام وحده، فقد كان المسلمون يحسّون بضرورة العمل على تطوير واقعهم السيِّئ إلى واقع أحسن. أدرك هذا اُولئك الذين كتبوا إلى الحسين عليه‌السلام يطلبون منه القدوم إلى العراق، وأدرك هذا اُولئك الذين صبّروا أنفسهم على الموت معه.

والذين كتبوا إليه من العراق لم يكونوا أفراداً معدودين، وإنّما كانوا كثيرين جدّاً؛ ففي المؤرّخين مَنْ يقول: أنّ كُتب أهل العراق إلى الحسين عليه‌السلام زادت على مئة وخمسين كتاباً(1).

وقال مؤرّخون آخرون: إنّه قد اجتمع عند الحسين عليه‌السلام في نُوب

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الكامل في التاريخ 3/266 - 267. اختلف المؤرّخون وأصحاب السير والمقاتل في =

مُتفرّقة اثنا عشر ألف كتاب من أهل العراق.

ونستطيع أن نكوّن فكرة صحيحة عن ضخامة عدد الكتب التي دعت الحسين عليه‌السلام إلى القيام بالثورة إذا قرأنا هذا الخبر الذي رواه أغلب المؤرّخين، وهو: أنّ الحسين عليه‌السلام لمّا لقي الحرّ بن يزيد كان من جملة ما قاله للحرّ ومَنْ معه: « أمّا بعد، أيّها الناس، فإنّكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان. وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقّنا، وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم، وقدمت به عليّ رسلكم، انصرفت عنكم ».

فقال له الحرّ بن يزيد: إنّا والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر.

فقال الحسين عليه‌السلام: « يا عقبة بن سمعان، أخرج الخرجين اللذين فيهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= عدد الكتب التي وردت إلى الحسين عليه‌السلام من أهل الكوفة، وكذلك اختلفوا في بعض ألفاظها، وبيد مَنْ أرسلوها. ولسنا بصدد بيان كلّ ما جاء في بطون الكتب، بل نشير إلى نموذج واحد منها على سبيل المثال، ونحيل القارئ إلى مصادرها الأصلية؛ فقد ذكر ابن أعثم في الفتوح 3/32 نحو خمسين ومئة، كلّ كتاب من رجلين وثلاثة وأربعة، ومثله في مقتل الحسين - للخوارزمي 1/195، الإرشاد 2/38، وفي اللهوف/15 « فورد عليه في يوم واحد ستمئة كتاب، وتواترت الكتب حتّى اجتمع عنده في نوّب مُتفرّقة اثنا عشر ألف كتاب ».

انظر: مقتل الحسين - لأبي مخنف/16، بلفظ: فحملوا معهم نحواً من ثلاثة وخمسين صحيفة... ومثله في تأريخ الطبري 4/262، الكامل في التاريخ - ابن الأثير 4/10 و2/532، سمط النجوم العوالي 3/58، الأخبار الطوال/229، تأريخ اليعقوبي 2/242.

كتبهم إليّ ». فأخرج خرجين مملوءين صحفاً فنشرها بين أيديهم(1).

من هنا نستطيع أن نكوّن فكرة عن ضخامة عدد الكتب التي اُرسلت إلى الحسين عليه‌السلام تدعوه إلى الثورة وتعده بالنصر. ونلاحظ من ناحية اُخرى أنّ هذه الكتب ليست من أفراد؛ فقد كانت كتباً من الرجل والاثنين والأربعة والعشرة(2)، فلسنا أمام حركة فردية، وإنّما نحن أمام حركة جماعية قام بها المجتمع العراقي، أو الكثرة الساحقة من هذا المجتمع.

وهذا نموذج للكتب التي وردت إليه: « سلام عليكم. أمّا بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوّك وعدوّ أبيك من قبل، الجبّار العنيد، الغشوم الظلوم، الذي انتزى على هذه الأمّة فابتزّها أمرها واغتصبها فيئها، وتأمّر عليها بغير رضاً منها، ثمّ قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وعتاتها، فبعداً له

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/303، والكامل في التاريخ 3/280، أعلام الورى/229، الأخبار الطوال/249.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/262، وجاء في أعيان الشيعة: « وأنفذوا قيس بن مسهر الصيداوي، وعبد الرحمن بن عبد الله بن شداد الأرحبي، وعمارة بن عبد الله السلولي إلى الحسين عليه‌السلام ومعهم نحو مئة وخمسين صحيفة من الرجل والاثنين والأربعة والعشرة، وهو مع ذلك يتأبّى ولا يجيبهم، فورد عليه في يوم واحد ستمئة كتاب، وتواترت الكتب حتّى اجتمع عنده في نوّب متفرّقة اثنا عشر ألف كتاب ».

انظر: مقتل الحسين - لأبي مخنف /16 بلفظ: فحملوا معهم نحواً من ثلاثة وخمسين صحيفة، ومثله في تأريخ الطبري 4/262، الكامل في التأريخ - ابن الأثير 4/10 و2/533، سمط النجوم العوالي 3/58، الأخبار الطوال/229، تأريخ اليعقوبي 2/242.

كما بعدت ثمود! وإنّه ليس علينا إمام غيرك فأقبل لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنّك أقبلت أخرجناه حتّى يلحق بالشام إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته يابن رسول الله »(1).

هذا نموذج للكتب التي أرسلت إلى الحسين عليه‌السلام تدعوه إلى الثورة، ويبرز العامل الاجتماعي فيه بوضوح عظيم، فسياسة الإرهاب والتجويع هي التي حملت هؤلاء الناس على الثورة، وكان الحسين عليه‌السلام هو الشخصيّة الوحيدة التي يمكن أن تتزعّم ثورة كهذه؛ إذ لم يكن في الزعماء المسلمين زعيم غيره يتجاوب مع آلام الشعب وآماله ومطامحه.

## بواعث الثورة لدى الثائرين

فإذا نحن تجاوزنا هؤلاء الداعين إلى الثورة ثمّ المتخاذلين عنها إلى اُولئك الذين ثبتوا ثائرين مع الحسين عليه‌السلام إلى اللحظة الأخيرة. اللحظة التي توّجوا فيها عملهم الثوري بسقوطهم صرعى رأيناهم يحملون نفس الفكرة، ويبرّرون ثورتهم ويدعون الجيش الاُموي إلى تأييدهم بنفس تلك المبرّرات؛ الظلم الاجتماعي، وسياسة الإرهاب، والإذلال التي يمارسها الحاكمون.

هذا زهير بن القين خرج على فرس له في السلاح، فخطب الجيش الاُموي

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/261 - 262، الكامل في التاريخ 3/266.

قائلاً: « يا أهل الكوفة، نذارِ لكم من عذاب الله نذارِ، إنّ حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن إخوة على دين واحد، وملّة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا نحن اُمّة وأنتم اُمّة.

إنّ الله قد ابتلانا وإيّاكم بذريّة نبيّه محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله؛ لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد؛ فإنّكم لا تدركون منهما إلاّ بسوء عمر سلطانهما كلّه؛ لَيُسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويُمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة وأشباهه »(1).

فسبّوه وأثنوا على ابن زياد، وقالوا: والله لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومَنْ معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/324، مقتل الحسين - لأبي مخنف/119.

الفصل الثالث: آثار الثورة في الحياة الإسلاميّة

«... إنّ فاجعة كربلاء قد دخلت في الضمير الإسلامي آنذاك، وانفعل بها المجتمع الإسلامي بصفة عامّة انفعالاً عميقاً. ولقد كان هذا كفيلاً بأن يبثّ في النفس ما يدفعها إلى الدفاع عن كرامتها، وأن يبعث في الروح النضالية الهامدة جذوة جديدة، وأن يرسل في الضمير الشلو هزّة تحييه...».

تمهيد

لقد درسنا فيما تقدّم بعض جوانب ثورة الحسين عليه‌السلام على الحكم الاُموي، فدرسنا ظروفها الاجتماعيّة والنفسية، ودرسنا أسبابها وغاياتها، وفي خلال حديثنا هذا صحبنا الحسين عليه‌السلام وآله وصحبه في كثير من مراحل عملهم الثوري، ولم نتحدّث عن عنصر المأساة حديثاً واسعاً؛ لأنّ ذلك ليس من همّنا كما ذكرنا بين يدي هذه الفصول، واكتفينا من ذلك بالإشارة التي يقتضيها سياق البحث والاستنتاج.

ونريد الآن أن نتحدّث عن نتائج هذه الثورة وعن عطائها الإنساني، هل غيّرت هذه الثورة شيئاً من مواقع المجتمع الذي انفجرت فيه؟ وهل حققت نصراً لصانعيها؟ وهل حطّمت أعداءها؟

هذه أسئلة تثور على شفتي كلّ مَنْ يقرأ أو يسمع عن ثورة من الثورات، ويتوقّف الحكم على الثورة بالنجاح أو الفشل على ما تقدّمه الوثائق من أجوبة على هذا الأسئلة، فهل كانت ثورة الحسين عليه‌السلام ناجحة، أو أنّها كانت ثورة فاشلة ككثير من الثورات التي تشتعل ثمّ تنطفئ، ولا تخلف وراءها إلاّ ذكريات حزينة تراود بين الحين والحين أحبّاء صرعاها؟

قد يُقال: إنّها ثورة فاشلة تماماً؛ فهي لم تحقق نصراً سياسياً آنيّاً يُطوّر الواقع الإسلامي إلى حال أحسن من الحال التي كان عليها قبل هذه الثورة.

لقد بقي

المسلمون بعد الثورة كما كانوا قبلها قطيعاً يُساق بالقوّة إلى حيث يُراد له لا إلى حيث يُريد، ويُساس بالتجويع والإرهاب.

ولقد ازداد أعداء هذه الثورة قوّة على قوّتهم فلم تنل منهم شيئاً، وأمّا صانعوها فقد أكلتهم نارها، وشملت أعقابهم مئات من السنين؛ فحملت إليهم الموت والذلّ، والتشريد والحرمان، فهي فاشلة على الصعيد الاجتماعي، وهي فاشلة على الصعيد الفردي.

ولكنّ الحقّ غير ذلك في عين الباحث البصير، فإنّ علينا لكي نفهم ثورة الحسين عليه‌السلام أن نبحث عن أهدافها ونتائجها في غير النصر الآني الحاسم، وفي غير الاستيلاء على مقاليد الحكم والسلطان، فإنّ ما بين أيدينا من النصوص دالّ على أنّ الحسين عليه‌السلام كان عالماً بالمصير الذي ينتظره وينتظر مَنْ معه.

قال لابن الزبير حين طلب منه إعلان الثورة في مكة: « وأيم الله، لو كنت في جُحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتّى يقضوا بي حاجتهم. والله ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت »(1).

وكان يقول: « والله، لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم مَنْ يذلّهم حتّى يكونوا أذلّ من فرام المرأة »(2).

وأجمع نصحاؤه - حين شاع نبأ عزمه على المسير إلى العراق - على أنّه

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/289 و296، والكامل في التأريخ 3/275 - 276، والأخبار الطوال/223.

(2) انظر المصادر نفسها.

فاشل حتماً في الوصول إلى نتيجة سريعة من ثورته، فقد كانت قوى المال والسلاح مُتّحدة ضدّه، فكيف ينتصر؟ وفزعوا إليه ينصحونه بالمكوث في مكة، أو الخروج عنها إلى غير العراق من بلاد الله؛ من هؤلاء عمر بن عبد الرحمن المخزومي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن الحنفيّة، وعبد الله بن جعفر.

ولكنّه أبى عليهم ما أشاروا به، فقال لعبد الرحمن بن الحرث: « جزاك الله خيراً يابن عمّ، فقد والله علمت أنّك مشيت بنصح، وتكلّمت بعقل، ومهما يقضِ الله من أمر يكن، أخذتُ برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمد مُشير، وأنصح ناصح »(1).

وقال لعبد الله بن عباس: « يابن عمّ، إنّي والله لأعلم أنّك ناصح مُشفق، ولكنّي قد أزمعت وأجمعت على المسير »(2).

وقال في موقف آخر: « لأن اُقتل بمكان كذا أو كذا أحبّ إليّ من أن تُستحلّ حرمتها بي - يعني الحرم - »(3).

وقال لعبد الله بن عمر وقد نصحه بالصلح والمهادنة مع يزيد:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/278، والكامل في التأريخ 3/275، والأخبار الطوال/223.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/278، والكامل في التأريخ 3/275 - 276.

(3) انظر: أخبار مكة - محمد بن عبد الله الأزرقي 2/132، طبعة دار الثقافة في مكة المكرمة.

« يا أبا عبد الرحمن، أما علمت أنّ من هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريّا اُهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل؟ اتّق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعَن نصرتي »(1).

وأجاب الفرزدق حين قال له: قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني اُميّة: « صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكلّ يوم ربّنا في شأن. إن نزل القضاء بما نحبّ فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد مَنْ كان الحقّ نيّته، والتقوى سريرته »(2).

وورد إليه كتاب عمر بن سعيد بن العاص عامل المدينة يُمنّيه في الأمان والصلة، والبرّ وحسن الجوار، وأرسله إليه مع أخيه يحيى بن سعيد وعبد الله بن جعفر، فجهدا أن يرجع فلم يفعل، ومضى وهو يقول: « قد غسلت يدي من الحياة، وعزمت على تنفيذ أمر الله ».

وهكذا ما نزل منزلاً إلاّ ولقي مَنْ ينصحه بعدم الخروج إلى العراق، ويذكر له من أنباء أهله ما يكشف عن خذلانهم له وانكفائهم عليه، حتّى أتاه خبر قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وهو بالثعلبية، فأهاب به بعض أصحابه بالرجوع فأبى، فلمّا كان بزُبالة(3) أتاه خبر قتل أخيه من الرضاعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الفتوح - لابن أعثم 5/42، مقتل الإمام الحسين عليه‌السلام 1/192، اللهوف/12.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/290، والكامل في التأريخ 3/271.

(3) زُبالة (بضم الزاء المعجمة): منزل بطريق مكة من الكوفة، يبعد عن الشقوق أحد وعشرون ميلاً، فيها حصن وجامع لبني أسد، سمّي الموضع باسم زُبالة بنت مسعر، امرأة من العمالقة، ويوم زبالة من أيام =

عبد الله بن يقطر(1)، فخرج حينذاك إلى مَنْ صحبه من الناس وقال: « أمّا بعد، فإنّه قد أتاني خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمَنْ أحبّ منكم الانصراف فلينصرف في غير حرج، ليس عليه منّا ذمام ».

فتفرّق عنه الناس تفرّقاً، فأخذوا يميناً وشمالاً حتّى بقي في أصحابه الذي جاؤوا معه من المدينة، وإنّما فعل ذلك لأنّه ظنّ إنّما اتّبعه الأعراب لأنّهم ظنّوا أنّه يأتي بلداً قد استقامت طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلاّ وهم يعلمون علامَ يقدمون. وقد علم أنّهم إذا بيّن لهم لم يصحبه إلاّ مَنْ يريد مواساته والموت معه(2).

وأجاب مَنْ نصحه بالرجوع إلى مأمنه من منزله ذاك بعد أن تبيّن له الأمر، فقال له: « يا عبد الله، إنّه ليس يخفى عليّ أنّ الرأي ما رأيت، ولكنّ الله لا يُغلب على أمره »(3).

\* \* \*

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= العرب، ونسب إلى المكان جماعة من المُحدّثين. انظر: معجم البلدان 3/129 وذكر هذا الموضع الطبري في تأريخه 6/226 و4/300 طبعة اُخرى، ومقتل الحسين - للخوارزمي 1/229، ومقتل الحسين - لأبي مخنف/78، اللهوف/32، عوالم العلوم 17/224.

(1) عبد الله بن يقطر: رضيع الحسين عليه‌السلام، كان أحد رسله إلى الكوفة، قبض عليه عبيد الله بن زياد ورمى به من فوق القصر فتكسّر، وقام إليه عمرو الأزدي فذبحه، ويُقال: بل فعل ذلك عبد الملك بن عمير اللخمي.

انظر: الإرشاد 2/70، وهو الذي بعثه الإمام الحسين عليه‌السلام إلى أهل الكوفة، علماً بأنّ الشيخ المفيد ذكره بلفظ: بل بعث أخاه من الرضاعة. الطبري في تأريخه 5/398، وقد ضبطه بالباء، وكذلك ابن الأثير في الكامل 4/42، القاموس المحيط/376 مثله، وأبو داود في رجاله/125، 920 أيضاً.

(2) انظر: تاريخ الطبري 4/300، والكامل في التأريخ 3/378.

(3) انظر المصدران نفساهما.

هذه النُذر كلّها تشير إلى أنّه كان عالماً بالمصير الذي ينتظره. وإذاً فليس لنا أن نبحث عن أهداف ثورة الحسين عليه‌السلام ونتائجها في الاستيلاء على مقاليد الحكم والسلطان؛ لأنّه لم يستهدف من ثورته نصراً آنيّاً، ولأنّه كان مُدركاً لاستحالة الحصول على نصر آني.

وقد يبدو لنا هذا غريباً جدّاً، فكيف يسير إنسان إلى الموت مع طائفة من أخلص أصحابه طائعاً مختاراً، وكيف يُحارب في سبيل قضية يعلم أنّها خاسرة، وكيف يمكّن لعدوّه من نفسه هذا التمكين؟ هذه علامات استفهام كثيرة نبحث عن أجوبتها.

والذي اعتقده هو أنّ وضع المجتمع الإسلامي إذ ذاك كان يتطلّب القيام بعمل انتحاري فاجع يلهب الروح النضالية في هذا المجتمع، ويتضمّن أسمى مراتب التضحية ونكران الذات في سبيل المبدأ؛ لكي يكون مناراً لجميع الثائرين حين تلوح لهم وعورة الطريق، وتضمحلّ عندهم احتمالات الفوز، وتُرجّح عندهم إمارات الفشل والخذلان.

لقد كان قادة المجتمع وعامّة أفراده إذ ذاك يقعدون عن أي عمل إيجابي لتطوير واقعهم السيِّئ بمجرد أن يلوح لهم ما قد يُعانون في سبيل ذلك من عذاب، وما قد يضطّرون إلى بذله من تضحيات. وكانوا يقعدون عن القيام بأي عمل إيجابي بمجرد أن تُحقّق لهم السلطة الحاكمة بعض المنافع القريبة.

ولم يكن هذا خُلق السادة وحدهم، بل كان خُلق عامّة الناس أيضاً؛ لذا رأينا تخاذل مجتمع بأسره عن نصر قضيته حين أوقع ابن زياد بمسلم بن عقيل، وكيف أخذت المرأة تخذّل ابنها وزوجها وأخاها، وكيف أخذ الرجل يخذّل ابنه وأخاه وأباه.

لقد كان اُولئك الذين قالوا للحسين عليه‌السلام: « قلوبهم معك وسيوفهم عليك »(1) صادقين في تصوير ذلك المجتمع؛ فإنّ قلوب الناس كانت معه لأنّهم يحبّون أن يصيروا إلى حال أحسن من حالهم، ولكنّهم حين علموا أنّ ذلك موقوف على بذل تضحيات قد تصل إلى بذل الحياة، انكمشوا وسلّموا سيوفهم في خدمة الذين يدفعون لهم أجر قتالهم لهذا الذي جاء بدعوة منهم ليحرّرهم.

فحين استيقن ابن زياد أنّ الحسين عليه‌السلام ماضٍ فيما اعتزمه جمع الناس في مسجد الكوفة وخطبهم، ومدح يزيد وأباه وذكر حسن سيرتهما وجميل أثرهما، ووعد الناس بتوفير العطاء لهم وزادهم في اُعطياتهم مئة مئة، وأمرهم بالاستعداد والخروج لحرب الحسين عليه‌السلام(2). هذا هو موقف الشعب من الحركات العامّة التي يتوقّف نجاحها على التضحيات، وأمّا موقف الزعماء فقد عرفته.

وهذه صورة اُخرى منها قدّمها لنا عمر بن سعد أمير الجيش الاُموي؛ فلقد دار أمره بين أن يُحارب الحسين عليه‌السلام وبين أن يفقد إمرة الرّي، فاختار الأولى على الثانية(3).

ولقد حاوره الحسين عليه‌السلام في كربلاء، فقال له: « ويلك يابن سعد! أما تتّقي الله الذي إليه معادك؟ أتقاتلني وأنا ابن عمّك؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي؛ فإنّه أقرب لك إلى الله ».

فقال ابن سعد: أخاف أن تُهدم داري.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/290 و6/218 و3/296 طبعة اُخرى، الكامل في التاريخ - لابن الأثير 4/16 و2/547، الفتوح - لابن أعثم 3/79، مقتل الحسين - للخوارزمي 1/223.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/341، الكامل في التاريخ - لابن الأثير 4/554، الفتوح - لابن أعثم 3/179، مقتل الحسين - للخوارزمي 1/323.

(3) انظر: تأريخ الطبري 4/309.

فقال الحسين عليه‌السلام: « أنا أبنيها لك ».

فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

فقال الحسين عليه‌السلام: « أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز ».

فقال: لي عيال وأخاف عليهم.

وهنا اتّضح للحسين عليه‌السلام أنّه رجل ميّت القلب، ميّت الضمير؛ فإنسان يقيس مصير مجتمعه بهذا اللون من القياس ليس إنساناً سوي التكوين النفسي، فقال له الحسين عليه‌السلام: « ما لك! ذبحك الله على فراشك عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك، فوالله إنّي لأرجو ألاّ تأكل من بُرّ العراق إلاّ يسيراً ».

فقال مستهزئاً: في الشعير كفاية(1).

هذا هو المجتمع الإسلامي في أيام الحسين عليه‌السلام. مجتمع مريض يُشترى ويُباع بقليل من المال وكثير من العذاب والإرهاب، وما كان من الممكن أن تُردّ إلى هذا المجتمع إنسانيته وكرامته، وما كان من الممكن أن يُنبّه إلى زيف وحقارة وجوده، وما كان من الممكن أن تُوقظ فيه روحه النضالية الهامدة إلاّ بعمل انتحاري فاجع يتضمّن أسمى آيات التضحية والكرامة والدفاع عن المبدأ والموت في سبيله، وهكذا كان.

إنّ الحسين عليه‌السلام لم يكن ذا مال ليُنافس الاُمويِّين وبيدهم خزائن الأموال، ولم يكن ليتجافى عن روح الإسلام وتعاليمه فيجلب الناس إليه بالعنف والإرهاب؛

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/341، الكامل في التاريخ - لابن الأثير 3/283 و4/554، الفتوح - لابن أعثم 5/103، مقتل الحسين - للخوارزمي 1/245، البداية والنهاية 8/189.

ولذا فليس من المعقول أن يطلب نصراً سياسياً آنيّاً في مجتمع لا يُحارب إلاّ في سبيل المال وبالمال، أو بالقسر والإرهاب، ولكن كان في وسعه أن يقوم بعمله الذي قام به ليهزّ أعماق هذا المجتمع، وليُقدّم له مثلاً أعلى طُبع في ضمائر أفراده بدم ونار.

وإذا نحن تقصّينا أسماء مَنْ قُتل مع الحسين عليه‌السلام في كربلاء وجدنا أصحابه ينتمون إلى معظم القبائل العربيّة، فقلّ أن توجد قبيلة عربية لم يُقتل مع الحسين عليه‌السلام منها واحد أو اثنان.

ومن هنا يمكن القول بأنّ فاجعة كربلاء دخلت في الضمير الإسلامي آنذاك، وانفعل بها المجتمع الإسلامي بصفة عامّة انفعالاً عميقاً. ولقد كان هذا كفيلاً بأن يبعث في الروح النضالية الهامدة جذوة جديدة، وأن يبعث في الضمير الشّلو هزّة تُحييه، وأن يبعث في النفس ما يبعثها إلى الدّفاع عن كرامتها.

وهذه الملاحظات تجعل من المعيّن علينا ألاّ نبحث عن نتائج ثورة الحسين عليه‌السلام فيما تعوّدناه في سائر الثورات، وإنّما نلتمس نتائجها في الميادين التالية:

1 - تحطيم الإطار الديني المُزيّف الذي كان الاُمويّون وأعوانهم يُحيطون به سلطانهم، وفضح الرّوح اللادنية الجاهليّة التي كانت تُوجّه الحكم الاُموي.

2 - بثّ الشعور بالإثم في نفس كلّ فرد، وهذا الشعور الذي يتحوّل إلى نقد ذاتي من الشخص لنفسه يقوم على ضوئه موقفه من الحياة والمجتمع.

3 - خلق مناقبية جديدة للإنسان العربي المسلم، وفتح عيني هذا الإنسان على عوالم مضيئة باهرة.

4 - بعث الرّوح النضالية في الإنسان المسلم من أجل إرسال المجتمع على قواعد جديدة، ومن أجل ردّ اعتباره الإنساني إليه.

## تحطيم الإطار الديني

قد رأينا في فصل سابق كيف استغل الاُمويّون الدين لإيهام رعاياهم أنّهم يحكمون بتفويض إلهي، وأنّهم خلفاء رسول الله حقّاً، هادفين من وراء ذلك إلى أن يجعلوا من الثورة عليهم عملاً محظوراً وإن ظلموا وجوّعوا وشرّدوا المؤمنين، وأن يجعلوا لأنفسهم باسم الدين الحقّ في قمع أيّ تمرّد تقوم به جماعة من الناس وإن كانت محقّة في طلباتها.

وقد رأينا أنّهم استعانوا على ذلك بطائفة كبيرة من الأحاديث المكذوبة على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، وقد وضعها ونسبها إلى النبي اُولئك النفر من تجّار الدين الذين تقدّم ذكر بعضهم والذين كانوا يؤلّفون جهاز الدعاية عند معاوية بن أبي سفيان، واستعان معاوية بهؤلاء وغيرهم في عقد مجالس القصص والوعظ التي دأب القصّاصون والوعّاظ على أن يدسّوا فيها هذه الأحاديث، ويبشّروا فيها بهذه الأفكار فيؤيّدون بها الحكم الاُموي عن طريق الدين.

وقد جعل معاوية القصص عملاً رسميّاً تابعاً للدولة، فرتّب قصّاصاً يومية في المحافل والمساجد، وأنفق عليهم من مال الدولة. قال الليث بن سعد: « وأمّا قصص الخاصّة فهو الذي أوجده معاوية، ولّى

رجلاً على القصص فإذا سلّم من صلاة الصبح، جلس وذكر الله عزّ وجلّ وحمده ومجّده، وصلّى على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، ودعا للخليفة ولأهل بيته وحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة »(1).

وعن طريق هذه المؤسسات (الأحاديث النبوية، الشعر، الفرق الدينية، القصص) آمن الناس إيماناً غيبيّاً بالحكم الاُموي، وبحرمة الثورة عليه وإن خرج عن حدود الدين الذي هو المبرّر الوحيد لوجوده.

ولقد عملت هذه المؤسسات عملها السّام، وأعطت ثمارها الخبيثة في صورة تسليم تام، وخضوع أعمى للحكم الاُموي مهما اقترف من مظالم. وهذه بعض الشواهد على ذلك من ثورة الحسين عليه‌السلام نفسها؛ فهذا ابن زياد يقول للناس في خطبته التي خذّل فيها عن مسلم بن عقيل: « اعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمّتكم »(2).

وهذا مسلم بن عمرو الباهلي - وهو من أصحاب ابن زياد - طلب منه مسلم بن عقيل بعد أن قبض عليه أن يسقيه من جرّة بباب القصر، فقال له: « أتراها ما أبردها؟ والله لا تذوق منها قطرة حتّى تذوق الحميم في نار جهنّم ».

فقال له مسلم: مَنْ أنت؟

فقال: أنا مَنْ عرف الحقّ إذ تركته، ونصح الاُمّة والإمام إذ غششته، وسمع

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: فجر الإسلام/159.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/275.

وأطاع إذ عصيته(1).

وهذا عمرو بن الحجاج الزبيدي - من قادة الجيش الاُموي في كربلاء - صاح قائلاً حين رأى بعض أفراد جيشه ينسلّون إلى الحسين عليه‌السلام ويقاتلون دونه: « يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل مَنْ مرق من الدين وخالف الإمام »(2).

هذه الشواهد وغيرها كثير تكشف عن أنّ المسؤولين الاُمويِّين وأعوانهم كانوا يطالبون الناس بالقيام بفرض ديني حين طلبوا منهم أن يحاربوا الحسين عليه‌السلام. ولا بدّ أنّهم استندوا في طلبهم هذا إلى ما عهدوه من السند الديني للحكم الاُموي في نفوس المسلمين.

وقد كان حريّاً بهذه العقيدة - إذا عمّت جميع طبقات المجتمع، واستحكمت في أذهان الناس دون أن تُكافح، ودون أن يظهر في الناس مَنْ يفضح زيفها وبُعدها عن الدين - أن تقضي تماماً على كلّ محاولة مقبلة يُراد منها تطوير الواقع الإسلامي، وتقويض أركان الحكم الفاسد الذي يُمارسه الاُمويّون وأعوانهم.

وكلّما تقدّم الزمن بهذه العقيدة دون أن تجد مُناوئاً تزداد استحكاماً وتأصّلاً في النفوس، وذلك كفيل في النهاية بحمل المجتمع على مُناوئة كلّ حركة تحرّرية.

ويقتضينا الإنصاف للواقع أن نُنبه إلى أنّ دعايات الاُمويِّين الدينية التي هدفوا منها إلى دعم حكمهم الفاسد فشلت في التأثير على الخوارج؛ فقد كان الخوارج يشكّلون القوّة الثورية الوحيدة في المجتمع الإسلامي، وكانوا وحدهم - تقريباً -

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/281 - 282.

(2) انظر: تاريخ الطبري 4/331، الدولة العربيّة وسقوطها؛ فلقد ذكر شواهد من تغلغل هذه الفكرة في المجتمع السوري.

القائمين بجميع الحركات التحرريّة ضدّ الحكم الاُموي منذ استتباب الأمر لمعاوية حتّى ثورة الحسين عليه‌السلام، إلاّ أنّ حركات الخوارج التمرّدية لم تكن هي تلك الثورة التي يُرجى منها بثّ قوى جديدة ومفاهيم جديدة في المجتمع الإسلامي، ولم تكن هي الثورة التي يُرجى منها تحطيم الإطار الديني للحكم الاُموي، ولم تكن هذه الحركات التمرّدية لتُؤثّر سوى هزّات خفيفة جدّاً في السطح الاجتماعي ولا تصل إلى القاع أبداً.

وكانت هذه الهزّات تحدث في نطاق ضيّق لا يتعدّى حدود المدينة أو القرية التي يحدث فيها التمرّد والاشتباك المسلح بينهم وبين الفرق العسكرية الاُمويّة، ثمّ لا يلبث السطح الاجتماعي أن يعود إلى ما كان عليه دون أن يتغيّر من حياة الناس ومفاهيمهم - حتّى في مركز الحركة - أي شيء. والسبب في ذلك هو أنّ المجتمع الإسلامي لم يكن يتجاوب معهم، بل كان يُحاربهم ويقف ضدّهم.

ويمكن أن نقول بوثوق: إنّ المجتمع الإسلامي لم يُحارب مع حكّامه الاُمويِّين عن رغبة واندفاع إلاّ ضدّ الخوارج. وطبيعي أنّه حين لا يتجاوب المجتمع نفسيّاً وعقائديّاً مع القائمين بالثورة، لا يمكن أن تنجح تلك الثورة مطلقاً على الصعيد الاجتماعي والفكري، فلا يمكن أن تُحدث تغييراً في التركيب الاجتماعي؛ لأنّ المجتمع يخذلها ويُناوئها، ولا يمكن أن تُحدث تغييراً في المفاهيم الثقافية العقائديّة؛ لأنّ المجتمع يرفض تعاليمها ونزعتها العقائديّة.

يُضاف إلى هذا أنّ الخوارج كانوا قُساة جدّاً، وعلى جانب كبير من الرعونة والرغبة في سفك الدم؛ فلم يكونوا يعفون عن قتل أيّ إنسان يُصادفونه دون أن يلقوا بالاً إلى كونه مُحارباً أو مُسالماً، رجلاً أو امرأة أو طفلاً.

وإنّ تشكيلات الخوارج كانت تمتصّ كثيراً من المُجرمين ونهّازي الفرص والطامعين في النّهب(1). كلّ هذا جعل المجتمع الإسلامي يقف ضدّهم؛ ولذلك فلم تكن ثوراتهم المُتكررة لتُحطّم الإطار الديني الذي أحاط به الاُمويّون سلطانهم.

لقد كان أضمن السبل لتحطيم هذا الإطار الديني هو أن يثور عليه رجل ذو مركز ديني مسلّم به عند الاُمّة المسلمة بأسرها؛ فثورة مثل هذا الرجل كفيلة بأن تفضح الزخرف الديني الذي يتظاهر به الحكّام الاُمويّون، وأن تكشف هذا الحكم على حقيقته وجاهليّته وبُعده الكبير عن مفاهيم الإسلام.

ولم يكن هذا الرجل إلاّ الحسين عليه‌السلام؛ فقد كان له في قلوب المسلمين جميعاً رصيد من الحبّ والإجلال عظيم، وقد رأيت مصداق ذلك عند الحديث عن إقامته في مكة، ثمّ عند الحديث عن خروجه منها إلى العراق. كان هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يفضح الحكّام الاُمويِّين ويكشف حقائقهم.

وقد وضع موقف الاُمويِّين من ثورة الحسين عليه‌السلام خطّاً فاصلاً بين الدين الإسلامي والحكم الاُموي، وأظهر هذا الحكم بمظهره الحقيقي وكشف زيفه؛ فالاُمويّون الذين لم يرضوا من الحسين عليه‌السلام إلاّ بالقتل، قتله وقتل آله آل علي وآل عقيل وأبنائهم، وقتل طائفة من صفوة أصحابهم تُقىً وديناً وحرصاً على مصلحة المسلمين، ثمّ منعهم الماء عنهم حتّى قتلوهم عطشاً، وفيهم الطفل الرضيع والمرأة المرضع، ثمّ ما فعلوه بعد ذلك من رضّ أجسادهم بحوافر الخيل، وسبي

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الدولة العربيّة/103، « وكان قسم منهم ليس خيراً من اللصوص العاديين إلاّ بالاسم، بحيث يستحقّون أن يُعاملوا كاللصوص ». وبروكلمان - تأريخ الشعوب الإسلاميّة/216، الطبعة الخامسة - دار العلم للملايين - بيروت/1968.

بنات النبوّة على الوجه المعروف، حاسرات بلا غطاء ولا وطاء، ونقل رؤوس القتلى مع السبايا من كربلاء إلى الكوفة إلى الشام، كلّ ذلك جرّد الاُمويِّين من كلّ صبغة دينية وإنسانيّة، بل جعلهم ضدّ الدين والإنسانيّة.

لقد كانت الرؤوس والسبايا، وأحاديث الجنود العائدين دلائل حيّة بليغة الأداء، تعمل على تقويض كلّ ركيزة دينية للحكم الاُموي في نفوس المسلمين.

\* \* \*

ولقد زاد الحسين عليه‌السلام حراجة مركزهم حين لم يصرّ على القتال، لقد طلب من الحرّ بن يزيد - وهو أوّل قائد اُموي واجه الحسين عليه‌السلام بألف مُحارب - أن يتركه ليرجع من حيث أتى، فلم يُجبه الحرّ غلى ذلك، وكانت الأوامر تقضي عليه ألاّ يُفارق الحسين عليه‌السلام حتّى يُقدمه الكوفة إلى ابن زياد.

ومن نافلة القول أن نذكر أنّ الحسين عليه‌السلام رفض ذلك(1)، حتّى إذا قدم عمر بن سعد قائد الجيش الاُموي فاوضه الحسين عليه‌السلام طويلاً، وأقنعه بأن يُمسك الطرفان عن القتال ويرجع الحسين من حيث أتى، أو يذهب إلى حيث يريد من بلاد الله.

وكتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد فأبى ابن زياد ذلك، وكتب إليه: « أمّا بعد، فإنّي لم أبعثك إلى الحسين لتكفّ عنه، ولا تطاوله ولا لتُمنيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندي شافعاً. انظر: فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتّى

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/303 - 304، والكامل في التأريخ 3/280.

تقتلهم وتُمثّل بهم؛ فإنّهم لذلك مستحقّون. فإن قُتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره؛ فإنّه عاقّ مُشاق، قاطع ظلوم، وليس في هذا أن يضرّ بعد الموت شيئاً، ولكن عليّ قول لو قد قتلته فعلت هذا به »(1).

لقد أعطاهم الحسين عليه‌السلام فرصة يتّقون بها ارتكاب قتله وقتل آله وصحبه، ولكنّهم أبوا إلاّ القتل، وأصروا عليه، فزادهم ذلك فضيحة في المسلمين.

وأغتنم هذه المناسبة هناك فأقول: يتحدّث بعض المؤرّخين عن أنّ الحسين عليه‌السلام قال لابن سعد: اذهب بي إلى يزيد أضع يدي في يده. والذي نقطع به هو أنّ الحسين عليه‌السلام لم يقل هذا، ولو أراد ذلك لما صار إلى حالته التي صار إليها. إنّ جميع الدلائل تشير إلى أنّ هذا الخبر إنّما هو من وضع الاُمويِّين وأعوانهم، أرادوا أن يُوهموا الناس أنّ الحسين عليه‌السلام خشع وخضع وحنى رأسه لسلطان يزيد؛ ليشوّهوا بذلك الموقف البطولي الذي وقفه هو وأصحابه في كربلاء.

وقد حرص الاُمويّون وأعوانهم على إخفاء كثير من ملامح ثورة الحسين عليه‌السلام ومُلابساتها، وأذاعوا كثيراً من الأخبار المكذوبة عنها؛ ليوقفوا عملها التدميري في ملكهم وسلطانهم، ولكنّهم لم يفلحوا.

والذي يدلّ على هذا الخبر ما رواه كثير من المؤرّخين عن عقبة بن سمعان أنّه قال: صحبت الحسين من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتّى قُتل، وسمعت جميع مُخاطباته الناس

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/314، والكامل في التأريخ 3/284.

إلى يوم مقتله، فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر به الناس من أنّه يضع يده في يد يزيد، ولا أن يُسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنّه قال: « دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتّى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس »، فلم يفعلوا(1). ولقد جعلهم موقفهم هذا من الحسين عليه‌السلام بمثابة الثائرين على الإسلام نفسه.

وقد استغل الحسين عليه‌السلام هذه النقطة - إصرارهم على قتله، وامتناعهم عن الاستجابة لكلّ حلّ سلمي، ومركزه في المسلمين - استغلالاً رائعاً؛ فقد دأب في كلّ فرصة تُؤاتيه للكلام على تأكيد هذه الحقيقة للجيش الاُموي. وهذا نموذج من كلامه معهم في هذا الشأن: « أيّها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتّى أعظكم بما يجب لكم عليّ، وحتّى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدّقتم قولي، وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل. وإن لم تقبلوا منّي العذر (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ)، (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ).

أمّا بعد، فانسبوني فانظروا مَنْ أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، وانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم صلى‌الله‌عليه‌وآله، وابن وصيّه وابن عمّه، وأوّل المؤمنين بالله، والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟

أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار عمّي؟ أو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/313، والكامل في التأريخ 3/283.

لم يبلغكم قولٌ مُستفيضٌ فيكم أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قال لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنّة(1)؟ فإن صدّقتموني بما أقول - وهو الحقّ - والله ما تعمّدت كذباً مُذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به مَنْ اختلقه. وإن كذّبتموني فإنّ فيكم مَنْ إن سألتموه عن ذلك أخبركم؛ سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك يُخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لي ولأخي. أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ ».

فقال له شمر بن ذي الجوشن: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال له حبيب بن مظاهر:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: كنز العمال 6/220 و221 و217 و7/107 و111 و108 و12/96 و12/34246 و13/37682، صحيح الترمذي 2/306 و307، مسند أحمد 3/3 و62 و82، حلية الأولياء 5/71 و139 و4/139 و190، مجمع الزوائد 9/182 - 184 و187، تأريخ بغداد 9/231 و232 و10/90 و230 و1/140 و2/185 و12/4 و6/372، الإصابة 1/ق1/266 و6/ق4/186، مناقب أمير المؤمنين - محمد بن سليمان الكوفي 3/259، الجامع الصغير - للسيوطي 1/19.

وانظر: ذخائر العقبى/135 و130 و129، كنوز الحقائق/118 و81 و36، خصائص النسائي/34 و36، سنن ابن ماجه 1/44/118، باب فضائل أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، وأورده الحاكم في المستدرك 3/167 و381، تأريخ مدينة دمشق 7/103، اُسد الغابة 5/574، ابن حبّان في صحيحه/218، تهذيب التهذيب 3/في ترجمة زياد بن جبير، سنن الترمذي 5/321/3856 و326/3870، الفضائل - لأحمد 2/779/1384، الصواعق/187 و191 ب11 فصل 2، الجامع الصغير 1/589/3820 و3821 و3822، منهاج السنّة 4/209، فرائد السمطين 2/35 و140 و134 و153 و259، الخرائج والجرائح/289، ينابيع المودّة/369 و372.

والله إنّي لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنّك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك.

ثمّ قال لهم الحسين عليه‌السلام: « فإن كنتم في شكّ من هذا القول، أفتشكّون في أنّي ابن بنت نبيّكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيٍّ غيري منكم ولا من غيركم، وأنا ابن بنت نبيّكم خاصّة. أخبروني، أتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟ ».

فأخذوا لا يكلّمونه، فنادى: « يا شبث بن ربعي، ويا حجّار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أن قد أينعت الثمار، وأخضرّ الجناب، وطمت الجمام، وإنّما تقدم على جُند لك مُجند، فأقبل؟ ».

قالوا له: لم نفعل.

فقال: « سبحان الله! بلى والله لقد فعلتم ».

ثمّ قال: « أيّها الناس، إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض ».

فقال له قيس بن الأشعث: أوَ لا تنزل على حكم بني عمّك؛ فإنّهم لن يروك إلاّ ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه؟

فقال له الحسين عليه‌السلام: « أنت أخو أخيك(1)، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله، لا اُعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد.

عباد الله، إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترجمون. أعوذ بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) محمد بن الأشعث - أخو قيس - هو الذي آمن مسلم بن عقيل ثم لم يفِ بأمانه. تأريخ الطبري 4/280 - 281.

الحساب »(1).

بهذا الكلام فضح الحسين عليه‌السلام الزُّخرف الديني في الحكم الاُموي؛ فليس إنساناً عاديّاً هذا الذي ثار على هذا الحكم، إنّه ركيزة من الركائز التي قام عليها الإسلام.. الدين الذي يُبرّر به هذا الحكم وجوده. ومن ناحية اُخرى أشعرهم أنّ الظلم يجب أن يُقابل بالثورة والاحتجاج.. بالعمل الانتحاري (الاستشهادي) حتّى ولو كان هذا الظلم صادراً من جهاز حكم يحكم باسم الدين؛ لأنّ الحكم بمُجرّد أن يظلم يتنكّر للدين.

إنّ بعض أدعياء البحث العلمي يرون أنّ الحسين عليه‌السلام وقف هذا الموقف ليستدرّ الرحمة، ثمّ يقولون: ما كان أغناه عن ذلك. ولكنّهم بعيدون جدّاً عن فهم هذا اللون من مواقف الأبطال العقائديين؛ لو أراد الحسين عليه‌السلام أن يستدرّ الرحمة وينجو بحياته لاكتفى بأدنى من هذا، لبايع يزيد، لذهب إلى عبيد الله بن زياد، لكتب إلى يزيد يستأمنه ويعطيه البيعة، لكلّم في ذلك عمر بن سعد سرّاً.

لو أراد الرحمة لفعل شيئاً من ذلك، ولكنّه توجّه بخطابه إلى الجنود... الجنود الذين يعلم أنّهم مأمورون، وأنّهم لا يملكون أن يفعلوا ما يُريدون، توجّه إليهم ليؤكّد في أذهانهم ومشاعرهم الحقيقة التي ستُرعبهم وستُرعب المجتمع الإسلامي كلّه بعد قليل.

الحقيقة الصارخة بأنّه ومَنْ معه منحدرون من هذه الاُصول العريقة في تاريخ الإسلام؛ محمد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، علي، فاطمة، جعفر، حمزة عليهم‌السلام. إنّه يُقرّر في أذهانهم أنّهم لا يطلبونه بقتيل قتله منهم، ولا بمال احتجبه عنهم، ولا بجراحة أصاب بها أحدهم، وإنّما يطلبونه لأنّه ثار على الحكم الاُموي الفاسد، هذا الحكم الذي

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 5/425 - 426 طبعة سنة 1964 م، الكامل في التأريخ 3/287 - 288.

يُصرّ على قتله باسم الدين وهو في مركزه الديني العظيم. على هذا النحو ينبغي أن يُفهم هذا النصّ وغيره من النصوص.

وانتهت فاجعة كربلاء بمصرع الحسين عليه‌السلام وآله وصحبه، ولكنّ نضال بقية آل البيت عليهم‌السلام في سبيل إشعار المسلمين بالزيف الديني الذي يقوم عليه الحكم الاُموي، وفي سبيل بثّ الوعي في هذه الجماهير لم ينته، ولكنّ النضال مُنذ اليوم لن يأخذ شكل الثورة المُسلحة؛ فقد صُرع في كربلاء جميع الثائرين، إنّه مُنذ اليوم نضال كلامي، ولقد واصلت ثورة الحسين عليه‌السلام في هذا الاتجاه اُخته زينب عقيلة آل أبي طالب.

وقد انكشف هذا الزيف الديني - الذي موّه الاُمويّون به حكمهم - سريعاً بعد مصرع الحسين عليه‌السلام وآله؛ فقد نشر الجنود العائدون تفاصيل الملحمة المروّعة في طول البلاد الإسلاميّة وعرضها، فكان لذلك فعل النار بالنسبة إلى السلطان الاُموي.

وقد روى المؤرّخون لمّا وصل رأس الحسين عليه‌السلام إلى يزيد حسُنت حال ابن زياد عنده، ووصله وسرّه ما فعل، ثمّ لم يلبث إلاّ يسيراً حتّى بلغه بغض الناس له ولعنهم وسبّهم، فندم على قتل الحسين(1).

لقد تحطّم منذ ذلك اليوم الإطار الديني الذي أحاط به الحكّام الظالمون حكمهم الفاسد، لم تعُد لهذا الحكم حرمة دينية عند الجماهير المُسلمة. وقد عرفت فيما سبق أنّ الاُمويِّين أنشؤوا جماعة فكرية تتّخذ من نشاطها الفكري وسيلة لتغطية نشاطها السياسي، ولإسباغ صفة مشروعة على هذا النشاط، وهي فرقة المرجئة التي تُؤيّد حكومة بني اُميّة، وتسبغ على تصرّفاتهم صفة دينية، وتقدّم للناس تفسيراً دينياً خاصّاً يجعل الحاكمين بمأمن من أن ينظر المسلمون إلى أفعالهم المنافية للدين نظرة غضب واستنكار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) تأريخ الطبري 4/388، الكامل في التأريخ 3/300، تأريخ الخلفاء/208 وغيرها.

وقد دأب الفقهاء الرسميون على إصدار الفتاوى التي تحرّم على الجماهير الثورة على الحكم الفاسد. قال الشربيني في كتاب مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج: « وقد عرّف المصنّف البُغاة بقوله: هم مسلمون مُخالفوا الإمام ولو جائراً، وهم عادلون كما قال القفّال، وحكاه ابن القشيري عن معظم الأصحاب، وما في الشرح والروضة من التقييد بالإمام العادل، وكذا هو في الأمّ والمختصر مرادهم إمام أهل العدل، فلا ينافي ذلك.

ويدلّ لذلك قول المصنّف في شرح مسلم: إنّ الخروج على الأئمّة وقتالهم حرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين »(1).

وقال الشيخ عمر النسفي في كتابه « العقائد النسفية »: « ولا ينعزل الإمام بالفسق - أي الخروج على طاعة الله تعالى - والجور - أي الظلم على عباده تعالى -؛ لأنّ الفاسق من أهل الولاية عند أبي حنيفة... ». وقد علّل ذلك بأنّه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمّة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين، والسلف كانوا ينقادون لهم ولا يرون الخروج عليهم(2).

وقال الباجوري في حاشيته على شرح الغزّي: « فتجب طاعة الإمام ولو جائراً. وفي شرح مسلم: يحرم الخروج على الإمام الجائر إجماعاً »(3).

وهذا فقيه آخر يقول في كتاب مجمع الأنهر وملتقى الأبحر:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: مغني المحتاج 4/130.

(2) انظر: شرح العقائد النسفية/180.

(3) انظر: حاشية الباجوري على شرح الغزي 2/259.

« والإمام يصير إماماً بالمبايعة معه من الأشراف والأعيان، وبأن ينفذ حكمه في رعيته؛ خوفاً من قهره وجبروته، فإن بويع ولم ينفذ حكمه فيهم لعجزه عن قهرهم لا يصير إماماً، فإذا صار إماماً فجار لا ينعزل إن كان له قهر وغلبة، وإلاّ ينعزل »(1).

هذه الفتاوى وأمثالها التي تُحرّم ثورة العادلين على الظالمين الفاسقين، والتي تجعل مبرّر السيطرة على الحكم القدرة على قهر الرعية وظلمها والجور فيها، ما أنزل الله بها من سلطان، وإنّما هي النتاج الخبيث للنظرة الدينية إلى الحكم الاُموي وكلّ حكم ظالم، وهي نتيجة التبرير الديني لتصرّفات الحكّام الظالمين.

ولكن هذه الفتاوى التخديرية التي ما أنزل الله بها من سلطان بقيت في بطون الكتب، ولم تعد الجماهير المسلمة تستمع إليها إلاّ قليلاً... لقد بدأت تتربّص للثورة في كلّ حين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) راجع بحثاً مفصلاً عن هذا الموضوع في كتابنا (نظام الحكم والإدارة في الإسلام) في الصفحات/97 - 99 و103 - 104 و107 - 112 وغيرها. انظر مجمع الأنهر وملتقى الأبحر 2/699، الأشباه والنظائر/205، المسامرة/278، مآثر الإنافة 1/71.

## الشعور بالإثم

وكان لثورة الحسين عليه‌السلام ونهايته في كربلاء أثر آخر، هو ما سبّبته هذه النهاية وهذا المصير من إثارة الشعور بالإثم في ضمير كلّ مسلم استطاع نصره فلم ينصره، وسمع واعيته فلم يُجبها. ولقد كان هذا الشعور أقوى ما يكون في ضمائر اُولئك الذين كفّوا أيديهم عن نصره بعد أن وعدوه النصر وعاهدوه على الثورة.

ولهذا الشعور بالإثم طرفان؛ فهو من جهة يحمل صاحبه على أن يكفّر عن إثمه الذي ارتكبه وجرمه الذي قارفه، وهو من جهة اُخرى يُثير في النفس مشاعر الحقد والكراهية لاُولئك الذي دُفعوا إلى ارتكاب الإثم.

وهذا ما نراه جليّاً في الشعب المسلم بعد ثورة الحسين عليه‌السلام، فقد دفع الشعور بالإثم كثيراً من الجماعات الإسلاميّة إلى العمل للتفكير، وزادهم بغضاً للاُمويِّين وحقداً عليهم. وكان التعبير الطبيعي للرغبة في التكفير وللحقد هو الثورة، وهكذا كان؛ فقد استُهدف الاُمويّون لثورات أجّجها مصرع الحسين عليه‌السلام، وكان باعثها التكفير عن القعود عن نصره والرغبة في الانتقام من الاُمويِّين، وسنرى في فصل آت نماذج من هذه الثورات.

وبسبب هذا الشعور بالإثم لم يُعد موقف المسلمين من الحكم الاُموي موقفاً

عقلياً نابعاً من إدراك بُعد الاُمويِّين عن الدين وظلمهم، وإنّما غدا موقفاً عاطفياً أيضاً؛ حيث إنّ هذا الشعور حدا بالكثيرين إلى الثورة كعمل انتقامي يقصد به التشفّي.

وهذا يُفسّر لنا كثيراً من الثورات الفاشلة التي كان من البيّن فشلها قبل اشتعالها؛ فقد كان سببها هو الرغبة في الانتقام، هو تلبية هذا الدّاعي العاطفي، وعندما يقع الإنسان تحت وطأة موقف عاطفي طاغ تغيب عنه احتمالات الفشل والنجاح.

وممّا لا ريب فيه أنّ هذا العامل النفسي جعل موقف المسلمين من الحكم الاُموي أكثر إيجابية وحرارة، وأسبغ عليه صفة انتقامية، وجعله عاملاً يحسب له حساب عند الحاكمين.

إنّ الموقف العقلي فقط يُمكن السيطرة عليه والتشكيك فيه بأساليب كثيرة، أمّا حين يكون الموقف عاطفياً فإنّ الأمر يختلف تماماً؛ وذلك لأنّ العاطفة الصادقة تمتاز بالاشتعال والفوران والديمومة، ورفض وجهات النظر المقابلة، ولقد كان الشعور بالإثم عند هؤلاء المسلمين عميقاً وصادقاً.

\* \* \*

ولقد قدّر لبقية آل البيت عليهم‌السلام أن تُلهب هذا الشعور بالإثم، وأن تزيده حدّة وحرارة. هذه زينب بنت علي (عليها السلام) وقفت في أهل الكوفة، وقد احتشدوا يحدقون في موكب الرؤوس والسبايا ويبكون، فأشارت إليهم أن اسكتوا، فسكتوا ومضت تقول: « أمّا بعد يا أهل الكوفة، أتبكون! فلا سكنت العبرة، ولا هدأت الرنّة، إنّما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، ألا ساء ما تزرون!

أي والله، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم

بعارها وشنارها، فلن ترحضوها بغسل أبداً، وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوّة، ومعدن الرسالة، ومدار حجّتكم، ومنار محجتكم، وهو سيّد شباب أهل الجنّة؟! لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء، أتعجبون لو أمطرت دماً؟! ألا ساء ما سوّلت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون.

أتدرون أيّ كبد فريتم، وأيّ دم سفكتم، وأيّ كريمة أبرزتم؟! لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ».

قال مَنْ سمعها: « فلم أرّ والله خفرة أنطق منها، كأنّما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فلا والله ما أتمّت حديثها حتّى ضجّ الناس بالبكاء وذُهلوا، وسقط ما في أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء »(1).

وتكلّمت فاطمة بنت الحسين عليها‌السلام، فقالت في كلام لها: « أمّا بعد يا أهل الكوفة، يا أهل المكر والغدر والخيلاء، فإنّا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا، فكذبتمونا وكفّرتمونا، ورأيتم قتالنا حلالاً، وأموالنا نهباً.

ويلكم! أترون أيّ يدٍ طاعنتنا منكم، وأيّة نفس نزعت

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: أمالي الشيخ المفيد/321، أمالي الشيخ الطوسي/92، بلاغات النساء - لابن طيفور/23.

إلى قتالنا، أم بأيّة رجل مشيتم إلينا تبغون مُحاربتنا؟! قست قلوبكم، وختم على سمعكم وبصركم، وسوّل لكم الشيطان، وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة فأنتم لا تهتدون.

تبّاً لكم يا أهل الكوفة! أيّ ترات لرسول الله قبلكم، وذحول له لديكم بما غدرتم بأخيه علي بن أبي طالب وعترته الطيّبين الأخيار؟! »(1).

\* \* \*

وتكلّم علي بن الحسين زين العابدين عليه‌السلام، فقال: « أيها الناس، ناشدتكم الله، هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقاتلتموه؟ فتبّاً لكم لما قدّمتم لأنفسكم! وسوأة لرأيكم! بأيّ عين تنظرون إلى رسول الله إذ يقول لكم: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي؟! »(2).

\* \* \*

ولمّا نودي بقتل الحسين عليه‌السلام في المدينة، وعلم الناس بذلك ضجّت المدينة بأهلها، ولم تُسمع واعية قطّ مثل نساء بني هاشم في دورهنّ على الحسين عليه‌السلام.

وخرجت ابنة عقيل بن أبي طالب حاسرة ومعها نساؤها، وهي تلوي بثوبها وتقول(3):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الاحتجاج - الطبرسي 2/27، اللهوف في قتلى الطفوف/89.

(2) انظر: اللهوف في قتلى الطفوف/186.

(3) انظر: اللهوف - لابن طاووس/96، الكامل - لابن الأثير 4/36، الآثار الباقية - للسيروني/329، =

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ماذا تقولونَ إنْ قالَ النبيُّ لكمْ |  | ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الاُممِ |
| بعترتي وبأهلي بعد مُفتقدي |  | منهم أُسارى وقتلى ضُرّجوا بدمِ |
| ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكمْ |  | أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمي |

فلمّا سمع عمرو بن سعيد - والي المدينة - أصواتهنّ، ضحك وقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عجّت نساءُ بني زيادٍ عجّةً |  | كعجيجِ نسوتِنا غداةَ الأرنبِ |

ثمّ قال: هذه واعية كواعية عثمان(1).

وقد عبّر هذا الشعور بالإثم عن نفسه بالشعر الذي يتفجّر سخطاً ونقمة على الاُمويِّين، وحنيناً وولاء للحسين عليه‌السلام، وانفعالاً بثورته.

وثمّة نماذج معاصرة للثورة تكشف لنا بصدق وحرارة عن هذا الأثر الذي خلّفته الثورة في المجتمع الإسلامي، ولعلّ من أصدق النماذج التي حفظها لنا تأريخ تلك الفترة قول عبد الله بن الحرّ الذي فرّ من الكوفة حين اتّهمه عبيد الله بن زياد بعدم الولاء للسلطة، وقدم إلى كربلاء فنظر إلى مصارع الشهداء وقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يقولُ أميرٌ غادرٌ حقّ غادرِ |  | ألا كنتَ قاتلتَ الشهيدَ ابنَ فاطمهْ |

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= تأريخ الطبري 6/268 و4/357 طبعة اُخرى، عيون الأخبار - لابن قتيبة 1/212، مجمع الزوائد - للهيثمي 9/200، كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب - للحافظ محمد بن يوسف الكنجي الشافعي/441، تأريخ ابن عساكر 4/342، ذخائر العقبى - لأحمد بن عبد الله الطبري/150.

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/346 - 357، الكامل في التأريخ 3/300، والشماتة في أبغض مظاهرها بيّنة في موقف عمرو بن سعيد الاُموي.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فيا ندمي ألاّ أكونُ نصرتَهُ |  | ألا كلّ نفسٍ لا تُسدّدُ نادمهْ |
| وإنّي لآسي لم أكن من حماتِهِ |  | لذو حسرةٍ ما إنْ تُفارق لازمهْ |
| سقى اللهُ أرواحَ الذين تآزروا |  | على نصرهِ سقياً من الغيثِ دائمهْ |
| وقفتُ على أجداثِهم ومحالِهمْ |  | فكادَ الحشى ينفضُّ والعينُ ساجمهْ |
| لَعمري لقد كانوا مصاليتَ في الوغى |  | سراعاً إلى الهيجا حماةً خضارمهْ |
| تآسوا على نصرِ ابنِ بنتِ نبيّهمْ |  | بأسيافِهم آسادُ غيلٍ ضراغمه |
| فإنْ يُقتلوا فكلُّ نفسٍ تقيّةٍ |  | على الأرضِ قد أضحت لذلكَ واجمهْ |
| وما إنْ رأى الراؤونَ أفضلَ منهمُ |  | لدى الموتِ ساداتٍ وزهراً قماقمهْ |
| أتقلتُهم ظلماً وترجو ودادنا |  | فدع خطّةً ليست لنا بملائمهْ |
| لَعمري لقد راغمتمونا بقتلِهمْ |  | فكم ناقمٌ منّا عليكم وناقمهْ |

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أهمُّ مراراً أن أسيرَ بجحفلٍ |  | إلى فئةٍ زاغتْ عن الحقّ ظالمهْ |
| فكفّوا وإلاّ زرتُكم بكتائبٍ |  | أشدّ عليكم من زحوفِ الديالمهْ(1) |

ومن هؤلاء الذين استيقظت ضمائرهم على جريمتهم الرهيبة رضي بن منقذ العبدي، فقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لو شاءَ ربّي ما شهدتُ قتالُهمْ |  | ولا جعلَ النعماءَ عند ابن جابرِ(2) |
| لقد كانَ ذاكَ اليوم عاراً وسُبّةً |  | تُعيّرهُ الأبناءُ بعدَ المعاشرِ |
| فياليتَ أنّي كنتُ من قبل قتلِهِ |  | ويومَ حسينٍ كنتُ في رمسِ قابرِ(3) |

وقد قدّر لهذا الشعور بالإثم أن يبقى مشتعل الأوار، حافزاً دائماً إلى الثورة والانتقام، وقدّر له أن يدفع الناس إلى الثورات على الاُمويِّين كلّما سنحت الفرصة، ثمّ لا يرتوي ولا يهدأ ولا يستكين وإنّما يطلب من صاحبه ضريبة الدم باستمرار، وكان سبيل ذلك هو الثورة على الظالمين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 3/63 و4/360 و5/469، البداية والنهاية 8/220، مقتل الحسين - لأبي مخنف/245، تأريخ مدينة دمشق 27/430.

(2) كعب بن جابر: أحد جنود الجيش الاُموي، قالت له زوجته أو اُخته لمّا رجع من المعركة: « أعنت على ابن فاطمة وقتلت سيد القرّاء؟! لقد أتيت عظيماً من الأمر، والله لا اُكلمك من رأسي كلمة أبداً ». فأجابها بشعر يفتخر فيه بفعله تضمّن بيتاً يذكر فيه أنّه أنقذ رضي بن منقذ من القتل حين أعانه على خصمه في المعركة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قتلتُ بُريراً ثمّ حمّلتُ نعمةً |  | أبا منقذٍ لما دعا مَنْ يماصعُ |

ونلفت النظر إلى عقيدة الجبر الظاهر عند رضي بن منقذ العبدي في البيت الأوّل في قوله: ( لو شاء ربّي ما شهدت قتالهمْ ). انظر: تأريخ الطبري 5/432 - 433. منه رحمه‌الله.

(3) انظر: تأريخ الطبري 4/330 و5/433.

## الأخلاق الجديدة

الثورة الصحيحة هي الاحتجاج النهائي الحاسم على الواقع المعاش، فبعد أن تخفق جميع الوسائل الاُخرى في تطوير الواقع تصبح الثورة قدراً حتميّاً لا بدّ منه. والقائمون بالثورة هم دائماً أصح أجزاء الاُمّة؛ هم الطليعة، هم النُّخبة التي لم يأسرها الواقع المعاش، وإنّما بقيت في مستوى أعلى منه وإن كانت تدركه وتعيه، وترصده وتنفعل به وتتعذّب بسببه.

تُصبح الثورة قدر هذه النُّخبة ومصيرها المحتوم حين تخفق جميع وسائل الصلاح الاُخرى، وإلاّ فإنّ النُّخبة إذا لم تثر تفقد مُبررات وجودها، ولا يمكن أن يُقال عنها إنّها نُخبة، إنّها تكون نُخبة حين يكون لها دور تأريخي وحين تقوم بهذا الدور.

ولا بدّ أن تُبشر الثورة بأخلاق جديدة إذا حدثت في مجتمع ليس له تُراث ديني وإنساني يضمن لأفراده - إذا اتّبع - حياة إنسانيّة متكاملة، أو تُحيي المبادئ والقيم التي هجرها المجتمع أو حرّفها إذا كان للمجتمع مثل هذا التُراث كما هو الحال في المجتمع الإسلامي الذي كانت سياسة الاُمويِّين المجافية

للإسلام تحمله على هجر القيم الإسلاميّة، واستلهام الأخلاق الجاهليّة في الحياة.

وتُوفر هذا الهدف في الثورة الصحيحة من جملة مقوّمات وجودها؛ لأنّ العلاقات الإنسانيّة في الواقع علاقات مُنحطّة وفاسدة، وموقف الإنسان من الحياة موقف مُتخاذل وموسوم بالانحطاط والانهيار؛ ولذلك انتهى الواقع إلى حدّ من السوء بحيث غدت الثورة علاجه الوحيد.

وإذاً، فالدعوة إلى نموذج من الأخلاق أسمى ممّا يُمارسه المجتمع ضرورة لازمة؛ لأنّه لا بدّ أن تتغيّر نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الآخرين وإلى الحياة ليمكن إصلاح المجتمع.

ولقد قدّم الحسين عليه‌السلام وآله وأصحابه - في ثورتهم على الحكم الاُموي - الأخلاق الإسلاميّة العالية بكلّ صفاتها ونقائها، ولم يُقدّموا إلى المجتمع الإسلامي هذا اللون من الأخلاق بألسنتهم، وإنّما كتبوه بدمائهم وحياتهم.

لقد اعتاد الرجل العادي إذ ذاك أن يرى الزعيم القبلي أو الزعيم الديني يبيع ضميره بالمال، وبعرض الحياة الدنيا. لقد اعتاد أن يرى الجباه تعنوا خضوعاً وخشوعاً لطاغية حقير لمجرد أنّه يملك أن يُحرم من العطاء.

لقد خضع الزعماء الدينيون والسياسيون ليزيد على علمهم بحقارته وانحطاطه، وخضعوا لعبيد الله بن زياد على علمهم بأصله الحقير ومنبته الوضيع، وخضعوا لغير هذا وذاك من الطغاة؛ لأنّ هؤلاء الطغاة يملكون الجاه والمال والنفوذ، ولأنّ التقرّب منهم والتودّد إليهم كفيل بأن يجعلهم ذوي نفوذ في المجتمع وإن عليهم النعمة والرفاه.

وكان هؤلاء الزعماء يرتكبون كلّ شيء في سبيل نيل هذه الحظوة. كانوا يخونون مجتمعهم فيتمالون مع هؤلاء الطغاة على إذلال هذا المجتمع وسحقه

وحرمانه، وكانوا يخونون ضمائرهم فيبتدعون من ألوان الكذب ما يدعم هذه العروش، وكانوا يخونون دينهم الذي يأمرهم بتحطيم الطغاة بدل عبادتهم.

كان الرجل العادي في المجتمع الإسلامي آنذاك يعرف هذا اللون من الرجال، ويعرف لوناً آخر منهم وهم اُولئك الزُّهّاد الدّجّالون الذين يتظاهرون بالزهد رياء ونفاقاً، حتّى إذا تقربوا من الطغاة كانوا لهم أعواناً وأنصاراً.

إنّهم هذا الصنف الذي وصفه الإمام علي عليه‌السلام بقوله: « ومنهم مَنْ يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا. قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمّر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتّخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية »(1).

هؤلاء هم الزعماء الذين كان الرجل العادي يعرفهم وقد اعتادهم وأفهم، بحيث غدا يرى عملهم هذا طبيعياً لا يثير التساؤل، ولذلك فقد كان غريباً جدّاً على كثير من المسلمين آنذاك أن يروا إنساناً يُخيّر بين حياة رافهة فيها الغنى وفيها المتعة، وفيها النفوذ والطاعة، ولكن فيها إلى جانب ذلك كلّه الخضوع لطاغية والإسهام معه في طغيانه، والمساومة على المبدأ والخيانة.

وبين الموت عطشاً مع قتل الصفوة الخلّص من أصحابه وأولاده، وإخوته وأهل بيته جميعاً أمامه، وحيث تنظر إليهم عينه في ساعاتهم الأخيرة وهم يلوبون ظمأ، وهم يكافحون بضراوة وإصرار عدواً هائلاً يريد لهم الموت أو هذا اللون من الحياة، ثم يرى مصارعهم واحداً بعد واحد، وإنّه ليعلم أيّ مصير فاجع محزن ينتظر آله ونساءه من بعده؛ سبي وتشريد، ونقل من بلد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: نهج البلاغة - الخطبة 32.

إلى بلد، وحرمان... يعلم ذلك كله ثمّ يختار هذا اللون الرهيب من الموت على هذا اللون الرغيد من الحياة. لقد كان غريباً جدّاً على هؤلاء أن يروا إنساناً كهذا؛ لقد اعتادوا على زعماء يُمرّغون جباههم في التراب خوفاً من مصير أهون من هذا بكثير، أمثال عمر بن سعد، والأشعث بن قيس ونظائرهما. تعودوا على هؤلاء فكان غريباً عليهم أن يشاهدوا هذا النموذج العملاق من الإنسان، هذا النموذج الذي يتعالى ويتعالى حتّى ليكاد القائل أن يقول: ما هذا بشر.

ولقد هزّ هذا اللون من الأخلاق، هذا اللون من السلوك الضميرَ المسلم هزّاً مُتداركاً، وأيقظه من سُباته المرَضي الطويل؛ ليشاهد صفحة جديدة مُشرقة يكتبها الإنسان بدمه في سبيل الشرف والمبدأ، والحياة العارية من الذلّ والعبودية.

ولقد كشف له عن زيف الحياة التي يحياها، وعن زيف الزعماء - أصنام اللحم - الذين يعبدهم، وشق له طريقاً جديداً في العمل، وقدّم له اُسلوباً جديداً في العمل، وقدّم له اُسلوباً جديداً في مُمارسة الحياة، فيه قسوة وفيه حرمان، ولكنّه طريق مُضيء لا طريق غيره جدير بالإنسان.

ولقد غدا هذا اللون المُشرق من الأخلاق، وهذا النموذج الباهر من السلوك خطراً رهيباً على كلّ حاكم يُجافي روح الإسلام في حكمه. إنّ ضمائر الزعماء قليلاً ما تتأثّر بهذه المُثل المضيئة، ولكنّ الذي يتأثّر هي الاُمّة، وهذا هو ما كان يريده الحسين عليه‌السلام. لقد كان يريد شقّ الطريق للاُمّة المُستعبدة لتناضل عن إنسانيتها.

\* \* \*

وفي جميع مراحل الثورة، منذ بدايتها في المدينة حتّى ختامها الدامي في كربلاء، نلمح التصميم على هذا النمط العالي من السلوك.

ها هو الحسين عليه‌السلام يقول لأخيه محمد بن الحنفيّة وهما بعد في المدينة: « يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية »(1).

وها هو يتمثل بأبيات يزيد بن مفرغ الحميري(2) حين انسلّ من المدينة في جنح الليل إلى مكة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا ذُعرت السّوام في فلقِ الصبـ |  | ـحِ مُغيراً ولا دُعيت يزيدا |
| يوم أُعطي على المهانةِ ضيماً |  | والمنايا ترصدنني أن أحيدا(3) |

وها هو يجيب الحرّ بن يزيد الرياحي حين قال له: « أذكرك الله في نفسك؛ فإنّي أشهد لئن قاتلت لتُقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن ».

فقال له الإمام الحسين عليه‌السلام: « أبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ ما أدري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، فقال له: أين تذهب فإنّك مقتول. فقال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى |  | إذا ما نوى خيراً وجاهدَ مسلما |

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الفتوح - لابن أعثم 5/23، مقتل الحسين - للخوارزمي 1/188.

(2) تقدّمت ترجمته.

(3) انظر: تأريخ الطبري 4/253، الكامل في التأريخ 3/265، تأريخ مدينة دمشق 14/204.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وواسى رجالاً صالحينَ بنفسه |  | وخالفَ مثبوراً وفارقَ مجرما |
| فإن عشتُ لم أندم وإن مُتُّ لم أُلمْ |  | كفى بك ذُلاً أن تعيشَ وتُرغما »(1) |

وها هو وقد أُحيط به، وقيل له: انزل على حكم بني عمّك، يقول: « لا والله، لا اُعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد. عباد الله، إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترجمون، أعوذ بربّي وربّكم من كلّ مُتكبّر لا يؤمن بيوم الحساب.

ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السّلة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وجدود طابت، وحجور طهرت، واُنوف حميّة، ونفوس أبيّة لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام »(2).

وها هو يخطب أصحابه فيقول: « أمّا بعد، فقد نزل من الأمر بنا ما ترون، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبقَ منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله؛ فإنّي لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برماً »(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/305، الكامل في التاريخ 3/270.

(2) انظر: تأريخ الطبري 5/425 - 426 طبعة سنة 1964 م، الكامل في التأريخ 3/287 - 288.

(3) انظر: تأريخ الطبري 3/307 و4/305 طبعة اُخرى، و5/425 - 426 طبعة سنة 1964 م، ابن عساكر (ترجمة الإمام الحسين عليه السّلام)/214.

وكان يقول كثيراً: « موت في عزّ خير من حياة في ذلّ »(1).

كلّ هذا يكشف عن طبيعة السلوك الذي اختطّه الحسين عليه‌السلام لنفسه ولمَنْ معه في كربلاء، وألهب به الروح الإسلاميّة بعد ذلك، وبثّ فيها قوّة جديدة.

\* \* \*

لقد عرفت كيف كان الزعماء الدينيون والسياسيون يُمارسون حياتهم. وهنا نرسم لك صورة عن نوع الحياة التي كان يُمارسها الإنسان العادي إذ ذاك. لقد كان همّ الرجل العادي هو حياته الخاصّة يعمل لها ويكدح في سبيلها، ولا يُفكّر إلاّ فيها، فإذا اتّسع اُفقه كانت القبيلة محلّ اهتمامه.

أمّا المجتمع وآلامه - المجتمع الكبير - فلم يكن ليستأثر من الرجل العادي بأيّ اهتمام، كانت القضايا العامّة بعيدة عن اهتمامه. لقد كان العمل فيها وظيفة زعمائه الدينيين والسياسيين؛ يُفكّرون ويرسمون خطّة العمل وعليه أن يسير فقط، فلم تكن للرجل العادي مشاركة جدّية إيجابية في قضايا المجتمع العامّة.

وكان يهتم غاية الاهتمام بعطائه فيحافظ عليه، ويطيع توجيهات زعمائه خشية أن يُمحى اسمه من العطاء، ويسكت عن نقد ما يراه جوراً بسبب ذلك(2).

وكان يهتم بمفاخر قبيلته ومثالب غيرها من القبائل، ويروي الأشعار في هذا وذاك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر المصدر السابق.

(2) قال حميد بن مسلم: قلت لشمر: أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين؛ تُعذّب بعذاب الله، وتقتل النساء والولدان. والله إنّ في قتلك الرجال لما تُرضي به أميرك. فقال: مَنْ أنت؟ قلت: لا اُخبرك مَنْ أنا. قال: وخشيت والله أن لو عرفني أن يصرني عند السلطان. انظر: تأريخ الطبري 4/189، البداية والنهاية 8/198. منه رحمه‌الله.

هذا مُخطط لحياة الرجل العادي إذ ذاك.

أمّا أصحاب الحسين عليه‌السلام فقد كان لهم شأن آخر، لقد كانت العُصبة التي رافقت الحسين عليه‌السلام، وشاركته في مصيره رجالاً عاديين، لكلّ منهم بيت وزوجة وأطفال وصداقات، ولكلّ منهم عطاء من بيت المال، وكان كثير منهم لا يزال في ميعة الصبا، في حياته مُتّسع للاستمتاع بالحُبّ وطيّبات الحياة، ولكنّهم جميعاً خرجوا عن ذلك كلّه وواجهوا مجتمعهم بعزمهم الكبير في سبيل مبدأ آمنوا به، وصمموا على الموت في سبيله.

ولا أستطيع أن أقدّم هنا صورة كاملة وافية لسُلوك آل الحسين وأصحابه في هذه الثورة، وعليك لكي تخرج بهذه الصورة الوافية أن تقرأ قصّة كربلاء بتمامها، وغاية ما أستطيعه هنا هو أن أقدّم لك لمحات من سلوكهم العالي.

ـ في زُبالة استبان للحسين عليه‌السلام مصيره حين علم بقتل رسوله إلى أهل الكوفة مسلم بن عقيل، وأخيه من الرضاعة عبد الله بن يقطر، فأخبر مَنْ معه بذلك، وقال: « أمّا بعد، فإنّه قد أتاني خبر فظيع؛ قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمَنْ أحبّ منكم الانصراف فلينصرف في غير حرج، ليس عليه منّا ذمام »(1).

فتفرّق عنه الناس يميناً وشمالاً حتّى بقي في أصحابه الذين يُريدون الموت معه، واستمروا على عزمهم هذا إلى اللحظة الأخيرة لكلّ منهم. اللحظة التي أدّى

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/300، الكامل في التأريخ 3/278.

فيها ضريبة الدم كاملة.

ـ في كربلاء أقبل على أصحابه فقال: « الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يُحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلّ الديّانون ».

ثمّ قال: « أمّا بعد، فقد نزل من الأمر بنا ما ترون، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها، ولم يبقَ منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله؛ فإنّي لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برماً »(1).

فقال زهير بن القين: « سمعنا يابن رسول الله مقالتك، ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلّدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها ».

وقال برير بن خضير: « يابن رسول الله، لقد منّ الله بك علينا أن نُقاتل بين يديك، نقطع فيك أعضاؤنا ثمّ يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 3/307 و4/305 طبعة اُخرى و5/425 - 426 طبعة سنة 1964 م، ابن عساكر (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام)/214.

وقال نافع بن هلال: « سر بنا راشداً مُعافى، مشرقاً إن شئت أو مغرباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربّنا، وإنّا على نيّاتنا وبصائرنا نوالي مَنْ والاك، ونعادي مَنْ عاداك »(1).

ومرّة اُخرى جمع الحسين عليه‌السلام أصحابه قرب المساء - مساء يوم العاشر - فخطبهم قائلاً: «... أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي جميعاً. ألا وإنّي أظنّ أنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإنّي قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ، ليس عليكم منّي ذمام. وهذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم؛ فإنّ القوم إنّما يطلبوني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري... ».

هذه فرصة أخيرة منحهم إيّاها الحسين عليه‌السلام، فماذا كان ردّ الفعل؟ قال له إخوته وأبناؤه، وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: ولِمَ نفعل؟ لنبقى بعدك؟! لا أرنا الله ذلك أبداً.

والتفت الحسين عليه‌السلام إلى بني عقيل، وقال:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 3/234 و4/305 طبعة اُخرى، 5/425 - 426 طبعة سنة 1964 م، ابن عساكر (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام)/214.

« حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا فقد أذنت لكم ».

فقالوا: فما يقول الناس، وما نقول لهم؟! إنّا تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن برمح، ولم نضرب بسيف، ولا ندري ما صنعوا. لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، نقاتل معك حتّى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك.

وجاء دور أصحابه، فقال مسلم بن عوسجة: أنحن نُخلي عنك ولمّا نُعذر إلى الله في أداء حقّك؟ أما والله لا اُفارقك حتّى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح اُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتّى أموت معك.

وقال سعد بن عبد الله الحنفي: والله، لا نُخليك حتّى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فيك. والله لو علمت أنّي اُقتل ثمّ اُحيا، ثمّ اُحرق حيّاً ثمّ اُذرى، يُفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتّى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة.

وقال زهير بن القين: والله، لوددت أنّي قُتلت ثمّ نُشرت، ثمّ قُتلت حتّى اُقتل كذا ألف قتلة وإنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن

أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

وتكلّم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا، وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا كنّا وفينا وقضينا ما علينا(1).

وقال الحسين عليه‌السلام لنافع بن هلال في جوف الليل: « ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل وتنجو بنفسك؟ ». فوقع نافع على قدميه يُقبّلها ويقول: ثكلتني اُمّي! إنّ سيفي بألف، وفرسي بمثله، فوالله الذي مَنْ عليّ بك لا فارقتك حتّى يكلاّ عن فري وجري.

وصاح شمر بن ذي الجوشن بأعلى صوته: أين بنو اُختنا؟ فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي، فقالوا له: ما لك، وما تريد؟

قال: أنتم يا بني اُختي آمنون.

فقال له الفتية: لعنك الله ولعن أمانك لئن كنت خالنا! أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له(2)؟!

هذا هو مستوى السلوك الذي ارتفع إليه الثائرون، وهذه هي الأخلاق الجديدة التي قدّموها لمجتمعهم. هذا المجتمع الذي قدر لكثير من فئاته فيما بعد أن تأخذ نفسها بالسير على هذا المستوى العالي من الأخلاق ومُمارسة الحياة.

\* \* \*

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/317 - 318.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/315.

ولنا أن نتساءل هنا عن دور المرأة المسلمة في ثورة كربلاء؛ لقد كان في الثائرين الزوج والأخ والولد، فما كان موقف المرأة من مصارع هؤلاء؟

ويأتينا الجواب من التأريخ فنهتزّ لموقف المرأة في كربلاء، لقد كانت المرأة اُمّاً واُختاً وزوجة في طليعة الثائرين المُناضلين المُضحين الباذلين لضريبة الدم. ولا أتحدّث هنا عن زينب وعن أخواتها؛ فمستوى سلوكهن لم يبلغه بشر، وإنّما أتحدّث عن نساء عاديات جدّاً كنّ إلى أيّام قليلة قبل يوم كربلاء يشغلهن ما يشغل كلّ امرأة من شؤون بيتها وزينتها، وتربية أولادها والتحدّث مع جاراتها. نساء لا تربطهن بالثائرين رابطة دم، ولكن تربطهن بهم رابطة مبدأ ورابطة عقيدة، فضحّين بالولد والزوج مستبشرات، ثمّ ضحّين بأنفسهن في النهاية.

\* \* \*

هذا عبد الله بن عمير قال لزوجته إنّه يريد المسير إلى الحسين عليه‌السلام، فقالت له: أصبت، أصاب الله بك أرشد اُمورك، افعل وأخرجني معك. فخرج بها حتّى أتى حسيناً فأقام معه.

ثمّ برز ليُقاتل، فأخذت امرأته عموداً ثمّ أقبلت نحو زوجها تقول: فداك أبي واُمّي! قاتل دون الطيبين ذرّية محمد. فأقبل إليها يردّها نحو النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، ثمّ قالت: إنّي لن أدعك دون أن أموت معك.

فناداها الحسين عليه‌السلام، فقال: « جُزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهنّ ». فانصرفت، ثمّ قُتل زوجها، فخرجت تمشي إليه حتّى جلست عند رأسه تمسح التراب عنه وتقول:

هنيئاً لك الجنّة. فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام يُسمّى رستم: اضرب رأسها بالعمود. فضرب رأسها فشدخه فماتت مكانها، وهي أوّل امرأة قُتلت من أصحاب الحسين عليه‌السلام(1).

وهذا وهب بن حبّاب الكلبي، قالت له اُمّه: قم يا بُني فانصر ابن بنت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله. فقال: أفعل. فحمل على القوم، ولم يزل يُقاتل حتّى قتل جماعة، ثمّ رجع وقال: يا اُمّاه، هل رضيتِ؟ فقالت: ما رضيت حتّى تُقتل بين يدي الحسين عليه‌السلام. فقالت له امرأته: بالله عليك لا تفجعني بنفسك. فقالت له اُمّه: يا بُني، اعزب عن قولها، وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيّك تنل شفاعة جدّه يوم القيامة. فرجع، ولم يزل يُقاتل حتّى قُطعت يداه ثمّ قُتل(2).

وبرز جنادة بن الحارث السلماني - وكان خرج بعياله وولده إلى الحسين عليه‌السلام - فقاتل حتّى قُتل، فلمّا قُتل أمرت زوجته ولدها عمراً - وهو شاب - أن ينصر الحسين عليه‌السلام، فقالت له: اخرج يا بُني وقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله.

فخرج واستأذن الحسين عليه‌السلام، فقال الحسين عليه‌السلام: « هذا شاب قُتل أبوه، ولعلّ اُمّه تكره خروجه ».

فقال الشاب: اُمّي أمرتني بذلك. فبرز وقاتل حتّى قُتل وحُزّ رأسه، ورُمي به إلى عسكر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تاريخ الطبري 4/326 و333.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/315.

الحسين عليه‌السلام، فحملت اُمّه رأسه وقالت: أحسنت يا بُني. وأخذت عمود خيمة وهي تقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أنا عجوزٌ سيدي ضعيفهْ |  | خاويةٌ باليةٌ نحيفهْ |
| أضربكم بضربةٍ عنيفهْ |  | دونَ بني فاطمةَ الشريفهْ |

وضربت رجلين فقتلتهما، فأمر الحسين عليه‌السلام بصرفها، ودعا لها(1).

هذه نماذج من سلوك الثائرين في كربلاء.

\* \* \*

ولقد أهمل التأريخ ذكر كثير من بطولات هؤلاء الثائرين؛ فإنّ المؤرّخين يحرصون غالباً على تجنّب ذكر التفاصيل الدقيقة، ويقصرون اهتمامهم على ما يلوح لهم أنّه جليل، ولا ينال الناس العاديون شيئاً من اهتمامهم، بينما يقصرون هذا الاهتمام على البارزين من القادة وإن كان الدور الحقيقي في المعركة هو ما يقوم به هؤلاء الناس العاديون. على أنّ أخبار ثورة كربلاء استهدفت لحملة من السلطة الحاكمة فأهمل المؤرّخون الرسميون ذكر كثير من تفاصيلها الدقيقة ذات المغزى.

\* \* \*

ولقد عملت هذه الأخلاق الجديدة عملها في اكتساب الحياة الإسلاميّة سمة كانت قد فقدتها قبل ثورة الحسين عليه‌السلام بوقت طويل، وذلك هو الدور الذي غدا الرجل العادي يقوم به في الحياة العامّة بعد أن تأثّر وجدانه بسلوك الثائرين في كربلاء، وقد بدأ الحكّام المُجافون للإسلام يحسبون حساباً لهؤلاء الرجال العاديين، وبدأ المجتمع الإسلامي يشهد من حين لآخر ثورات عارمة يقوم بها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/333.

الرجال العاديون على الحاكمين الظالمين وأعوانهم؛ لبُعدهم عن الإسلام، وعدم استجابتهم لأوامر الله ونواهيه في سلوكهم. ثورات كانت روح كربلاء تلهب أكثر القائمين بها، وتدفعهم إلى الاستماتة في سبيل ما يرونه حقّاً.

ولقد تحطّمت دولة اُميّة بهذه الثورات، وقامت دولة العباسيِّين بوحي من الأفكار التي تُبشّر بها هذه الثورات، ولمّا تبيّن للناس أنّ العباسيين كمَنْ سبقهم لم يسكنوا بل ثاروا... واستمرت الثورات التي تقودها روح كربلاء بدون انقطاع ضدّ كلّ ظلم وطغيان وفساد.

## انبعاث الروح النضاليّة

كانت ثورة الحسين عليه‌السلام السبب في انبعاث الرّوح النضالية في الإنسان المسلم من جديد بعد فترة طويلة من الهمود والتسليم، ولقد كانت الآفات النفسية والاجتماعيّة تحول بين الإنسان المسلم وبين أن يُناضل عن ذاته وعن إنسانيته، فجاءت ثورة الحسين عليه‌السلام وحطّمت كلّ حاجز نفسي واجتماعي يقف في وجه الثورة.

كان الإطار الديني الذي أحاط به الاُمويّون حكمهم العفن الفاسد يحول بين الشعب وبين أن يثور، فجاءت ثورة الحسين عليه‌السلام وحطّمت هذا الإطار وكشفت الحكم الاُموي على حقيقته، فإذا هو حكم جاهلي لا ديني، لا إنساني، تجب الثورة عليه وتحطيمه.

وكانت المُسلّمات الأخلاقية تحول بين الإنسان المسلم وبين أن يثور، كانت قوانينه الأخلاقية تقول له: حافظ على ذاتك، حافظ على عطائك، حافظ على منزلتك الاجتماعيّة، فجاءت ثورة الحسين عليه‌السلام وقدّمت للإنسان المسلم أخلاقاً جديدة تقول له: لا تستسلم، لا تُساوم على إنسانيتك، ناضل قوى الشرّ ما وسعك، ضحِ بكلّ شيء في سبيل مبدئك.

كان الرضا عن النفس يحول بينه وبين أن يثور، ويغريه بالقعود عن النضال

فجاءت ثورة الحسين عليه‌السلام وخلّفت في أعقابها لجماهير كثيرة شعوراً بالإثم، وتأنيباً للنفس وبرماً بها، ورغبة عارمة في التكفير. كانت كلّ هذه الأسباب تحول بين الناس وبين الثورة، فجاءت ثورة الحسين عليه‌السلام ونسفت هذه الأسباب كلّها، وأعدّت الناس إعداداً كاملاً للثورة.

وللرّوح النضالية شأن كبير وخطير في حياة الشعوب وحكّامها؛ فحين تكون الرّوح النضالية هامدة، وحين يكون الشعب مُستسلماً لحكّامه يشعر حكّامه بالأمان فيفعلون كلّ شيء، ويرتكبون ما يشاؤون دون أن يحسبوا حساب أحد. هذا من جهة الحاكمين.

وأمّا المحكومون فتلاحظ أنّه كلّما امتد الزمن بهمود الرّوح النضالية سهل التسلّط على الشعب، واستشرت فيه روح التواكل والخنوع، واستمرأ الرضا بحياته القائمة، ولم يعُد بحيث يُرجى منه القيام بمحاولة جدّية لتطوير واقعه وإثبات وجوده أمام حاكميه، وهذا يجعل إصلاحه وتطويره أمراً بالغ الصعوبة.

ولقد كان الإمام علي عليه‌السلام حريصاً على أن تبقى روح النضال حيّة نامية في الشعب؛ لتبقى للشعب القدرة على الثورة حين تدعو الأحوال للثورة، وتشهد لذلك هذه الكلمة التي قالها وهو على فراش الموت، ومن جملة وصيته: « لا تُقاتلوا الخوارج بعدي؛ فليس مَنْ طلب الحقّ فأخطأه كمَنْ طلب الباطل فأدركه »(1). معرّضاً بمعاوية بن أبي سفيان.

وعلّة هذا واضحة، فقد حارب هو الخوارج؛ لأنّهم تمرّدوا على حكم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: نهج البلاغة - الحكمة 61.

يتجاوب مع مصالح الشعب العليا، انسياقاً مع أفكار خاطئة وسخيفة، ولكن هذا لم يغيّر موقفهم من الحكم الاُموي الذي كانوا لا يزالون يرونه حكماً بغير حقّ، فكان يريد ألاّ يتكتّل المجتمع ضدّهم بعده؛ إذ سيُمكنهم سكون المجتمع عنهم من وخز الحكم الاُموي دائماً، وبذلك لا يخلو الجو تماماً للحكّام الاُمويِّين.

ولكن وصيته لم تُمتثل، فتكتّل المجتمع ضدّهم وحاربهم، ومع ذلك ظلّوا شوكة في جنب الحكم الاُموي دائماً، ولكنّهم لم يُؤثّروا فيه لأسباب تقدّم ذكرها.

\* \* \*

ولكي نخرج بفكرة واضحة عن مدى تأثير ثورة الحسين عليه‌السلام في بعث روح الثورة في المجتمع الإسلامي، يحسن بنا أن نلاحظ أنّ هذا المجتمع أخلد إلى السكون عشرين عاماً كاملة قبل ثورة الحسين عليه‌السلام، لم يقم خلالها بأيّ ثورة على توفر الدواعي إلى الثورة خلال هذه الأعوام الطوال.

فمنذ قتل أمير المؤمنين علي عليه‌السلام، وغدا أمر الحكم للاُمويِّين خالصاً، إلى حين ثورة الحسين عليه‌السلام لم يقم في هذا المجتمع أيّ احتجاج جدّي جماعي على ألوان الاضطهاد والتقتيل وسرقة أموال الأمّة التي كان يقوم بها الاُمويّون وأعوانهم، بل كان موقف السادة من هذه الأفاعيل هو إيجاد المُبرّرات الدينية والسياسية، وكان موقف الجماهير هو موقف الخضوع والتسليم. عشرون عاماً على هذا المجتمع - من سنة أربعين إلى سنة ستين للهجرة - وهذه هي حالته.

وتغيّرت هذه الحالة بعد سنة ستين، بعد ثورة الحسين عليه‌السلام؛ فقد بدأ الشعب يثور، وبدأت الجماهير ترقب زعيماً يقودها، هي مستعدة للثورة وللتمرّد على الاُمويِّين في كلّ حين، ولكنّها تحتاج إلى قائد، وكلّما وجد القائد وجدت الثورة على حكم الاُمويِّين.

التمرّد الوحيد الذي كان يُصادفه الاُمويّون طيلة هذه العشرين عاماً وعلى فترات متعاقبة هو تمرّد الخوارج، ولكنّه - كما قدّمنا - لم يكن مُتجاوباً مع المجتمع الإسلامي فلم يكن ناجحاً، وكانت السلطة تقمعه بجيوش تُؤلّفها من سكّان البلاد التي ينجم التمرّد فيها.

ولكن ما حدث بعد ثورة الحسين عليه‌السلام كان شيئاً آخر، كان تمرّداً يحظى بعطف المجتمع الإسلامي كلّه، مَنْ شارك فيه ومَنْ لم يشارك، وكانت أسبابه بعيدة عن تلك التي تدفع الخوارج إلى الثورة.

كانت أسباباً تنبع من واقع المجتمع؛ من الظلم والاضطهاد والتجويع، ولم يتمكّن الحكّام الاُمويّون من قمع هذه الثورات بجيوش من سكّان المناطق الثائرة، فقد كانوا يعرفون أنّ ثمّة تجاوباً نفسياً بين الثائرين وبين القاعدين، فاضطروا إلى قمع هذه الثورات بجيوش أجنبية عن مناطق الثائرين، اضطروا إلى جلب جيوش سورية، وإقرار حاميات دائمة في مراكز الحكم.

هذه صورة مجملة لوضع المجتمع الإسلامي بعد ثورة الحسين عليه‌السلام فلنأخذ بشيء من التفصيل.

## ثورة التوّابين

كان أوّل رد فعل مباشر لقتل الحسين عليه‌السلام هو حركة التوّابين في الكوفة، فلمّا قُتل الحسين عليه‌السلام ورجع ابن زياد مع معسكره بالنخيلة تلاقت الشيعة بالتلاؤم والتندّم، ورأت أنّها قد أخطأت خطأً كبيراً بدعاء الحسين عليه‌السلام إلى النصرة وتركهم إجابته، ومقتله إلى جانبهم ولم ينصروه، ورأوا أنّه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلاّ بقتل مَنْ قتله أو القتل فيه.

ففزعوا بالكوفة غلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة: سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجيّة الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن وائل التميمي، رفاعة بن شداد البجلي، فاجتمعوا، وبدأ المسيب بن نجيّة الكلام فقال: «... وقد كنّا مُغرمين بتزكية أنفسنا، وتقريظ شيعتنا حتّى بلا الله خيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن بنت نبيّنا صلى‌الله‌عليه‌وآله، وقد بلغتنا كتبه، وقدمت علينا رسله، وأعذر

إلينا يسألنا نصره، عوداً وبدءاً، وعلانية وسرّاً، فبخلنا عنه بأنفسنا حتّى قُتل إلى جانباً؛ لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألسنتنا، ولا قوّيناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا عند ربّنا وعند لقاء نبيّنا؟ لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتليه والموالين عليه، أو تُقتلوا في طلب ذلك؛ فعسى ربّنا أن يرضى عنّا عند ذلك ».

وتكلّم سليمان بن صرد الخزاعي - وقد جعلوه زعيماً لهم - فقال: « إنّا كنّا نمدّ أعناقنا إلى قدوم آل نبيّنا ونُمنّيهم النصر ونحثهم على القدوم، فلمّا قدموا ونينا وعجزنا وأدهنّا وتربصنا وانتظرنا ما يكون، حتّى قُتل فينا ولد نبيّنا وسلالته وبضعة من لحمه ودمه. ألا انهضوا قد سخط ربّكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتّى يرضى الله، وما أظنّه راضياً حتّى تُناجزوا مَنْ قتله أو تُبيروا، ألا لا تهابوا الموت؛ فوالله ما هابه امرؤ قطّ إلاّ ذلّ. كونوا كالأوّل من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيّهم: ( إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ) ».

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان ومَنْ معه من الشيعة بالمدائن يأمرهم فأجابوه إلى دعوته، وكتب إلى المثنى بن مخرمة العبدي في البصرة وللشيعة هناك فأجابوه إلى ذلك.

وكان أوّل ما ابتدؤوا به أمرهم بعد قتل الحسين عليه‌السلام سنة إحدى وستين، فما

زالوا بجمع آلة الحرب ودعاء الناس في السرّ إلى الطلب بدم الحسين عليه‌السلام، فكان يجيبهم القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر من الشيعة وغيرها، فلم يزالوا كذلك [ حتّى ] مات يزيد، فخرجت طائفة دعاة يدعون الناس، فاستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد أضعاف مَنْ كان استجاب لهم قبل ذلك.

وخرجوا يشترون السلاح ظاهرين، ويجاهرون بجهازهم وما يصلحهم، حتّى إذا كانت ليلة الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين خرجوا وتوجّهوا إلى قبر الحسين عليه‌السلام، فلمّا وصلوا إليه صاحوا صحية واحدة فما رُئي يوم أكثر باكياً منه، وقالوا: « يا ربّ، إنّا قد خذلنا ابن بنت نبيّنا فاغفر لنا ما مضى وتب علينا إنّك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصدّيقين، وإنّا نُشهدك يا ربّ إنّا على مثل ما قُتلوا عليه، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ».

وغادروا القبر مُستقتلين، فقاتلوا جيوش الاُمويِّين حتّى اُبيدوا جميعاً(1).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/426 - 436 و449 - 473. سجل ثورة التوابين، والتي ظهرت سنة (61 هـ) وانتهت بالفشل سنة (65 هـ)، وكان قائد النهضة يلقّب بشيخ الشيعة.

انظر: الصلة بين التصوّف والتشيّع 1/22، وتأريخ العراق - للخربوطلي/123، وتأريخ العرب - فيليب حتّي 2/253، مروج الذهب 3/100، تاريخ الطبري 7/46، ابن الأثير في الكامل 4/58، البلاذري في أنساب الأشراف 5/510.

لقي التوابون الهزيمة في موقعة عين الوردة على يد الجيش الاُموي بقيادة عبيد الله بن زياد سنة 65 هـ انظر: البداية والنهاية 8/322، نظم درر السمطين/219، المعجم الكبير 3/125، مسند أبي يعلى 5/54، مجمع الزوائد 9/196، فرق الشيعة/24، تأريخ ابن الأثير 4/82 - 108، تاريخ الطبري 7/146، الحور العين/182، الأخبار الطوال/282، مروج الذهب 3/98، تأريخ الإسلام - للذهبي 2/369، المصنّف - للكوفي 2/55.

ولقد اعتبر التوابون أنّ المسؤول الأول والأهم عن قتل الحسين عليه‌السلام هو النظام وليس الأشخاص، وكانوا مُصيبين في هذا الاعتقاد؛ ولذا نراهم توجّهوا إلى الشام ولم يلقوا بالاً إلى مَنْ في الكوفة من قتلة الحسين عليه‌السلام.

ونلاحظ هنا أنّ هذه الثورة قد انبعثت عن شعور بالإثم والندم وعن رغبة في التكفير، فمَنْ يقرأ أقوالهم وكتبهم وخطبهم يلمس فيها الشعور العميق بالإثم والندم والرغبة الحارة في التكفير، وكونها صادرة عن هذه البواعث جعلها ثورة انتحارية استشهادية؛ فالثائرون هنا يريدون الانتقام والتكفير ولا يستهدفون شيئاً آخر وراء ذلك، فلا يريدون نصراً ولا ملكاً ولا مغانم، وإنّما يريدون انتقاماً فقط، وقد خرجوا من ديارهم وهم على مثل اليقين بأنّهم لا يرجعون إليها، كانوا يريدون أن يموتوا، ولقد بُذل لهم الأمان فلم يقبلوا(1).

وإذاً، فلم تكن لهذه الثورة أهداف اجتماعية واضحة ومُحدّدة، لقد كان الهدف الواضح منها هو الانتقام والتكفير. وإنّ الفقرة التي في صدر خطاب سليمان بن صرد لتصوّر لنا بدقة متناهية حالة المجتمع قبل ثورة الحسين عليه‌السلام وموقفه من الحركات الإصلاحية كما عكسه موقف هذا المجتمع من ثورة الحسين عليه‌السلام نفسها.

وإنّ الكلمات في هذه الفقرة لتكاد تختلج حياء بما تحمل من معاني الونى والعجز والإدهان والتربّص والخذلان، كما إنّ بقيّة الخطاب وسائر ما قيل في الحثّ على هذه الثورة يُصوّر كيف كانت ثورة الحسين عليه‌السلام بركاناً عصف بكلّ هذا الركام من معاني العجز والانهيار والتلوّن، وأحلّ محلّه الرغبة العارمة في الثورة والاستشهاد.

وقد رأيت فيما مرّ عليك من نصّ الطبري أنّ الاستجابة للثورة لم تقتصر على الشيعة وحدهم، بل شاركهم فيها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر المصادر السابقة.

غيرهم ممّن يأملون تغيير الأوضاع عن طريق إزالة النير الاُموي بالثورة.

وكون هذه الثورة انتقامية انتحارية استشهادية لا هدف للقائمين بها إلاّ الانتقام والموت في سبيله يُفسّر لنا قلّة عدد المُستجيبين لها إلى النهاية؛ فقد أحصى ديوان سليمان بن صرد ستة عشر ألف رجل لم يخرج معه منهم أربعة آلاف(1)، ولم يستجب للدعوة من المدائن إلاّ مئة وسبعون رجلاً، ومن البصرة إلاّ ثلاثمئة رجل(2)، فالعمل الانتحاري الاستشهادي لا يستهوي إلاّ أفراداً على مستوى عالٍ من التضحية [والتشبّع] بالمبدأ، وهؤلاء قلّة في كلّ زمان.

هذا، ولكنّ الإنصاف للواقع يقتضينا أن نسجّل أنّ هذه الثورة وإن كانت ثورة انتحارية استشهادية ولم تكن لها أهداف اجتماعية واضحة، إلاّ إنّها أثّرت في مجتمع الكوفة تأثيراً عميقاً؛ فقد عبّأت خطب قادات هذه الثورة وشعاراتهم الجماهير في الكوفة للثورة على الحكم الاُموي؛ ولذلك فلم يكد يبلغهم خبر هلاك يزيد حتّى ثاروا على العامل الاُموي عمرو بن حريث فأخرجوه من قصر الإمارة، واصطلحوا على عامر بن مسعود الذي بايع لابن الزّبير(3)، فكان ذلك مطلع العهد الذي زال فيه سلطان الاُمويِّين عن العراق إلى حين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/452.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/466.

(3) انظر: تأريخ الطبري 4/404.

## ثورة المدينة

وكانت ثورة المدينة ردّ فعل آخر لمقتل الحسين عليه‌السلام، إلاّ إنّنا هنا نشاهد لوناً آخر من الثورات، ثورة تختلف عن ثورة التوابين في الدوافع والأهداف. لقد كانت الدوافع إلى هذه الثورة شيئاً غير الانتقام، كانت ثورة تستهدف تقويض سلطان الاُمويِّين الظالم الجائر البعيد عن الدين.

وما نشكّ في أنّ شُعلة هذه الثورة كانت مُتأجّجة ولكنّها كانت تبحث عن مُبرّر للانفجار، والذي أجّج شُعلة الثورة أسباب منها مقتل الحسين عليه‌السلام ولعلّه كان أهمّها؛ فإنّ زينب بنت علي عليها‌السلام دأبت بعد وصولها إلى المدينة على العمل للثورة، وعلى تعبئة النفوس لها، وتأليب الناس على حكم يزيد، حتّى لقد خاف عمرو بن سعيد الأشدق والي يزيد على المدينة انتقاض الأمر، فكتب إلى يزيد عن نشاطها كتاباً قال فيه: إنّ وجودها بين أهل المدينة مُهيّج للخواطر، وإنّها فصيحة عاقلة لبيبة، وقد عزمت هي ومَنْ معها على القيام للأخذ بثأر الحسين.

فأتاه كتاب يزيد بأن يُفرّق بينها وبين الناس(1).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: زينب الكبرى - جعفر النقدي/120 - 122 نقلاً عن النسابة العبيدلي في (أخبار الزينبات)، والدكتورة بنت الشاطئ في كتابها بطلة كربلاء.

وقد كان السبب المباشر لاشتعال الثورة هو وفد أهل المدينة إلى يزيد؛ فقد أوفد عثمان بن محمد بن أبي سفيان والي المدينة إلى زيد وفداً من أهلها فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري غسيل الملائكة، وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، والمُنذر بن الزّبير، ورجالاً من أشراف أهل المدينة، فقدموا على يزيد فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، فلمّا رجعوا قدموا المدينة كلّهم إلاّ المنذر بن الزّبير؛ فإنّه قدم العراق.

فلمّا قدم اُولئك النفر الوفد المدينةَ قاموا في أهل المدينة وأظهروا شتم يزيد وعيبه، وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين؛ يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، ويعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسعر عنده الحراب - وهم اللصوص - وإنّا نشهدكم أنّا قد خلعناه.

وقام عبد الله بن حنظلة الغسيل، فقال: جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلاّ بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت عطاءه إلاّ لأتقوى به. فخلعه الناس وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد وولّوه عليهم.

وأمّا المنذر بن الزّبير فقدم المدينة فكان ممّن يُحرّض الناس على يزيد، وقال: « إنّه قد أجازني بمئة ألف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره وأصدقكم عنه؛ والله إنّه ليشرب الخمر، والله إنّه ليسكر حتّى يدع الصلاة ».

وعابه بمثل ما عابه به أصحابه وأشدّ.

وثارت المدينة على الحكم الاُموي، وطرد الثائرون عامل يزيد والاُمويِّين، وقدرهم ألف رجل، ولم ينفع الوعد ولا الوعيد في ردّهم عن ثورتهم، فقُمعت الثورة بجيش من الشام بوحشيّة متناهية، ودعا القائد الاُموي مسلم بن عقبة المُرّي لبيعة يزيد بن معاوية كما نقل الطبري وغيره: دعا الناس للبيعة على أنّهم خول ليزيد بن معاوية، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء(1).

\* \* \*

وهلك يزيد، وقد باشر جيشه بقمع ثورة ابن الزّبير في مكة بعد أن فرغ من قمع ثورة المدينة، وكان ابن الزّبير قد أعلن الخلاف بعد ما بلغه مقتل الحسين عليه‌السلام، ولا يمكن أن نعتبر ثورة ابن الزّبير امتداداً لثورة الحسين عليه‌السلام؛ فقد كان ابن الزّبير يعد العدّة للثورة قبل مقتل الحسين عليه‌السلام، وكانت أطماعه الشخصيّة في الحكم هي بواعثه على الثورة، وكان يرى في الحسين عليه‌السلام منافساً خطيراً كما عرفت.

فلمّا بلغ خبر مقتل الحسين عليه‌السلام أهل مكة وثب إليه أصحابه وقالوا: أظهر بيعتك؛ فإنّه لم يبقَ أحد إذ هلك الحسين ينازعك الأمر، ولكنّه قال لهم: لا تعجلوا. حتّى إذا كانت سنة خمس وستين بُويع له في الحجاز والعراق، والشام والجزيرة(2).

وما نشكّ في أنّ استجابة الناس للثورة التي دعا لها ابن الزّبير كان مبعثها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري « ثورة المدينة » 4/366 - 381 و7/13، الفتوح - لابن أعثم 5/300، التنبيه والأشراف/64، ومروج الذهب 3/71، وطبقات ابن سعد 5/215، فتح الباري 13/70، كتاب المحن 1/155.

(2) انظر المصادر السابقة.

هذه الروح الجديدة التي بثّتها ثورة الحسين عليه‌السلام الدامية في نفوس الجماهير، وقد مرّ عليك آنفاً كيف أثّر التوابون في الكوفة على الحكم الاُموي بحيث أعدّوا الناس لتقبّل حكم ابن الزّبير وطرد عامل بني اُميّة على العراق.

## ثورة المختار الثقفي

ودخلت سنة ست وستين للهجرة، فثار المختار بن أبي عبيدة الثقفي بالعراق طالباً ثأر الحسين عليه‌السلام. ولكي نعرف السرّ في استجابة جماهير العراق لابن الزّبير أوّل الأمر ثمّ انقلابها عليه واستجابتها لدعوة المُختار، لا بدّ أن نلاحظ أنّ مجتمع العراق كان يطلب إصلاحاً اجتماعياً، وكان يطلب الثأر من الاُمويِّين وأعوانهم؛ وعلى أمل الإصلاح الاجتماعي والانتقام استجاب مجتمع العراق لابن الزّبير، فهو عدو الاُمويِّين من جهة، وهو يتظاهر بالإصلاح والزهد والرغبة عن الدنيا من جهة اُخرى، فلعلّ سلطانه أن يُحقّق كلا الأمرين.

ولكنّ سلطان ابن الزّبير لم يكن خيراً من سلطان الاُمويِّين؛ لقد أخرج العراق عن سلطانهم، ولكن قاتلي الحسين عليه‌السلام كانوا مُقرّبين إلى السلطة كما كانوا في عهد الاُمويِّين.

إنّ شمر بن ذي الجوشن، وشبت بن ربعي، وعمر بن سعد، وعمرو بن الحجّاج، وغيرهم كانوا سادة المجتمع في ظلّ سلطان ابن الزّبير، كما كانوا سادته في ظلّ سلطان يزيد. كما إنّه لم يُحقّق لهم العدل الاجتماعي الذي يطلبونه، لقد كانوا يحنّون إلى

سيرة علي بن أبي طالب عليه‌السلام فيهم، هذه السيرة التي حقّقت لهم أقصى ما يمكن من رفاه وعدل.

هذا عبد الله بن مطيع العدوي عامل ابن الزّبير على الكوفة يقول للناس إنّه أمر أن يسير بسيرة عمر وعثمان، فيقول له المتكلّم بلسان أهل الكوفة: «... أمّا حمل فيئنا برضانا فإنّا نشهد أنّا لا نرضى أن يُحمل عنّا فضله، وألاّ يُقسم إلاّ فينا، وأن لا يُسار فينا إلاّ بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا، ولا في سيرة عمر بن الخطّاب فينا وإن كانت أهون السيرتين علينا »(1).

كان هذا أو ذاك سبباً في انخذال الناس عن ابن الزّبير وتأييدهم لثورة المختار عليه، ولقد ربط المختار دعوته بمحمد بن الحنفيّة بن علي بن أبي طالب عليهم‌السلام، وهذا ما جعلهم يطمئنون إلى عدل السيرة والإصلاح، لقد جعل شعاره « يا لثارات الحسين » وهذا يُحقّق لهم الهدف الثاني.

ولقد حارب عبد الله بن مطيع عامل ابن الزّبير في الكوفة الثائرين مع المختار بالرجال الذين تولّوا قتل الحسين عليه‌السلام. لقد حاربهم بشمر بن ذي الجوشن، وعمرو بن الحجّاج، وشبث بن ربعي وأمثالهم، وكان هذا كافياً في حفز الثائرين على المضي في ثورتهم والتصميم على النصر.

وقد أنصف المختار عندما تولّى الحكم طبقة في المجتمع الإسلامي كانت مُضطهدة في عهد الاُمويِّين واستمر اضطهادها في عهد ابن الزّبير، وهي طبقة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: أنساب الأشراف 5/220 - 221.

الموالي « المسلمين غير العرب »، فقد كانت عليهم واجبات المسلمين ولم تكن لهم حقوقهم، فلمّا استتب الأمر للمختار أنصفهم فجعل لهم من الحقوق مثل ما لغيرهم من عامّة المسلمين.

وقد أثار هذا العمل الأشراف وسادة القبائل فتكتّلوا ضدّ المختار، وتآمروا عليه، وأجمعوا على حربه، وكان على رأس هؤلاء المتمردين قتلة الحسين عليه‌السلام، ولكنّهم فشلوا في حركتهم(1).

وكانت حركة التمرّد هذه سبباً في حفز المختار على التعجيل بتتبع قتلة الحسين عليه‌السلام وآله في كربلاء وقتلهم؛ فقتل منهم في يوم واحد مئتين وثمانين رجلاً(2)، ثمّ تتبعهم فقتل كثيراً منهم، ولم يفلت من زعمائهم أحد؛ فقتل شمر بن ذي الجوشن، وعمر بن سعد، وعمرو بن الحجّاج، وشبث بن ربعي، وغيرهم(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/517.

(2) انظر: تأريخ الطبري 4/424.

(3) انظر: تأريخ الطبري « ثورة المختار » 4/487 - 577.

## ثورة مطرف بن المغيرة

وفي سنة 77 للهجرة ثار مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجّاج بن يوسف وخلع عبد الملك بن مروان. كان هذا الرجل والياً للحجّاج على المدائن، وكان حيّ الضمير، فلم يعمِ عينيه السلطان الذي حباه به الاُمويّون عن إدراك الظلم الفادح الذي ينزلونه بالأمّة المسلمة، وقد اتصل به دعاة الخوارج فأرادوه على أن ينظمّ إليهم ويسلّم بإمرة المؤمنين لزعيمهم شبيب، وأرادهم على أن ينظمّوا إليه ليعيدوا الأمر شورى في المسلمين، فأبى وأبوا، واستشار نصحاءه في الثورة فلم ينصحه بها أحد منهم، ولكنّه ثار بمَنْ أجابه.

وكلّم رؤوس أصحابه، فقال: « أمّا بعد، فإنّ الله كتب الجهاد على خلقه، وأمر بالعدل والإحسان، وقال: فيما أنزل علينا: ( وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ )(1)، وإنّي اُشهد الله أنّي خلعت عبد الملك بن مروان والحجّاج بن يوسف، فمَنْ أحبّ منكم صحبتي

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) سورة المائدة/2.

وكان على مثل رأيي فليبايعني؛ فإنّ له الأسوة وحُسن الصحبة، ومَنْ أبى فليذهب حيث شاء؛ فإنّي لست أحبّ أن يتبعني مَنْ ليس له نيّة في جهاد أهل الفجور. أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه وإلى قتال الظلمة، فإذا جمع الله لنا أمرنا كان هذا الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم مَنْ أحبّوا ».

وكتب إلى سويد بن سرحان الثقفي وبُكير بن هارون البجلي: « أمّا بعد، فإنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، وإلى جهاد مَنْ عَنِدَ عن الحقّ، واستأثر بالفيء، وترك حكم الكتاب، فإذا ظهر الحقّ ومنع الباطل، وكانت كلمة الله هي العليا، جعلنا هذا الأمر شورى بين الأمّة؛ يرتضي المسلمون لأنفسهم الرضا، فمَنْ قبل هذا منّا كان أخانا في ديننا، وولّينا في محيانا ومماتنا، ومَنْ ردّ ذلك علينا جاهدناه واستنصرنا الله عليه »(1).

هذا هو منهج ثورة مطرف، وفيه عبير من روح كربلاء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تاريخ الطبري 4/517 « ثورة مطرف ».

## ثورة ابن الأشعث

وفي سنة 81 للهجرة ثار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الحجّاج وخلع عبد الملك بن مروان. وسبب هذه الثورة التي هزّت الحكم الاُموي على حدّ تعبير ولهاوزن(1) هو الفتوح الاستعمارية التي أدرك الشعب أنّها ليست في مصلحته؛ فقد أرسل الحجّاج عبد الرحمن إلى سجستان على رأس جيش عراقي في الوقت الذي كان جيش الشام الذي قضى على حركة الخوارج لا يزال مرابطاً في العراق(2)، وقد أبدى عبد الرحمن مهارة عسكرية فائقة؛ ففتح قسماً من البلاد(3)، فكتب إلى الحجّاج يُعرّفه ذلك، وأنّ رأيه أن يتركوا التوغّل في بلاد رتبيل حتّى يعرفوا طريقها ويجبوا خراجها.

فكتب إليه الحجّاج يوبّخه على ذلك، ويتّهمه بالعجز، ويأمره بالتوغّل، وكتب إليه بذلك ثانياً وثالثاً. وعرض عبد الرحمن على جنوده أمر الحجّاج بعد أن بيّن لهم رأيه الذي

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الدولة العربيّة/190.

(2) انظر: الدولة العربيّة/202.

(3) انظر: الدولة العربيّة/190.

استقر عليه بعد أن استشار قوّاده واُمراء جنده، ثمّ قال: وإنّما أنا رجل منكم؛ أمضي إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم. فثار إليه الناس وقالوا: بل نأبى على عدوّ الله، ولا نسمع له ولا نطيع.

وقام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني(1)، وله صحبة، فقال: أمّا بعد، فإنّ الحجّاج يرى بكم ما رأى القائل الأوّل:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هو الصحابي أبو الطفيل عامر بن واثلة، القائل له معاوية: ألست من قتلة عثمان؟

قال أبو الطفيل: لا، ولكنّي لم أنصره.

قال معاوية: وما منعك من نصره؟

قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار.

قال معاوية: كان حقّاً واجباً عليهم أن ينصروه.

قال له أبو الطفيل: وما منعك أن تنصره ومعك أهل الشام؟

قال معاوية: أما طلبي بدمه فنصرة له.

فضحك أبو الطفيل وقال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا ألفينّكَ بعدَ الموتِ تندبني |  | وفي حياتيَ ما زوّدتني زادا |

يُنسب هذا الشعر إلى عبيد الله بن الأبرص، والقصّة بذاتها هكذا: قدم أبو الطفيل يوماً على معاوية فقال له: كيف وجدك على خليلك أبي الحسن؟ قال: كوجد اُمّ موسى لموسى، وأشكو إلى الله التقصير.

فقال معاوية: وكنت فيمَنْ حصر عثمان؟ قال: لا، ولكنّي فيمَنْ حضره.

قال: فما منعك من نصره... إلخ. ثم قال له: أنت وعثمان كما قال الشاعر.

انظر: تأريخ الخلفاء/133، الاستيعاب 4/1696، الإمامة والسياسة 1/215، مروج الذهب، ولكن نسب الشعر إلى النابغة الجعدي. ديوان عبيد/63، الشعر والشعراء/269، الأغاني 19/89، الإصابة 1/415، تأريخ ابن عساكر 26/116، الطبقات الكبرى 3/163، فصل المقال/241 الطبعة الثانية. وانظر: كتاب العقاد الموسوم بـ (معاوية بن أبي سفيان)/100، طبع بمطابع مؤسسة دار الهلال.

احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك.

إنّ الحجّاج ما يبالي أن يُخاطر بكم فيُقحمكم بلاداً كثيرة، ويغشي اللهوب واللصوب؛ فإن غنمتم وظفرتم أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوّكم بكم كنتم أنتم الأعداء البُغضاء الذين لا يُبالي عنتهم. اخلعوا عدوّ الله الحجّاج وبايعوا الأمير عبد الرحمن، فإنّي اُشهدكم أنّي أوّل خالع. فنادى الناس من كلّ جانب: فعلنا، فعلنا، قد خلعنا عدوّ الله.

وقال عبد المؤمن بن شبث بن ربعي: « عباد الله، إنّكم إن أطعتم الحجّاج جعل هذه البلاد بلادكم، وجمركم تجمير فرعون الجنود. ولن تعاينوا الأحبّة أو يموت أكثركم فيما أرى، فبايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوّكم الحجّاج فانفوه عن بلادكم ».

فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه على خلع الحجّاج ونفيه من أرض العراق، وقفلوا راجعين، حتّى إذا بلغوا فارس خلعوا عبد الملك على كتاب الله وسنّة نبيّه، وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم، وجهاد المُحلّين.

فلمّا بلغ البصرة بايعه جميع أهلها وقرّائها وكهولها، مُستبصرين في قتال الحجّاج ومَنْ معه من أهل الشام وخلع عبد الملك. وسبب إسراع أهل البصرة إلى مساندة الثورة هو الظلم والجوع؛ فقد كتب عمّال الحجّاج إليه أنّ الخراج قد انكسر، وأنّ أهل الذمّة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار.

فكتب إلى البصرة وغيرها: مَنْ كان له أصل في قرية فليخرج إليها، فخرج الناس فعسكروا، فجعلوا يبكون

وينادون: يا محمداه! يا محمداه! وجعلوا لا يدرون أين يذهبون، فجعل قرّاء أهل البصرة يخرجون إليهم مُتقنّعين فيبكون لما يسمعون منهم ويرون، فقدم ابن الأشعث على مجتمع معبّأ ينتظر قائداً، فاستجاب المجتمع هذه الاستجابة السريعة، واستبصر قرّاء البصرة في قتال الحجّاج مع عبد الرحمن بن الأشعث.

وقد استمرت هذه الثورة من سنة 81 هـ إلى سنة 83 هـ، وأحرزت انتصارات عسكرية، ثمّ قضى عليها الحجّاج بجيوش سورية(1).

هذه هي ثورة عبد الرحمن بن الأشعث، وهي ثورة قام بها العرب ولم يقم بها الموالي. قام بها العرب العراقيون الذين ساءت حالتهم الاقتصادية إلى حدّ مروّع، والذين استُخدموا في الفتوح الاستعمارية دون أن يحصلوا على غنائمها، والذين كان عليهم أن يُحاربوا مقابل جرايات ضئيلة لا تكفي، بينما يفوز بالمغانم والأعطيات الكثيرة الجنود السوريون الذين تركهم الحجّاج في العراق؛ ليستعين بهم على قمع الثورات التي يقوم بها العراقيون(2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: تأريخ الطبري « ثورة ابن الأشعث ».

(2) كتب ولهاوزن عن هذه الثورة بوعي وفهم. راجع الدولة العربيّة/189 - 203.

ثورة زيد بن علي بن الحسين عليهم‌السلام

وفي سنة 121 هـ تهيّأ زيد بن علي بن الحسين عليهم‌السلام(1) للثورة في الكوفة، وثار في سنة 122 هـ. وخُنقت الثورة في مهدها بسبب الجيش الاُموي الذي كان مُرابطاً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ينتسب عليه‌السلام من قبل أبيه إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه‌السلام، ابن عمّ الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله، وإلى فاطمة الزهراء البتول بنت رسول الله عليها‌السلام، فهو إذاً ذو نسب رفيع شريف لا يساويه ولا يدانيه نسب؛ فوالده علي زين العابدين عليه‌السلام الذي كان يلهج بذكر الله، وكان ورعاً تقياً كثير العبادة حتّى سُمّي زين العابدين لكثرة عبادته.

انظر: تأريخ الطبري 8/260، خطط المقريزي 4/307، ينابيع المودّة 3/105 طبعة أسوة، الصواعق المحرقة - لابن حجر/200، تهذيب التهذيب - للعسقلاني 7/306، شدرات الذهب - لابن العماد 1/104.

وقد ترعرع الإمام زيد عليه‌السلام بعد استشهاد أبيه عليه‌السلام في كنف العلم، ونبل الهداية، وشدّة الإباء، والشرف الهاشمي، ألا وهو أخوه الإمام محمد الباقر عليه‌السلام، باقر علوم الأولين والآخرين، ومَنْ هو في زهده وورعه وتقواه ليس له نظير؛ لذا يتّضح أنّ زيداً عليه‌السلام نشأ في أعرق بيوتات العلم والزهد والتقوى؛ حيث ترعرع في كنف الإمام علي بن الحسين، ومحمد الباقر عليهما‌السلام، فأخذ عنهما معالم الإمامة والقيادة قبل فيض الاُبوّة وسداد الاُخوّة.

انظر: الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير - لشرف الدين الحسين بن أحمد بن صالح السّياغي 1/77، التحفة الاثني عشرية (مخطوط)، حياة الإمام زيد. انظر: تأريخ الطبري 8/194، سر السلسلة العلوية (مخطوط)، حياة الإمام زيد. =

في العراق.

(يا أهل الكوفة، اخرجوا من الذلّ إلى العزّ، اُخرجوا إلى الدين والدنيا؛ فإنّكم لستم في دين ولا دنيا(\*)...)(1).

ويبدو أنّ الدعوة إلى الثورة لقيت استجابة واسعة من الجماهير المسلمة في أقطار كثيرة من بلاد الإسلام؛ فقد بويع زيد على الثورة في الكوفة والبصرة، وواسط والموصل، وخراسان والرّي وجرجان. ولقد كان حريّاً بثورته أن تنجح لولا اختلال التوقيت؛ فقد حدث ما دفع زيداً إلى إعلان الثورة قبل الموعد الذي بينه وبين أهل الأمصار(2).

وقد تكوّن بفضل هذه الثورة جهاز ثوري دائم على استعداد للمساهمة في كلّ عمل ثوري ضدّ السلطة، وهو طائفة الزيدية الذين يرون أنّ الإمام المُفترض الطاعة هو كلّ قائم بالسيف ذوداً عن الدين ضدّ الظالمين.

قال ولهاوزن:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

= اختلفت الروايات في سنة ولادته عليه‌السلام، قيل: إنّه ولد بالمدينة المنوّرة بعد طلوع الفجر سنة (66 أو 67 من الهجرة)، وقيل: (سنة 75 هـ)، وقيل: (سنة 78 هـ)، وقيل: (سنة 80 هـ). انظر: الحدائق الوردية في مناقب الأئمّة الزيدية - لأبي عبد الله حميد بن أحمد المحلي التميمي الوادعي 1/143، ومخطوطة مكتبة آل كاشف الغطاء برقم « 713 ».

انظر: تأريخ ابن عساكر 6/18، انظر: تهذيب التهذيب 2/244، بغية الطالب 9/4027، الوافي الوفيات 15/33/مقاتل الطالبيِّين/127، سير أعلام النبلاء 5/389، تأريخ مدينة دمشق 19/450، تاريخ الكوفة/327، فوات الوفيات 1/164، تأريخ الطبري 8/260، تأريخ اليعقوبي 3/66، وكتابنا، الزيدية بين الإمامية وأهل السنة.

(\*) هكذا وردت هذه الفقرة هنا، ويبدو أن هناك حلقة مفقودة وقعت سهواً من قِبل الناسخ، وإلاّ فاقحامها في هذا المكان بيّن الغرابة. (موقع معهد الإمامين الحسنين)

(1) انظر: تأريخ الطبري 4/205، أنساب الأشراف 3/203، البداية والنهاية 9/330، الكامل في التأريخ 4/247.

(2) انظر: مقاتل الطالبيِّين/135 - 136.

« ولئن كان عُصيان زيد قد انتهى انتهاء مُفجعاً فإنّه مُهمّ؛ ذلك أنّ ثورات الشعب التي حدثت بعده والتي أدّت إلى انهيار دولة دمشق انهياراً نهائياً كانت ذات علاقة بها، وسرعان ما ظهر أبو مسلم بعد وفاة يحيى آخذاً بثأره، قاتلاً قتلته »(1).

وهذا يبرز بوضوح عظيم تأثير ثورة الحسين عليه‌السلام في تغذية الرّوح الثورية ومدّها بالعطاء، فما ثورة زيد إلاّ قبس من ثورة جدّه في كربلاء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: الدولة العربيّة/271.

## ثورة أبي السرايا

هذه نماذج للرّوح الثورية التي بثّتها ثورة الحسين عليه‌السلام في الشعب المسلم، فقضت بذلك على روح التواكل والخنوع والتسليم للحاكمين، وجعلت من الشعب المسلم قوّة معبّأة وعلى أهبة الانفجار دائماً.

ولقد استمرت طيلة الحكم الاُموي ضدّ هذا الحكم حتّى قضت عليه بثورة العباسيّين، هذه الثورة التي لم تكن لتنجح لو لم تعتمد على إيحاءات ثورة كربلاء، وعلى منزلة الثائرين في كربلاء في نفوس المسلمين. ولم تُبدّل هذه الثورة كثيراً من واقع الشعب المسلم، بل لعلّنا لا نعدوا الحقّ إذا قلنا أنّها لم تُبدل شيئاً سوى وجوه الحاكمين. ولكن هذا لم يخمد الرّغبة في الثورة بقدر ما كان حافزاً عليها، فاستمرت الثورات على حالتها ومضى العباسيّون وجاءت دول بعدهم.

ولم تخمد الثورات بل بقيت ناشبة أبداً، يقوم بها الإنسان المسلم دائماً، فيُعبّر بها عن إنسانيته التي خنقها الحاكمون وزيّفوها. ولقد كانت هذه الثورات كما رأينا صادرة عن وعي للواقع، وإحساس بانحطاطه وقسوته، واحتجاج عليه ومحاولة لتطويره.

حدث هذا في ظلّ الحكم الاُموي وقد رأيت بعض نماذجه، وحدث في ظلّ

الحكم العباسي أيضاً.

ونضرب مثلاً بثورة أبي السرايا مع محمد بن إبراهيم بن طباطبا العلوي الحسني على المأمون(1).

كان محمد بن إبراهيم هذا يمشي في بعض طريق الكوفة إذ نظر إلى عجوز تتبع أحمال الرطب فتلقط ما يسقط منها فتجمعه في كساء عليها رثّ، فسألها عمّا تصنع بذلك، فقالت: إنّي امرأة لا رجل لي يقوم بمُؤنتي، ولي بنات لا يعدنَ على أنفسهنَّ بشيء، فأنا أتتبع هذا من الطريق وأتقوّته أنا وولدي. فبكى بكاءً شديداً، وقال: « أنتِ وأشباهك تُخرجوني غداً حتّى يُسفك دمي. ونفذت بصيرته في الخروج »(2).

فلمّا أعلن أمره خطب الناس ودعاهم إلى البيعة، وإلى الرضا من آل محمد، والدعاء إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسيرة بحكم الكتاب، فبايعه جميع الناس حتّى تكابسوا وازدحموا عليه(3).

ومات إبراهيم بن محمد بعد نشوب الثورة بقليل فلم تخمد، وإنّما قام عليها من بعده علي بن عبيد الله العلوي(4).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هو محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم‌السلام والذي اشتهر باسم (ابن طباطبا). انظر: الإفادة في تاريخ الأئمّة السادة/108، الكامل في التأريخ 6/82.

(2) انظر: مقاتل الطالبيِّين/521.

(3) انظر: مقاتل الطالبيِّين/523.

(4) انظر: مقاتل الطالبيِّين/531.

وشملت الثورة العراق والشام، والجزيرة واليمن(1).

ونقرأ عن هذه الثورة فنعجب بأخلاق الثائرين الجياع، وبضبطهم لأنفسهم؛ لقد أمسك هؤلاء الثائرون عن النهب والسلب بعد أن هزموا عدوّهم واستولوا على حصنه بمجرد أن أمرهم قائدهم بأن يُمسكوا(2).

وأقبل أهل بغداد - جنود السلطة - يصيحون: « يا أهل الكوفة، زينوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، والله لنفعلنّ [بهن] كذا وكذا. ولا يُكنون. والثائرون يذكرون الله ويقرؤون القرآن، وقائدهم يقول لهم: اذكروا الله وتوبوا إليه، واستغفروه واستعينوه. صحّحوا نيّاتكم وأخلصوا الله ضمائركم، واستنصروه على عدوّكم، وابرؤوا إليه من حولكم وقوّتكم »(3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) انظر: مقاتل الطالبيِّين/533.

(2) انظر: مقاتل الطالبيِّين/525.

(3) انظر: مقاتل الطالبيِّين/350 و226.

## ماذا أفادت الاُمّة من انبعاث الروح النضاليّة؟

وقد يقول قائل إنّ الرّوح النضالية التي بعثتها ثورة الحسين عليه‌السلام في الشعب المسلم لم تطوّر واقع هذا الشعب بواسطة الثورات التي أشعلتها. لقد كانت الثورات تنشب دائماً، ولكنّها تخفق دائماً ولا تسوق إلى الشعب إلاّ مزيداً من الضحايا ومزيداً من الفقر والإرهاب.

وتقول: نعم، إنّها لم تطوّر واقع هذا الشعب تطويراً آنيّاً، ولم تقدّم في الغالب أيّة نتائج ملموسة، ولكنّها حفظت للشعب إيمانه بنفسه وبشخصيته وبحقّه في الحياة والسيادة وهذا نصر عظيم.

إنّ أخطر ما يُبتلى به شعب هو أن يُقضى على روح النضال فيه، إنّه حينئذ يفقد شخصيته ويذوب في خضمّ الفاتحين كما قدّر لشعوب كثيرة أن تضمحلّ وتذوب وتفقد كيانها؛ لأنّها فقدت روح النضال، ولأنّها استسلمت وفقدت شخصيتها ومقوّمات وجودها المعنوي فأذابها الفاتحون.

إنّ هذه الشعوب التي لم يحفظ لنا التأريخ إلاّ أسماءها لم تأت من ضعفها العسكري أو الاقتصادي، وإنّما أُتيت من فلسفة الهزيمة والتواكل والخنوع التي وجدت سبيلها إلى النفوس بعد أن خبت روح النضال في هذه النفوس.

ولو أنّها بقيت مؤمنة بشخصيتها وثقافاتها ومقوّماتها، ولو احتفظت بروح النضال حيّة في أعماقها لما استطاع الغزاة إبادتها، ولشقّت لنفسها طريقاً جديداً في التأريخ. وهذا ما حقّقته ثورة الحسين عليه‌السلام. لقد أجّجت ثورة الحسين عليه‌السلام تلك الرّوح التي حاول الاُمويّون إخمادها، وبقيت مستترة تعبّر عن نفسها دائماً في انفجارات ثورية عاصفة ضدّ الحاكمين مرّة هنا ومرّة هناك.

وكانت الثورات تفشل دائماً ولكنّها لم تخمد أبداً؛ لأنّ الرّوح النضالية كانت باقية تدفع الشعب المسلم إلى الثورة دائماً، إلى التمرّد، وإلى التعبير عن نفسه قائلاً للطغاة: إنّي هنا.

حتى جاء العصر الحديث وتعدّدت وسائل إخضاع الشعوب، وحُكم الشعب المسلم بطغمة لا تستوحي مصالحه، وإنّما تخدم مصالح آخرين، ومع ذلك لم يهدأ الشعب ولم يستكن، ولم تفلح في إخضاعه وسائل القمع الحديثة، وإنّما بقي ثائراً معبّراً عن إنسانيته دائماً بالثورة، بالدم المسفوح. وهكذا أثبتت الاُمّة الإسلاميّة وجودها ولم يجرفها التاريخ، وإنّما بقيت لتصنع التاريخ. هذا صنيع ثورة الحسين عليه‌السلام. لقد كانت هذه الثورة رأس الحرية في التطوّر.

إنّ الأفكار والمشاعر والرّوح التي خلقتها هذه الثورة، والتي نمّتها وأثرتها الثورات التي جاءت بعدها، والتي هي امتداد لها، هي التي صنعت تاريخ الكفاح الدامي من أجل التحرر لهذه البقعة من العالم. ولا ندري تماماً ماذا كان سيحدث لو لم يقم الحسين عليه‌السلام بثورته هذه.

غير إنّنا نستطيع أن نحدس ذلك الآن؛ لقد كان يحدث أن يستمر الحكم الاُموي دائماً نفسه بالدجل الديني، وبفلسفة التواكل والخنوع والتسليم.

وكان يحدث أن تستحكم هذه الفلسفة وهذا الجدل الديني في الشعب فيطأطئ دائماً لحاكميه، ويستكين الحاكمون لموقف الشعب منه فيلهون، ويضعفون عن القيام بأعباء الحكم وصيانة الدولة، ويغرقون في اللهو والترف.

وعاقبة ذلك هي الانحلال، انحلال الحاكمين والمحكومين، وكان يحدث أن يكتسح البلاد الفاتحون، فلا يجدون مقاومة ولا نضالاً بل يجدون انحلالاً من الحاكمين والمحكومين، ثم يجرف التاريخ اُولئك وهؤلاء. ولكن ما حدث غير ذلك؛ لقد انحلّ الحاكمون حقّاً، ولقد اكتسحت الدولة حقّاً، ولكنّ المحكومين لم ينحلّوا بل ظلّوا صامدين. وكان ذلك بفضل الرّوح التي بثّتها ثورة الثائرين في كربلاء.

خاتمة

ما نريده ونلح على أنّه ضروري لنا في مرحلتنا الثورية الراهنة هو ألسنة التاريخ، هو جعله ذا صلة بحياة الإنسان ومطامحه، هو إعداده ليندمج مع الكائن الإنساني في تركيب عضوي مُتفاعل مُتكامل وليس مجرّد انعكاس خاوٍ لحياة إنسانيّة سابقة.

لقد دأب مدوّنو التأريخ العرب على الاهتمام بالتأريخ الشخصي للملوك والقادة؛ فسجّلوا بإسهاب عظيم حروبهم وانتصاراتهم، ومجالس مجونهم ولهوهم، ولم يولوا الجانب الاجتماعي من الحياة الإسلاميّة - وهو ما يتّصل بحياة الأمّة - اهتماماً وإن كان ضئيلاً.

ومن هنا أضحى التأريخ عندنا - بالنسبة إلى الجماهير - مجرّد انعكاس لحيوات سابقة لا يُسهم في تكوين الشخصيّة الإنسانيّة. إنّه قد يُسهم في إثارة الحماس الخلاّق تارة والغرور المدمر اُخرى، ولكنّه لا يُسهم أبداً في تكوين شخصيّة إنسانيّة سوية مُتكاملة ترتكز على أصول إنسانيّة عريقة، فلا تفقد محور الارتكاز حين تتعرّض لامتحان قاسٍ لا يجتازه إلاّ الإنسان... الإنسان.

وإن حُقبتنا الحياتية الراهنة لتُحتم علينا أن نتناول التاريخ تناولاً إنسانياً،

تناولاً يُتيح له أن يكون عاملاً مطوّراً فيما يتعلّق بموقفنا من الحياة والكون.

إنّ اُمّتنا الإسلاميّة تجتاز في هذه الحقبة أدق وأخطر مرحلة من مراحل كفاحها الطويل عبر العصور. لقد حقّقت انتصارات باهرة يجب أن تُحافظ عليها، وتعمل في الوقت نفسه لتحقيق انتصارات جديدة. وهنا تكمن الخطورة في هذه المرحلة؛ إنّها الآن حين تقنع بالانتصارات التي حقّقتها وتقعد عن محاولة تحقيق غيرها تتعرّض لخطر فقد هذه الانتصارات نفسها، ولذلك فيجب أن تحمي هذه الأمّة نفسها من تطرق الوهن والاستسلام إليها. يجب ألا ترضى عن نفسها. هذه واحدة.

واُخرى وهي أنّها إذا صمّمت على السير ولم تهن ولم تنكل يخشى عليها أن تزيغ وتنحرف في تطوّرها إذا لم يكن عندها... في أعماقها محور ترتكز عليه وترجع إليه، محور نابع من شخصيّتها التأريخيّة وذاتيتها العقائديّة.

وما يُؤمنها من أنفسها، وما يُؤمنها من الزيغ والانحراف في تطوّرها هو أن تعي تأريخها بعد تطهيره، وتأريخها هي - تأريخ الاُمم - ليس تأريخ حروب حكّامها، وانتصاراتهم ومجالس لهوهم، وإنّما هو تأريخ ثوراتها على هؤلاء الحكّام.

إنّ ثورات الاُمم هي التي تمثّل روحها ونضالها وإيمانها، أمّا الحكّام الذين ثارت عليهم فليسوا منها؛ لو كانوا منها لما ثارت عليهم، لو كانوا منها لأحسوا بعذابها، ولما خلقوا بتصرّفاتهم مبرّرات ثوراتها.

إنّ تأريخ الثورات هو تأريخ الشعوب. ولكي تبقى هذه الشعوب في يقظة دائمة لئلاّ تخدع عن انتصاراتها، ولكي تبقى في وعي دائم لعملها التطويري الذي تمارسه يجب أن تكون في ثورة دائمة

على أعدائها في الخارج والداخل لتحتفظ بانتصاراتها، وثورة دائمة على نفسها تتناول نفسها بالنقد، وتفحص موقفها دائماً؛ لئلاّ تنحرف وتزيغ. ولكي تبقى في ثورة دائمة تُصحح بها أوضاعها من الداخل والخارج يجب أن تُلقن تاريخ نفسها تاريخ ثوراتها؛ ففي هذا التأريخ تجد الأساس التأريخي لشخصيتها العقائديّة والنضاليّة فتعصمها شخصيتها العقائديّة من الزيغ والانحراف، وتعصمها شخصيتها النضاليّة من الوهن والنكول.

ولقد أهمل المؤرّخون الأقدمون تأريخ الثورات أو زيّفوه؛ لأنّهم - بوحي من أنفسهم أو حكّامهم - كانوا يعتبرون هذه الثورات حركات تمرّد وعصيان ضدّ السلطة الشرعية. أمّا الآن، فيجب أن يُصحح الوضع، يجب أن يُكتب التأريخ النضالي لأمّتنا كتابة صحيحة، يجب أن يكشف عن العذاب والاضطهاد والجوع الذي كان يدفع الناس إلى الثورة، إلى الموت احتجاجاً على واقعهم.

يجب أن يكشف عن الشخصيّة التأريخيّة لهذه الأمّة، ومحور ارتكازها العقائدي والنضالي غير التاريخ. يجب أن يكشف عن مناقبيّة الثائرين التي كانت تعصمهم دائماً من أن ينقلبوا إلى لصوص، أو سفّاحي دماء لا هدف لهم ولا يشعرون بمسؤوليتهم.

وتأريخ أمّتنا النضالي تأريخ مضيء؛ فالثورات التي قامت بها أمّتنا عبر العصور كانت دائماً تعبّر تعبيراً تلقائياً حرّاً عن هذه الأمّة وعن إنسانيتها، وعن رغبتها الحارّة في أن تعيش متمتّعة بكافة حقوقها الإنسانيّة.

وتأتي ثورة الحسين عليه‌السلام في كربلاء على رأس هذا التأريخ؛ فهي رأس الحربة في التأريخ الثوري، هي الثورة الأولى التي عبّأت الناس

ودفعت بهم في الطريق الدامي الطويل، طريق النضال، بعد أن كادوا أن يفقدوا روحهم النضاليّة بفعل سياسة الاُمويِّين.

وهي أغنى ثورة بالعزم والتصميم على المضي في النضال الدامي إلى نهايته أو النصر؛ فقد عُرضت على الثائرين أمتع حياة، ولكنّهم أبوا هذه الحياة التي 5/19 سيسكتون معها عن الظلم والعسف وإرهاب الأمّة.

وهي ثورة امتحن أبطالها بأقسى ما امتحن به الثائرون على مدى التاريخ. فلم يهنوا ولم ينكلوا بل ثبتوا - رغم كلّ شيء - ثائرين إلى اللحظة التي توّجوا فيها عملهم العظيم بسقوطهم صرعى في سبيل مبدئهم الحقّ.

وهي أنبل ثورة قام بها جماعة من الناس؛ فإنّ الثائرين لم يستهدفوا من ثورتهم مغنماً شخصياً لأنفسهم، وإنّما استهدفوا من ثورتهم تحرير مجتمعهم من الطغاة الذين كانوا يسومونه العذاب ويجرّعونه الصّاب؛ ومن هنا تأتي أهيمتها التأريخيّة والتطويرية، من أنّها النموذج المحتذى، النموذج الذي جاء كاملاً والذي يجب أن يُستوحى.

وحيث كانت بهذه المثابة وجب أن تنال عناية خاصّة من القيّمين على شأن الكلمة عندنا، فعلى هؤلاء - وهم القوّة المطوّرة والقائدة في الأمّة - أن يهتمّوا اهتماماً جدّياً بهذه الثورة بشرح الدور الذي أسهمت به تغذية روح النضال وإلهابها، وبالكشف عن أخلاقيتها التي بشّرت بها، وبإحلالها في محلّها اللائق بها تأريخنا الثوري.

وإنّ أدوات الأداء الحديثة لتتيح إمكانيات لا حدّ لها لاستخدام تأريخنا الثوري في تطوير مجتمعنا، وفي إبراز شخصيته التأريخيّة لعينيه؛ ليعمل على تركيز نضاله الحديث على الأسس التأريخيّة العقائديّة لحركته النضاليّة الكبرى عبر العصور.

الفهارس الفنيّة العامّة

1 - فهرس الآيات

2 - فهرس الأحاديث

3 - فهرس المصادر

فهرس الآيات

الآية رقمها الصفحة

البقرة

( يؤتي الحكمة مَنْ يشاء ومَنْ يؤت الحكمة ) 269 9

( ومن الناس مَنْ يعجبك قوله في الحياة الدنيا ) 204 - 205 113

( ومن الناس مَنْ يشري نفسه ابتغاء مرضات ) 207 114

المائدة

( وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم ) 2 251

التوبة

( والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ) 100 115

( لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ) 117 115

يوسف

( ما هذا بشر إن هذا إلاّ ملك كريم ) 31 24

الآية رقمها الصحفة

النور

( والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم ) 11 115

السجدة

( أفمن كان مؤمناً كمَنْ كان فاسقاً لا يستوون ) 18 68

الحجرات

( يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ) 13 92

(يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ) 6 68

القلم

( عُتل بعد ذلك زينم ) 13 169

فهرس الأحاديث

طرف الحديث الصفحة

مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين 9

وإنّي لم أخرج بطراً ولا أشراً 10

ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة 23 و221

يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ 25

أبالموت تخوّفني؟ وهل يعدو بكم 26 و223

لا والله، لا اُعطيهم بيدي إعطاء الذليل 26 و206 و224

لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري 41

أيّها الناس، إنّ لي عليكم حقّاً 61

دعوني والتمسوا غيري 62

الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحقّ له 65

أيّها الناس، إنّي رجل منكم 65

ألا لا يقولن رجال منكم غداً 66

ابدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعط كلّ 66

أمّا ما ذكرتم من وتري إيّاكم فالحقّ وتركم 69

فأمّا هذا الفيء فليس لأحد على أخد فيه أثرة 69

طرف الحديث الصفحة

وقُتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقُطعت الأيدي 79

المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم 91

أيّها الناس، إنّ الله تعالى أذهب عنكم 91

مَنْ قاتل تحت عمية يغضب لعصبية 92

أمّا إبليس فتعصّب على آدم بأصله 93

ليس بلد بأحقّ بك من بلدٍ، خير البلاد 93

نبلّوا سهلاً؛ فإنّه سهل 94

لو أحبّني جبل لتهافت 94

أمّا بعد، فقد بلغني أنّ رجالاً ممّن قبلك 95

وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة، وقد تداعوا 97

أتأمرونّي أن أطلب النصر بالجور 106

أنا مدينة العلم، وعلي بابها 116

تلقون من بعدي اختلافاً وفتنة 116

إنّكم سترون بعدي أثرة وأموراً تُنكرونها 117

مَنْ رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر 117

ستكون هنات وهنات، فمَنْ أراد أن 117

وهيهات هيهات يا معاوية! فضح الصبح فحمة 137

أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أنّه 137

الولد للفراش، وللعاهر الحجر 138

طرف الحديث الصفحة

ما أردت بمُصالحتي معاوية إلاّ أن أدفع 150

صدق أبو محمد، فليكن كلّ رجل منكم 151 و161

أمّا أخي فأرجو أن يكون الله قد وفّقه 151

فليكن كلّ رجل منكم حلساً من إحلاس 151 و161

وفهمت ما ذكرت عن يزيد 165

مثلي لا يُبايع سرّاً، ولا يجتزئ بها منّي 168

ويلي عليك يابن الزرقاء! أنت تأمر 169

أيّها الأمير، إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن 169

فمَنْ قبلني بقبول الحقّ فالله أولى 174

أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: مَنْ رأى سلطاناً جائراً 174

فإنّي الحسين بن علي، وابن فاطمة 175

نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم 176

ويلكم! ما عليكم أن تنصتوا لي فتسمعوا 176

تباً لكم أيّها الجماعة وترحاً! حين 177

وأيم الله، لو كنت في جحر هامة من هذه 188

والله لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه 188

جزاك الله خيراً يابن عمّ، فقد والله علمت 189

يابن عمّ، إنّي والله لأعلم إنّك ناصح 189

لأن أقتل بمكان كذا أو كذا أحبّ إليّ من أن 189

طرف الحديث الصفحة

يا أبا عبد الرحمن، أما علمت أن من هوان 189

صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء 190

قد غسلت يدي من الحياة، وعزمت على تنفيذ أمر 190

أمّا بعد، فإنّه قد أتاني خبر فظيع قتل 191 و226

ويلك يابن سعد! أما تتقي الله الذي إليه 193

يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم 199

أيّها الناس، اسمعوا قولي، ولا تعجلوني 204

أمّا بعد، فانسبوني وانظروا مَنْ أنا 204

هذان سيدا شباب أهل الجنّة 205

فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون 206

أمّا بعد يا أهل الكوفة، أتبكون؟ 212

أمّا بعد يا أهل الكوفة، يا أهل المكر 213

أيّها الناس، ناشدتكم الله، هل تعلمون 214

موت في عزّ خير من حياة في ذلّ 225

الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على 227

أمّا بعد، فقد نزل من الأمر بنا ما ترون 224 و227

أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى 228

ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف 230

لا تُقاتلوا الخوارج بعدي؛ فليس مَنْ 236

فهرس المصادر المطبوعة والمخطوطة

1 - القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحيّ القيوم.

حرف الألف

2 - إبصار العين في أنصار الحسين، طبعة النجف الأشرف، « نظام الحكم والإدارة في الإسلام » للشيخ محمد مهدي شمس الدين.

3 - الآثار الباقية عن القرون الخالية، لمحمد بن أحمد البيروتي، طبعة ليبك عام 1923 م.

4 - أحاديث عائشة اُمّ المؤمنين للعلامة العسكري، الطبعة الحيدرية في طهران، وطبعة 5 مطبعة صدر نشر دار التوحيد.

5 - الأخبار الطوال، لأحمد بن داود الدينوري (أبو حنيفة ت 282 هـ) تحقيق عبد المنعم عامر، طبعة دار المسيرة - بيروت، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة سن (1960 م).

6 - الاختصاص، المنسوب لمحمد بن محمد بن النعمان العكبري المعروف بالشيخ المفيد، نشر جماعة المدرسين، قم - إيران.

7 - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، (المعروف بمعجم الأدباء) ياقوت الحموي، طبعة مرجليوت، مصر 1907/1925 م.

8 - أسباب النزول، أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي (ت 468 هـ/1076 م) وبهامشه الناسخ والمنسوخ لهبة الله سلامة، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

9 - الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، عبد الله بن أحمد موفق الدين بن قدامة (ت 620 هـ)، تحقيق: علي نويهض. طبعة بيروت.

10 - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي أبو عمر المشهور بابن عبد البر النمري (ت 463 هـ)، تحقيق: علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. وتحقيق علي البجاري، طبعة القاهرة وبهامش الإصابة.

11 - الإسلام والحضارة العربيّة، محمد كرد علي، طبعة مصر سنة (1934 - 1936 م).

12 - اُسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت 630 هـ. ق)، تحقيق: محمد إبراهيم، طبعة - القاهرة 1390 هـ، وطبع بالأفست في المكتبة الإسلاميّة للحاج رياض، وطبع المطبعة الوهبية بمصر.

13 - الإصابة في تمييز الصحابة، محمد بن حبيب البغدادي، طبعة مولاي عبد الحفيظ، القاهرة (1328 هـ).

14 - الإصابة في تمييز الصحابة (بهامش الاستيعاب لابن عبد البر)، أحمد

ابن حجر العسقلاني (773 - 852 هـ)، دار العلوم الحديثة، وطبعات اُخرى لاحقة.

15 - الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال... خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، أيلول سبتمبر 1992 م دار العلم بيروت - لبنان.

16 - أعلام النساء، عمر رضا كحالة سنة (ت1413 هـ) مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان.

17 - أعيان الشيعة، محسن بن عبد الكريم العاملي (ت 1371 هـ)، تحقيق وإخراج حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.

18 - الأغاني، لأبي الفرج الإصبهاني (ت 356 هـ)، تحقيق: خليل محيي الدين، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى 1358 هـ، وكذا طبعة دار الفكر بيروت عام (1412 هـ).

19 - الإمام زيد حياته وعصره وآراؤه وفقهه، محمد أبو زهرة، المكتبة الإسلاميّة، بيروت - لبنان.

20 - الأمالي الكبرى المسماة بالخميسة، وأخرى مسمّاة بالإثنينية؛ لأنّ مؤلفها كان يمليها يوم الخميس والأخرى يوم الإثنين وهو الإمام المرشد بالله يحيى بن الحسين بن إسماعيل الجرجاني الشجري (412 هـ).

21 - الأمالي الصغرى، للإمام أحمد بن الحسين الهاروني، ويليه معجم الرواة في أمالي المؤيد بالله، تحقيق: عبد السلام الوجيه، دار التراث الإسلامي صعدة.

22 - أمالي المرتضى، علي بن الحسين العلوي، طبعة مصر عام 1325 هـ/1907 م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.

23 - الإمامة والسياسة، لأبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة

الدينوري (ت 276 هـ. ق)، مكتبة ومطبعة مصطفى بابي الحلبي، مصر 1388 هـ.

24 - السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، علي بن برهان الشافعي الحلبي، دار الفكر العربي، بيروت 1400 هـ.

25 - الأنساب، عبد الكريم محمد السمعاني (ت 562 هـ)، طبعة ليدن، وبتحقيق: عبد الرحمن المغلمي اليماني، طبعة بيروت، الطبعة الأولى 1408 هـ/1988 م، دار الجنان بيروت - لبنان.

26 - أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت 279 هـ.ق)، تحقيق: كمال الحارثي، طبعة مكتبة الخانجي - مصر 1125 هـ، طبعة مكتبة المثنى بغداد 1396 هـ، وتحقيق المحمودي، مؤسسة الأعلمي بيروت.

حرف الباء

27 - البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: علي شيري، دار الكتب العلمية، الطبعة الخامسة (1409 هـ) مطبعة السعادة مصر عام 1351 هـ.

28 - البداية والنهاية، محمد بن عبد الحر الكناني (ت 1312 هـ)، طبعة القاهرة (1351 - 1358 هـ).

29 - البدء والتاريخ، المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، وهو لمطهر بن طاهر المقدسي (ت 507 هـ) مكتبة الثقافة الدينية، وتحقيق: كلمان هوّاز، طبعة باريس 1903 ومطبعة السنّة المحمدية 1406 هـ.

30 - البدء والتاريخ، للمقدسي، طبعة (1988 م).

31 - البحر الزخّار الجامع لعلماء الأمصار، لأحمد بن يحيى المرتضى، صنعاء دار الحكمة اليمانية.

32 - البحار، للعلاّمة المجلسي، طبعة سنة (1412 هـ) مؤسسة الوفاء بيروت - لبنان، وأيضاً طبعة إيران، طبعة سنة (1394 هـ) إيران.

33 - بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، عماد الدين أبو جعفر محمد بن القاسم الطبري، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، الطبعة الثانية 1383 هـ ونشر مطبعة الخانجي مصر 1400 هـ.

34 - بطلة كربلاء، الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، موسوعة آل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1967 م.

35 - بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ)، طبعة مصر سنة 1326 هـ، طبعة اُخرى بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة (1964 م).

36 - البلدان، لأبي بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه، طبعة النجف الأشرف، طبعة ليدن.

حرف التاء

37 - تاريخ بغداد - لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، طبعة دار السعادة، مصر.

38 - التأريخ، يحيى بن معين (ت 233 هـ)، رواية عبّاس الدوري، تحقيق: أحمد محمد نور سيف، طبعة مكة المكرّمة 1979 م.

39 - التأريخ الكبير - لمحمد بن إسماعيل البخاري، طبعة حيدر آباد الدكن.

40 - تأريخ جرجان، للسّهمي حمزة بن يوسف (ت 427 هـ)، طبعة حيدر آباد الدكن 369/1950 م.

41 - تأريخ التمدّن الإسلامي، جرجي زيدان زيدان، الطبعة الثالثة.

42 - تأريخ ابن خلدون، المسمّى التأريخ أو العبر وديوان المبدأ أو الخبر، عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون (ت808 هـ)، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت 1971 م.

43 - تأريخ الخلفاء لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911 هـ)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، 1959 م، طبعة دار السعادة، مصر عام 1416 هـ.

44 - تأريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، لحسين بن محمد بن الحسن الدياربكري (ت 966 هـ)، طبعة القاهرة 1283 هـ.

45 - تاريخ الأدب العربي، (بالألمانية)، لكارل بروكلمان، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، الأجزاء الثلاثة الأولى، الطبعة الرابعة دار المعارف، القاهرة، أمّا الأجزاء الثلاثة الأخر، ترجمها الدكتور يعقوب بكر، والدكتور رمضان نواب.

46 - تأريخ مدينة دمشق، حمزة بن أسد الفلانسي (ت 555 هـ)، طبعة بيروت عام 1908 م.

47 - تأريخ مدينة دمشق، علي بن الحرّ بن عساكر (ت 571 هـ)، طبعة دمشق 1951 - 1954 م، طبعة 1982 م.

48 - تأريخ الإسلام، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748 هـ)، مكتبة القدسي، القاهرة 1368 هـ، تحقيق بشار عواد معروف، طبعة القاهرة (1977 م).

49 - تأريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الدكتور حسن إبراهيم، طبعة دار الكتاب، بيروت 1401 هـ.

50 - تأريخ الطبري تأريخ الرسل والأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (... - 310 هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة (1960 م)، طبعة أوربا، طبعة الاستقامة، مصر.

51 - تاريخ ابن عساكر (تأريخ مدينة دمشق)، الأجزاء التي حقّقها المحمودي، ترجمة الإمام علي والإمام الحسن والإمام الحسين عليهم‌السلام.

52 - تأريخ المدينة المنوّرة (أخبار المدينة)، لعمر بن شيبة، تحقيق: فهيم محمد شلتون، دار التراث والدار الإسلاميّة 1990 م، بيروت، لبنان.

53 - تأريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي المعروف باليعقوبي، طبعة النجف الأشرف 1354 هـ.

54 - تأريخ اليعقوبي، لابن واضح، طبعة دار صادر، بيروت، لبنان، وأيضاً النجف الأشرف، العراق.

55 - تذكرة الحفاظ، محمد أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748 هـ. ق)، تحقيق: أحمد السقا، طبعة القاهرة 1400 هـ، طبعة حيدر آباد الدكن 1387 هـ، طبعة دار إحياء التراث العربي، مكتبة الحرم المكي بمكة المكرّمة.

56 - تذكرة الخواص (تذكرة خواص الأمّة)، ليوسف بن فرغلي بن عبد الله المعروف بسبط ابن الجوزي، الحنبلي ثمّ الحنفي، نزيل دمشق (ت 654 هـ)، طبعة بيروت الثانية 1401 هـ، طبعة النجف الأشرف، طبعة مصر.

57 - ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليهما‌السلام من تأريخ مدينة دمشق الكبير، لعلي

ابن هبة الله المعروف بابن عساكر، طبعة دمشق.

58 - ترجمة الإمام الحسين عليه‌السلام من كتاب الطبقات الكبير القسم الغير المطبوع، لابن سعيد الزهري (230 هـ)، تحقيق: السيد عبد العزيز الطباطبائي، نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث 1415 هـ.

59 - ترجمة الإمام الحسن عليه‌السلام من تأريخ مدينة دمشق الكبير (571 هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي (1400 هـ).

60 - التاج المذهب لأحكام المذهب شرح متن الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، لأحمد بن قاسم العنسي (اليماني الصنعاني)، طبع القاهرة، دار إحياء التراث العربي الحلبي وشركاؤه.

61 - تفسير روح المعاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمد الآلوسي، طبعة مكتبة المثنى - بغداد 1396 هـ.

62 - تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، لإسماعيل بن عمر بن كثير البصري الدمشقي، (ت 774 هـ)، طبعة بيروت، دار المعرفة 1407 هـ، طبعة دار إحياء التراث العربي، طبعة دار صادر.

63 - تقريب التهذيب، محمد بن حبيب البغدادي (ت 245 هـ)، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، طبعة القاهرة (1380 هـ).

64 - تهذيب تأريخ مدينة دمشق الكبير، لابن عساكر، الشيخ عبد القادر زيدان، دار المسيرة، بيروت، لبنان.

65 - تهذيب الأحكام، لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (المتوفى 460 هـ)، تحقيق الحجّة السيد حسن الخرسان، الطبعة الثالثة، بيروت، دار

الأضواء عام (1406 هـ).

66 - تهذيب الأسماء واللّغات، يحيى بن شرف محيي الدين (ت 676 هـ)، طبعة القاهرة (1349 هـ).

67 - تهذيب الكمال، يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت 742 هـ)، طبعة دار المأمون، دمشق، ومطبعة مؤسسة الرسالة.د

68 - تهذيب المقال في تنقيح كتاب الرجال، للشيخ الجليل النجاشي، للسيد محمد علي الأبطحي.

حرف الثاء

69 - الثقات، لأبي حاتم محمد بن حبّان بن أحمد التميمي البستي (354 هـ)، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، عام 1369 هـ.

70 - ثورة زيد بن علي، لناجي حسن، طبعة بغداد 1366 هـ، مكتبة النهضة.

حرف الجيم

71 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفى 310 هـ).

72 - الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت 297 هـ)، تحقيق: أحمد محمد شارك، دار إحياء التراث، بيروت.

73 - الجامع الصحيح (صحيح مسلم) بشرح النووي، لمسلم بن الحجّاج بن

مسلم القشيري النيشابوري (ت261 هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى 1412 هـ.

74 - الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ)، الطبعة الأولى، القاهرة 1365 هـ.

75 - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت 671 هـ)، طبعة الفجّالة القديمة، مصر، والطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، تصحيح أحمد عبد العليم البرودني.

76 - الجداول المرضية في تأريخ الدول الإسلاميّة (تأريخ الدول الإسلاميّة بالجداول المرضية) كما أثبت في آخره، أحمد زيني دحلان، مفتي الشافعية بمكة، طبعة مصر 1306 هـ.

77 - الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس المنذر (ت 327 هـ)، تحقيق: عبد الرحمن المعلمي اليماني، حيدر آباد.

78 - جواهر العقدين في فضل الشرفين شرف العلم الجلي والنسب العلي، لعلي بن عبد الله الحسني السمهودي (844 - 911 هـ)، تحقيق: الدكتور موسى بناي العليلي، مطبعة العاني، بغداد 1405 هـ، نشر وزارة الأوقاف العراقية.

79 - الجمل، للشيخ المفيد، طبعة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، سنة (1381 هـ. ق).

80 - جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن جزم (ت 655 هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة القاهرة (1962 م).

حرف الحاء

81 - الأحكام السّلطانية، لأبي الحسن علي بن محمد البصري البغدادي الماوردي، الطبعة الأولى، مصر 1319 هـ.

82 - الإحكام لابن حزم، لعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي، أبو محمد، دار الحديث، القاهرة، 1404 هـ، طبعة 1.

83 - الإحكام للآمدي، لعلي بن محمد الآمدي، أبو الحسن، دار الكتاب العربي، بيروت 1404 هـ، تحقيق: الدكتور سيد الجميلي.

84 - حاشية الباجوري علي شرح الغزي علي متن الشيخ أبي شجاع، منشورات المكتب العالمي للتأليف والترجمة، دار مكتبة الحياة، بيروت 1381 هـ.

85 - حاشية البجيرمي على شرح النهج - لمحمد علي البجيرمي، المطبعة الهندية العربيّة، مصر 1313 هـ.

86 - حاشية ردّ المحتار على الدّر المختار - لابن عابدين، المطبع المصطفائي، لكهنو.

87 - الحاكم في معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الحاكم النيشابوري (ت 405 هـ)، طبعة دار الكتاب العربي.

88 - الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، لأبي عبد الله الشهيد حميد بن أحمد المحلي التميمي الوادعي، مطبوع ومخطوط في مكتبة آل كاشف الغطاء برقم 713، ومصوّرة عن مخطوطة نسخت سنة (1375 هـ)، دار أُسامة، دمشق 1405 هـ.

89 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله أبو نعيم الإصفهاني

(المتوفى 430 هـ).

90 - الحور العين، سعيد نشوان الحميري (1177 م)، تحقيق: كمال مصطفى، دار آزال، بيروت، والمكتبة اليمنية، صنعاء 1985 م.

91 - حياة الحيوان الكبرى، محمد بن موسى الدميري (ت 808 هـ)، طبعة المكتبة الإسلاميّة، بيروت.

92 - الحيوان، للجاحظ، طبعة القاهرة 1365 هـ، وكذا طبعة الحلبي من سنة (1357 هـ).

حرف الخاء

93 - الخرائج والجرائح، لأبي الحسين سعيد بن عبد الله الراوندي المعروف بقطب الدين الراوندي (ت 573 هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه‌السلام، قم 1409 م.

94 - خصائص أمير المؤمنين - ضمن السنن، الحافظ النسائي (303 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

95 - خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

96 - الخصائص الكبرى (كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب)، جلال الدين السيوطي، طبعة دار الكتاب العربي.

97 - خلاصة الأقوال في معرفة الرجال (رجال العلامة الحلي)، لجمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي (ت726 هـ)، تصحيح

محمد صادق بحر العلوم، منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى 1402 هـ.

حرف الدال

98 - دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت.

99 - دائرة المعارف الإسلاميّة، نقلها إلى العربيّة محمد ثابت الفندي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

100 - الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور، العاملي، زينب (ت 1332 هـ)، طبعة القاهرة (1312 هـ).

101 - الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

102 - دراسات في نهج البلاغة، محمد مهدي شمس الدين، طبعة النجف 1956 م.

103 - دلائل النبوّة، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الإصبهاني (ت 430 هـ)، نشر دار الوعي، حلب (1397 هـ).

104 - دلائل النبوّة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (458 هـ)، نشر دار الوعي، حلب 1397 هـ.

105 - دول الإسلام، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748 هـ)، تحقيق: فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، طبعة القاهرة (1974 م).

حرف الذال

106 - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، لمحب الدين أحمد بن عبد الله الشهير بالمحب الطبري (ت 694 هـ)، نشره حسام الدين القدسي بالقاهرة 1356 هـ.

حرف الراء

107 - رجال النجاشي، لأبي العباس أحمد بن علي النجاشي، تحقيق محمد جواد النائيني، طبعة دار الأضواء، بيروت.

108 - الروض الأنف، لعبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (581 هـ) تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، طبعة القاهرة.

109 - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، محمد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني.

110 - الرياض النضرة في فضائل العشرة، لمحبّ الدين الطبري الشافعي (ت 694 هـ. ق)، طبعة بيروت 1403 هـ، وطبعة ثانية في مصر، ودار الغرب الإسلامي، بيروت 1996 م، تحقيق: عيسى عبد الله محمد مانع الحميري.

حرف الزاي

111 - الزهد، الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت 241 هـ)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

112 - زينب الكبرى، جعفر النقدي، منشورات الرضي، قم المقدسة، الطبعة

الثانية، والطبعة الثالثة، منشورات الطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

113 - النسابة العبيدلي في (أخبار الزينبات)، أخذ بالواسطة.

حرف السين

114 - سُبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، لمحمد بن إسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني اليمني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الرابعة 1379 هـ.

115 - سُبل الهدى والرشاد، لصالح الشامي، طبعة مصر.

116 - سرّ السلسلة العلوية (مخطوط)، حياة الإمام زيد.

117 - سفينة البحار، المسمّى سفينة بحار الأنوار ومدينة الحكم والآثار، عباس بن محمد رضا القمي، طبعة النجف سنة 1355 هـ.

118 - السقيفة (أو) أئمة الشيعة، سليم بن قيس الكوفي الهلالي العامري (المتوفى 90 هـ)، طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

119 - السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت 458 هـ ق)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1405 هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت 1414 هـ مصوّرة من دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن 1353 هـ.

120 - سنن ابن ماجة، لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت 275 هـ)، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى

1395 هـ، ونشر دار الفكر، طبعة بيروت 1371 هـ.

121 - سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت 297 هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.

122 - سنن الدار قطني، لأبي الحسن علي بن عمر البغدادي المعروف بالدار قطني (ت 285 هـ) تحقيق: أبو الطيب محمد آبادي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الرابعة 1406 هـ، طبعة بولاق بالقاهرة.

123 - سنن النسائي، الحافظ المتوفى سنة (303 هـ)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

124 - سنن أبي داود، لأشعث السجستاني الأزدي (ت275 هـ. ق)، إعداد وتعليق: عزّت عبد الدعاس، طبعة دار الحديث، الطبعة الأولى، حمص 1388هـ، وطبعة مصطفى البابي - مصر 1391 هـ.

125 - سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 1374 م)، تحقيق: مجموعة من الباحثين تحت إشراف: شعيب الأرناوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

126 - السيرة النبوية، لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت 213 أو 218 هـ. ق)، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأنباري، وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة المصطفى، قم، الطبعة الأولى 1355 هـ.

127 - السيرة النبوية بهامش السيرة الحلبية، لأحمد بن زيني بن أحمد دحلان (ت 1304 هـ) طبعة دار الكتاب العربي، بيروت 1408 هـ.

128 - الشافي - في الجواب على الرسالة الخارقة، للفقيه عبد الرحيم بن أبي

القبائل، تأليف الإمام عبد الله بن حمزة الحسني (561 - 614)، الطبعة الأولى 1989 م، منشورات مكتبة اليمن الكبرى، اليمن، صنعاء ز

حرف الشين

129 - شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي المعروف بابن العماد (ت1089 هـ. ق)، تحقيق: الأرناوط، طبعة بيروت، ودمشق 1409 هـ، ونشر مكتبة القدسي، القاهرة 1350 هـ.

130 - شرح البحر الرائق، لزين الدين بن إبراهيم بن محمد المعروف بابن نُجيم المصري الحنفي.

131 - شرح نهج البلاغة، للشيخ محمد عبده، طبعة دار الكتاب العربي 1406 هـ، طبعة الفجّالة الجديدة، مصر 1403 هـ.

132 - شرح نهج البلاغة، للخوئي، طبعة دار الفكر، بيروت 1406 هـ.

133 - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي (ت 656 ه. ق)، تحقيق: محمد أبو الفضل، طبعة بيروت 1409 هـ.

134 - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (ت 655 هـ)، طبعة بيروت (1374 هـ)، وتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة، مصر.

135 - الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، طبعة القاهرة (1966 م).

136 - الشفاء بمعرفة حقوق المصطفى، لقاضي أحمد بن عيّاض بن محمد بن

عبد الله بن موسى بن عيّاض اليحصبي، أندلسي الأصل (496 - 544 هـ) طبعة بيروت.

137 - شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، لأبي القاسم عبيد الله بن عبد الله النيسابوري المعروف بالحاكم الحسكاني (من أعلام القرن الخامس، والمتوفى بعد سنة 470 هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مؤسسة الطبع والنشر، طهران، الطبعة الأولى - 1411 هـ.

حرف الصاد

138 - صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت 256 هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الرابعة 1410 هـ، ومطبع المصطفائي 1307 هـ.

139 - شرح صحيح البخاري، عبد الله بن إسماعيل، لمحمود بن أحمد العيني (ت 855 هـ)، مطبعة الفجّالة الجديدة، مصر 1376 هـ.

140 - صحيح الترمذي، لعيسى بن سورة الترمذي (ت 297 هـ)، طبعة بيروت 1405 هـ، مطبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنوّرة.

141 - الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله، السيد جعفر مرتضى العاملي، دار الهادي، دار السيرة، بيروت، لبنان.

142 - صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري، (ت 261 ه. ق)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة بيروت 1374 هـ، دار الحديث، القاهرة، الطبع الأولى 1412هـ، ودار إحياء التراث العربي، بيروت.

143 - صفوة الصفوة، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (597 هـ)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، وتحقيق: ماخوري قلعجي.

144 - الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيثمي (974 هـ)، تحقيق: عبد الوهاب اللطيف، مكتبة القاهرة.

حرف الضاد

145 - ضحى الإسلام، الدكتور أحمد أمين المصري، الطبعة الخامسة.

حرف الطاء

146 - طبقات أعلام الشيعة، للشيخ آقا برزك الطهراني، مؤسسة إسماعيليان، قم، الطبعة الثانية.

147 - الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد الواقدي الزهري (ت 230 هـ)، دار صادر، بيروت 1405 هـ، طبعة أوربا، طبعة ليدن.

حرف العين

148 - العبر في خبر مَنْ غبر، الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ)، بتحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، بتحقيق: فؤاد السيد، طبعة الكويت (1960 - 1969 م).

149 - العقد الثمين في تبيين أحكام الأئمة الهادين، الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة اليمني (566 - 614 هـ)، تحقيق: عباس الوجيه، صدر عن

مؤسسة الإمام زيد بن علي عليه‌السلام الثقافية.

150 - العقيدة والشريعة في الإسلام، إجناس جواد تسيهر.

151 - العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت 328 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وتحقيق: أحمد أمين وجماعة، طبعة القاهرة، وتحقيق: محمد سعيد العريان.

152 - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، لابن عنبه أحمد بن علي جمال الدين الحسيني (ت 828 هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف عام 1380 هـ.

153 - عيون الأثر، لأحمد بن عبد الله بن يحيى المشهور بابن سيد الناس (ت 734 هـ. ق)، طبعة دار المعرفة، بيروت 1401 هـ، طبعة القدسي 1356 هـ.

154 - عيون الأخبار وفنون الآثار، لابن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ)، طبع دار الكتاب العربي، وطبع قديم.

155 - عيون الأخبار، لابن قتيبة، طبعة المؤسسة المصرية العامة، سنة 1392 هـ.

حرف الغين

156 - الغارات، لابن إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد المعروف بابن هلال الثقفي، منشورات أنجمن آثار ملّي، طهران.

157 - الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، 1397 هـ/1977 م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

158 - غاية المرام، لهاشم البحراني، طبع دار القاموس.

حرف الفاء

159 - الإفادة في تاريخ الأئمّة السادة، للإمام الناطق بالحقّ أبي طالب يحيى بن الحسين بن هارون الهاروني الحسني، تحقيق: إبراهيم بن مجد الدين بن محمد المؤيدي، وهادي بن حسن بن هادي الحمزاوي، منشورات مركز أهل البيت للدراسات الإسلاميّة، اليمن صعدة، الطبعة الأولى عام (1422 هـ)، و(مخطوط).

160 - فجر الإسلام، الدكتور أحمد أمين، الطبعة الرابعة، الفجّالة الجديدة.

161 - الفتنة الكبرى - 2 - علي وبنوه، للدكتور طه حسين، طبع دار الهلال.

162 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، محمد بن حبيب البغدادي (ت 245 هـ) طبعة بولاق (1301 هـ)، طبعة السلفية (1390 هـ).

163 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، (ت 852 هـ)، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، والمطبعة السلفية مصر 1380 هـ، وتحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، القاهرة 1398 هـ.

164 - الفتح القدير (تفسير)، لمحمد بن علي الشوكاني، (ت 1250 هـ)، دار إحياء التراث العربي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت 1403 هـ.

165 - الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي، أجزاء دائرة المعارف الحيدرية، النجف 1962 م - 1382 هـ.

166 - فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري، (ت 279 هـ)، تحقيق: رضوان محمد رضوان، السعادة، القاهرة (؟199 م) وكذا طبعة (1319 هـ).

167 - الفخري في أنساب الطالبيِّين، للسيد عز الدين بن أبي طالب إسماعيل

ابن الحسين، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي، قم (1989 م - 1409 هـ).

168 - فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمّة من ذريتهم، لإبراهيم بن محمد بن المؤيد بن عبد الله الجويني الحمويني (ت 722 أو 730 هـ. ق)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، طبعة مؤسسة المحمودي، بيروت 1398 هـ.

169 - الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه‌السلام، مؤسسة آل البيت عليهم‌السلام لإحياء التراث، قم، نشر المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه‌السلام، مشهد المقدّس، طبعة 1406).

170 - فيض القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، (ت 1250 هـ)، طبع دار الصحابة.

171 - فيض القدير شرح الجامع الصغير، لأبي زكريا يحيى بن محمد عبد الرؤوف المناوي (ت 1031 هـ. ق)، الطبعة الأولى، القاهرة 1356 هـ.

172 - الفصول المهمة في معرفة الأئمة، علي بن محمد الصباغ المالكي (855 هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت (1408 هـ)، وكذا طبعة الحيدرية، النجف، العراق عام (1381 هـ)، وكذا طبعة دار الحديث، قم.

173 - فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن محمد حنبل الشيباني (241 هـ)، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، دار العلم، الطبعة الأولى 1403 هـ، وطبعة جامعة أم القرى السعودية.

174 - فضائل الخمسة من الصحاح الستة، لمرتضى الحسيني الفيروزآبادي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة 1973 م.

175 - الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن حزم (ت 456 هـ).

طبعة القاهرة (1321 هـ).

176 - فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي (ت 764 هـ)، تحقيق: إحسان عباس، طبعة بيروت (1973 م).

177 - الفهرست، لمحمد بن إسحاق بن النديم، تحقيق: ناهد عباس عثمان، نشر دار قطري بن الفجاءة، الطبعة الأولى، الدوحة، قطر 1985 م.

حرف القاف

178 - قاموس الرجال في تحقيق رواة الشيعة ومحدثيهم، لمحمد تقي بن كاظم التستري (ت 1320 هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الثانية 1410 هـ.

179 - القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية 1952 م.

180 - القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي (ت 1205 ه. ق)، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت 1405 هـ.

حرف الكاف

181 - الكافي (الاُصول)، الطبعة الإسلاميّة، عام (1388 ه. ق)، طهران، ثم طبع سنة (1377 ه. ق) الحيدري، طهران، إيران.

182 - الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرام محمد محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير (ت 630 هـ) عُني بمراجعة اُصوله: نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

183 - كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي (ت 975 هـ)، تصحيح صفوة السقا، مكتبة التراث الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1397 هـ، وطبع دار الوعي، حلب 1396 هـ.

184 - كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، لعلي بن عيسى الإربلي (ت 687 هـ)، تصحيح هاشم الرسولي المحلاتي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1401 هـ، طبعة تبريز بدون تأريخ.

185 - كشف المراد، لجمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي (ت 726 هـ)، طبعة دار الفكر، ودار إحياء التراث، بيروت.

حرف اللام

186 - لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت 711 هـ. ق)، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت 1410 هـ.

187 - لسان الميزان، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852 ه. ق)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1416 هـ.

حرف الميم

188 - مآثر الإنافة في معالم الخلافة، لأحمد بن عبد الله القلقشندي (ت 821 هـ)، تحقيق: عبد الستار فراج، طبعة عالم الكتب، بيروت.

189 - الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية، الدكتور أحمد محمود

صبحي، منشورات العصر الحديث، الطبعة الأولى عام (1410 هـ).

190 - المختصر في أخبار البشر، (تأريخ أبي الفداء)، لعماد الدين إسماعيل أبو الفداء، (ت 732 ه. ق)، نشر مكتبة القدسي، طبعة القاهرة 1408 هـ، طبعة إدارة ترحاب السنّة، باكستان، المكتبة الإعدادية.

191 - مختصر تأريخ العرب، سيد أمير علي، أخذ بالواسطة.

192 - مجلّة الأضواء الإسلاميّة، النجف الأشرف، في العدد الثاني من السنة الأولى في 1 محرم 1380 - 26 حزيران 1960 م.

193 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لعلي بن أبي بكر الهيثمي، (ت 807 هـ. ق)، تحقيق: عبد الله محمد درويش، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت (1412 هـ. ق)، مصوّرة عن طبعة القدسي 1389 هـ. ق، طبعة القاهرة الثانية بدون تأريخ.

194 - مرآة الجنان، لعبد الله بن سعد اليافعي، طبعة دار صادر، بيروت 1405 هـ.

195 - المراجعات، عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي، طبعة بيروت.

196 - مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت346 ه. ق)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، الطبعة الرابعة، القاهرة 1384 هـ.

197 - المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1411 هـ، طبعة حيدر آباد.

198 - مسند أحمد، لمحمد بن حنبل الشيباني (ت 241 ه. ق)، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، طبعة دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت 1414 هـ، طبعة جامعة اُمّ القرى السعودية، طبعة دار العلم 1403 هـ.

199 - مسند ابن ماجه، لمحمد بن يزيد القزويني (ت 275 هـ. ق)، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر، طبعة بيروت 1371 هـ، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى 1395 هـ.

200 - مسند الطيالسي، لسليمان بن داود الطيالسي (ت 204 ه. ق)، طبعة دار صادر، بيروت 1402 هـ.

201 - المصابيح، لأحمد بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن إبراهيم بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب 248، تحقيق: عبد الله بن أحمد الحوثي، طبع مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية.

202 - المصنف، عبد الرزاق بن همّام الصنعاني (211هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، طبعة بيروت سنة (1390 هـ)، وما بعدها.

203 - معوية بن أبي سفيان، محمود عباس العقاد، طبع بمطابع مؤسسة دار الهلال.

204 - المعجم الصغير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت 360 هـ)، تحقيق: محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1401 هـ.

205 - المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبري (360 هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى (1407 هـ)، قام بإخراجه إبراهيم مظفر وآخرون، تحت إشراف: مجمع اللغة العربيّة، مصر.

206 - المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني (ت 360 هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1404 هـ.

207 - المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت 360 هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، وعبد الحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة 1415 هـ.

208 - معجم البلدان، لأبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت 626 هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1399 هـ. ق.

209 -، معجم رجال الحديث، السيد أبو القاسم بن علي أكبر الخوئي، طبعة دار إحياء التراث، بيروت 1406 هـ، ومنشورات مدينة العلم، قم، الطبعة الثالثة 1403 هـ.

210 - مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، (ت 548 هـ. ق)، طبعة دار المعرفة، بيروت 1419 هـ، طبعة دار إحياء التراث العربي.

211 - المغني، لأبي محمد موفق الدين محمد بن عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت 620 هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت 1359 هـ، طبعة محمد علي صبيح وأولاده.

212 - المغني، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، على مختصر لأبي القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي، مطبعة المنار، مصر 1342 هـ.

213 - مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشرح للشيخ محمد الشربيني الهجري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

214 - الملل والنحل، لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي (ت 429 هـ)، تحقيق: البير نصري نادر، طبعة دار المشرق، بيروت 1970 م.

215 - الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت 548 هـ) على هامش (الفصل)، لابن حزم الظاهري، الطبعة الثانية، اُفست، دار المعرفة، بيروت.

216 - مناقب آل أبي طالب، لأبي جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت 588 هـ)، المطبعة العلمية، قم، طبعة النجف الأشرف.

217 - مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لمحمد بن سليمان الكوفي القاضي (ت 300 هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامي، قم، الطبعة الأولى 1412 هـ.

218 - مقاتل الطالبيِّين، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الإصبهاني الأموري (284 - 356 هـ)، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

219 - مقتل الحسين عليه‌السلام ومصرع أهل بيته وأصحابه بكربلاء (المشهور: مقتل أبي مخنف)، أبو المخنف لوط بن يحيى، مكتبة العلوم العامة، البحرين، مكتبة الخبر، صنعاء - ج. ي. (مصور عن أصل مخطوط) يقع في (144) صفحة.

220 - منتخب كنز العمال، علي بن حسام الدين بن عبد الملك (885 - 975 هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

221 - موسوعة الملل والنحل، أبي الفتح الشهرستاني عام 1981 م، بدون ذكر لاسم الدار الناشر.

222 - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، (ت 748 هـ. ق)، تحقيق: محمد البجاوي، طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1963 م، وطبع القاهرة 1325 هـ، دار الفكر، بيروت.

223 - الميزان في تفسير القرآن، لمحمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الثانية 1397 هـ.

224 - ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748 هـ)، تحقيق: علي البجاوي، طبعة القاهرة (1963 م).

حرف النون

225 - نظام الحكم والإدارة في الإسلام، محمد مهدي شمس الدين، الطبعة الأولى، منشورات حمد، بيروت 1374 هـ.

226 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات مبارك بن مبارك الجزري المعروف بابن الأثير الشيباني الشافعي (ت 606 هـ)، تحقيق: ظاهر أحمد الزاوي، مؤسسة إسماعيليان، قم الطبعة الرابعة 1367 هـ.

227 - نهاية الإرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري (ت 732 ه. ق)، تحقيق: كمال مروان، طبعة القاهرة 1249 هـ.

228 - نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، لأحمد بن عبد عبد الله القلقشندي (ت 821 ه. ق)، نشر إدارة البحوث العلمية، طبعة بيروت 1402 هـ.

229 - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، لمؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي (ت 1298 هـ)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1398 هـ.

230 - نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، للقلقشندي، طبعة بغداد.

231 - النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، دار التعارف سنة 1988 م.

232 - نسب قريش، لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (156 - 236 هـ)، عُني بنشره إليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة.

حرف الواو

233 - وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، طبع مؤسسة آل البيت 1414 هـ.

234 - الوافي، لمحمد محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني، نشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه‌السلام، أصفهان 1406 هـ.

235 - الوفاء بأخبار المصطفى، لابن الجوزي، طبعة 1395 م، مطبعة السعادة، مصر.

236 - الوافي، لمحمد محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني، نشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه‌السلام، أصفهان 1406هـ.

237 - الوافي بالوفيات، لصفي الدين خليل بن أبيك الصفدي، دار النشر فرائزشتانيز، قيسبادان.

238 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد البرمكي المعروف بابن خلكان (ت 681 هـ. ق) تحقيق: الدكتور إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت 1398 هـ.

239 - وقعة صفّين، لنصر بن مزاحم المنقري، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة، الطبعة الثانية، ونشر مكتبة السيد المرعشي النجفي، قم 1382 هـ.

حرف الياء

240 - ينابيع المودة لذوي القربى، لسليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت 1294 هـ)، تحقيق: علي جملا أشرف الحسيني، طبعة أسوة، الطبعة الأولى ن قم 1416 هـ، والطبعة الحيدرية في النجف الأشرف.

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسّلام على محمّد وآله الطاهرين